

السيرة النبوية

محمد رسول الله
والذي معه

بني إسرائيل

عبد الحميد السحر

دار مصر للطباعة

سعيد جودة السحر وشركاه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ۝ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلِ الْأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ ، وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

(قرآن كريم سورة البقرة : ١٣٩ ، ١٤٠)

وهذه مواليد إسماعيل بن إبراهيم ، الذي ولدته هاجر المصرية جارية سارة لإبراهيم ، وهذه أسماء بنى إسماعيل بأسمائهم حسب مواليدهم : بنيوت (نابت) بكر إسماعيل وقيدار ، وإذبيل ، وميسام ، ومشماخ ، ودومة ، ومسا ، وحدار ، وتيما ، وبطور ، ونافيش ، وقدمة . هؤلاء هم بنو إسماعيل ، وهذه أسماؤهم بديارهم وحصونهم .

(التوراة — تكوين ٣٥ ، ٣)

قال ابن عباس : نحن معاشر قريش من النبط .

أنفاس الدين تتردد في جنبات مكة ، وقلب الإيمان يخفق في أول بيت وضع للناس ، والفيض الروحي يومض في قلوب المؤمنين فيرفع أحلامهم إلى ما وراء الطبيعة ، إلى هدف علوي تشتاق الأقدسة إليه وتقصّر عن أن تبلغ مداه وإن جدت في الطلب ، وإن اجتهدت في العمل .

قيثارة الإيمان تعزف ألحانا تسمو بالمؤمنين إلى رحاب السماء فتبث في نفوسهم قوة تدفعهم إلى العمل في سبيل الله ، وتجعلهم يسرون في تناسق واتجاه واحد ، فاللهم واحد وقبلتهم واحدة وغايتهم واحدة هي إعادة كلمة الله .

كانوا يعيشون لله وفي الله وبالله ، اشتعلت الشعلة المقدسة فيهم وأنار النور — الذي أنزله الله من السماء — طريقهم ، فإذا بالمجتمع الصغير الذي تكون حول بئر زمزم قد انصهر في مجتمع واحد متناسق ، أفكاره واحدة وعقيدته واحدة ، اتحدت كلمته واتفقت نظراته واطمأن إلى أن المجتمع لله والأرض لله ، ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ﴾ .

وانحدرت الشمس لتغرب خلف جبال مكة فخرج الناس من خيامهم التي انتشرت على سفوح الجبال ، وراحوا يهبطون إلى الوادي المقدس ليطوفوا بالبيت العتيق .

وخرج نابت بن إسماعيل من خيمته وكان شيخا جليلا ، ولّى أمر البيت بعد أبيه إسماعيل ، إنه من الصفوة خلاصة حضارتين عظيمتين ، حضارة بابل

ومصر ، فقد كان جده خليل الرحمن من أور وجدته هاجر من مصر ، وكان أول وريث للنسبة الروحية التي بثها في مكة جده وأبوه .

تعلم أن الإنسان لا يعيش بالخيز وحده ، فكان يبارك قوافل التجارة الغادية إلى مكة والخارجة منها ، وفي نفس الوقت يغذى الوجدان الروحي النابض في قلوب المؤمنين ، ويقم حضارة المجتمع الجديد على تقوى من الله وأساس من الدين .

جاء إبراهيم مشارق الأرض ومغاربها يدعو الناس إلى عبادة الله في بابل وسورية وفلسطين ومصر وبلاد الحجاز ، وخرج إسماعيل لدعوة اليمن إلى الله الواحد القهار ، كانت دعوة إلى أخوة عالمية وإلى إقامة نظام عالمي تسوده شريعة الله ، فورث نابت الفكرة ولم يتعصب للقومية الجديدة التي كانت تبلور حول زمزم والبيت المحرم ، بل كان يجوب الآفاق ويبعث قوافل المؤمنين إلى الأرضين دون أن يعترف بحواجز ولا حدود ، فالأرض كلها لله .

كان نابت من الطبقة الممتازة القادرة على حمل الرفاق إلى طريق الدنيا والدين ، إلى عز الحياة ونعيم الآخرة ، وكان صوته يفعل في الجماهير فعل السحر ، كان يوقظ الهمم ويبعث الأمل ، فهو منذ أن ولدته أمه معقد الرجاء ، وقد نزل في سويداء قلوب المؤمنين .

ونظر نابت حوله فرأى غنمه وغنم قومه قد غطت سفوح الجبال ، فلم تهلل بالفرح نفسه ، ولم يسئل لعاب طمعه ؛ فقد تحرر من عصبية القومية الاقتصادية يوم غرس في نفسه أن المال مال الله ، والعاقبة للمتقين .

رأى الكعبة غارقة في النور وإن كانت الشمس قد غابت أو أوشكت أن تغيب . كان الكون كله خاشعا في محراب الله ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ، وعباد الرحمن يشكرونه وعلى ربهم يتوكلون . والجبال توثوب مع الساجدين ، والطيور صافات كل قد علم صلاته وتسميحه .

وأحسن نابت رحابة في نفسه ورقة في وجدانه وأن روحه قد هامت لتصل بروح الوجود ، وأنها سبحت في بحور النشوة التي غمرت السموات والأرض ، وأن مشاعره كلها قد خرت ساجدة لله رب العالمين .

وألقى بصره إلى بئر زمزم فإذا بالناس قد ازدحموا عندها : الرعاة قد وردوها ليسقوا غنمهم وإبلهم وماشيئهم ، والنسوة ينتظرن ليملأن جرارهن ، وإذا به يشرده ويتذكر هاجر جدته من كانت تملك البئر المباركة التي بدأت تتكون حولها أمة مؤمنة على نور من ربها وعلى صراط مستقيم .

نبض الوادى القفر بالحياة ، وخفقت في ربوعه أرواح نفوس مؤمنة عرفت طريق الله ، وقام في وسطه بيت مطهر تهفو إليه قلوب المسلمين ليكون منارة للعالمين ، فإن كان الله قد أمر خليله أن يحمل هاجر وإسماعيل إلى هذا الوادى فقد كان ذلك لنباً عظيم ، لأمر جليل . وما الله يريد ظلماً للعباد . وانحدر نابت إلى الوادى وهو يتهل إلى الله .

— ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير .

وحانت منه النفثاة إلى شمال مكة فألقى خيام جرهم قد غطت سفوح الجبال بعد أن كانت خيامها قليلة متناثرة على عهد هاجر وإسماعيل . أصبحت جرهم قبيلة قوية وكان سيدها مضاض بن عمرو الجرهمي رجلاً قسوى الشكيمة له مكانته في قومه لا يعصون ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . والتفت إلى الجنوب فإذا بخيام قطوراء انتشرت كقطع الليل تغطي الأرض ، كانت قطوراء قبيلة من العمالق ، وكان سيدها السמידع قد استأذن هاجر أن تنزل قبيلته حيث نزلت فأذنت له ، على أن تقر بأن زمزم لها ولأبنائها من بعدها .

كانت البئر لهاجر ولكنها لم تكن ملكية خاصة ، فقد سميت عن أن تكون ملكية خاصة ، إنها للجميع يردها من يشاء لا يصد عنها إنسان . كل ما كان

هاجر ولأبنائها من بعدها أن يصونوا حرية الشارين وأن يكون لهم شرف سقاية حجيج بيت الله .

وراح نابت يهبط في الجبل وقد ولي وجهه شطر المنجد الحرام ، وانطلق ابنه يشجب في أثره وأطبق شفثيه احتراماً لصمت الشيخ الجليل وما يدور في رأسه من أفكار .

كان نابت مشغول البال بمضاض بن عمرو وبالسמידع وبأطماعهما التي تطل برأسها بين الحين والحين ، إنه يطمع في أن يؤلف بين قلوب الجراهمة وقلوب قطوراء ، بل يطمع في أخوة الجنس البشري بينما كانت أطماع الآخرين أن تنصب كل قبيلة نفسها سيدة على القبائل الأخرى .

إنه يخاف على قومه شر الانقسامات الداخلية لأنه على ثقة أن الشقاق هو السوس الذي ينخر في عظام قومه ، وما كان يخاف عليهم أن يغزوهم قوم آخرون بل كان يخشى أن يكون بأسهم بينهم شديداً .

فإذا كان اليوم سيد قومه ، له ولاية البيت وسقاية الحجيج ، يدين له بالزعامة والولاء جرهم وقطوراء ، ترى أيدين عمرو والسמידع بالولاء لإخوانه وأبنائه من بعده ؟

إن عمراً صاحب أطماع ، ويزيد من خطرته أن إسماعيل وبنيه تزوجوا نساء من جرهم ، فأصبح عمرو وقبيلته أحوال بنى إسماعيل وهذا شرف يطال به على قطوراء والعماليق ، ولكن السמידع رجل حرب بأسه شديد وسلطانة مبین ، بعد أن دانت للعماليق الشام ومصر .

إن دعوة إبراهيم لا يزال وهجها شديداً في قلوب من نزلوا حول زمزم ، أيستطيع نور الإيمان أن يبهز وساوس الشيطان في نفس عمرو وفي نفس السמידع ، أم تنتصر شهوات الدنيا وتقوم بينهما حرب ؟

وأفرع ذلك الخاطر الشيخ وزلزل كيانه ، أيكون في الحرم — الذي يلوذ

به الخائف ويأمن فيه الطير — قتال ؟ أتسفك الدماء في البيت الذي أقيم ليكون منارة للسلام ؟ أنتهك حرمة البيت وفيه أحفاد الخليل ؟ جزع لذلك الوسواس فراح يستعيز بالله من الشيطان الرجيم .

والتفت الشيخ خلفه — وقد وهن العظم منه واشتعل الرأس شيئا — فوقعت عيناه على ابنه يشجب ، فمد إليه يده وجذبه في رفق وضعه إليه في حنان ليقيضي على القلق الموار في جوفه ، وعلى الخوف من ذلك المجهول الذي استبد به .

ووقعت عيناه على منازل إخوته أسباط إسماعيل الصابر الأمين . إنهم أحد عشر زعيما ذوو قوة ومنعة ، تعلقت قلوبهم بالبيت الذي جعله الله مثابة للناس وأمانا كما تعلق به قواده ، فإن كانت أيامه على الأرض قد دنت فسيصون إخوته وبنوه حرمة البيت وسيظل مشرفا ما دامت السموات والأرض .

واستلم الحجر الأسود ، وراح يطوف بالبيت سبعا ، ويتהל إلى الله ويدعو من أعماقه أن يصون بيته . وترقرقت العبرات في مآقيه ، وكان كلما طاف بحجر إسماعيل حيث قبر هاجر وقبر أبيه ، يشرق بالدموع إذ كان مشفقا من فتنه تكون بعده .

وأم طوافه وإذا بصوت يدوي في أعماقه : إن للبيت ربا يحميه ، فاستشعر كأن حملا ثقيلا انزاح عن صدره وعاد لنفسه صفاؤها ورحابتها ، فذهب يصلي في مقام إبراهيم وباب الكعبة أمامه وزمزم خلفه ، وقد عبق ما بين السماء والأرض بأريج أطيب من المسك لم يمتلئ به أنفه بل انتشت به روحه . وزاد في طمأنينة قواده أن أحس كأن نورا انسكب في وجدانه أنار بصيرته ، فقد كان على هدى من ربه .

جلس نائبا في الحرم وقد تهلل وجهه بالرضا ، وجلس يشجب إلى جواره ، وما إن رأى مضاض بن عمرو الجرهمي الشيخ الوقور حتى خف إليه

وجلس عنده يلقى السمع إل عذب حديثه . وسرعان ما هرع إليه السميع بقلب سليم .

وجاء من كان في الحرم من بنى إسماعيل إلى حيث جلس أمير القوم وشيخ الإسماعيليين وسلموا عليه في توقير ، ثم جلسوا جميعا يصفون ، وإذا بصوت الزعيم يخلق بالمريدين في فيض من الروح ويسمو بهم إلى هدف بعيد ، فنامت الأحقاد ودالت الدنيا إلى حين .

ودار الحديث عن القافلة التي تجهزت وتنتظر أن يأذن لها لتنتقل إلى مصر فإذا بأشواقه تتحرك ، فقد أقعدته السن عن أن يخرج مع الخارجين . إنه ضرب في الشمال والجنوب والشرق والغرب وهبط إلى مصر ، فإذا كان قد استقر بجموار البيت فقد كانت الأرض كلها وطنه وقد مكته دينه من أن يقضى على العصبية القومية السياسية ؛ فلم يعد يفضل أرضا على أرض أو شعبا على شعب .

وحانت منه التفاتة فرأى أخاه قيدار وابنه نبت يتحدثان مع كتاب جلسوا عند الملتزم بين الحجر الأسود وباب الكعبة ، يكتبون الكتب ويرمون العقود ويوثقون المواثيق ويشهدون رب البيت على ما اشترطوا من شروط ويسألونه أن ينزل غضبه على من خان أو ظلم ، فراح ينظر إلى أخيه وابن أخيه برهة وشع من عينه الحب العميق ، ثم عاد ليخوض مع من التفوا حوله فيما كان بينهم من الحديث .

وأقبل قيدار على الملأ مهيبا فخما عليه جلال لكأنما بعث إبراهيم خليل الرحمن من جديد ، كان أقرب آل إبراهيم شبها بمجده العظيم ، فإن كانت ولاية البيت لعابت بكر إسماعيل فما كان سيل الضيفان لينقطع عن خيام قيدار السود .

كان قيدار ثاني أبناء إسماعيل وكان قريبا من قلوب إخوته وقلوب المؤمنين

لورعه وتقواه ، وما كان ابنه يشجب بفارقه فقد كان ينهل من بحر علمه ،
وفسح الحاضرون مكانا للقادم الكريم ليجلس إلى جوار أخيه ، فانسل النبت
ليجلس إلى جوار يشجب ابن عمه .

ودار الحديث وكان نابت بين لحظة وأخرى يلتفت إلى قيدار فيجده
مشغولا عن عذب الكلام بأفكاره ، فمال عليه وقال في رقة :

— ما الذى يشغل بالك يا أخى ؟

فانتبه قيدار من شروده وقال :

— الكتابة العربية .. إنها صعبة .. إن أى رحمة الله يوم وضعها وضعها

موصولة على لفظها ومنطقها .

— وما تريد أن تفعل بها ؟

— أريد أن أيسرها بأن أفرق بين ألفاظها .

— افعل بارك الله فيك .

تعلمت هاجر — أيام أن كانت أميرة في مصر — الكتابة الفيروغليفية على
أيدي كهنة منف ، وقد علمت إسماعيل صيا تلك الكتابة عند بئر زمزم بعد
أن أسكنها إبراهيم بوادى مكة ، فلما شب إسماعيل طوّر تلك الكتابة ووضع
القلم العربى موصولا على لفظه ومنطقه ، وقد عزم قيدار على أن يفرق بين
الألفاظ تيسيرا للكتابة ليخطو القلم العربى خطوة في سبيل تطوره .

وقام نابت وقيدار فقام عمرو بن مضاض والسמידع ومن كان حاضرا من
جرهم وقطوراء وبنى إسماعيل ، وانطلقوا إلى حيث كانت القافلة قد تجهزت
للرحيل .

كانت القافلة تحمل البخور والطيب والفضة ، وشباب الإسماعيليين
يتأهبون للانطلاق إلى وادى النيل ، فدنا نابت من شيخ القافلة وكان من بنى
إسماعيل وقال له :

— هل جاءت الهدايا التي ستحملها إلى أبناء عمنا ؟

— نعم .

— وهدايا أختنا ؟

— إنها في راحلتي .

كان المدينيون أبناء ابن عمه مديس ، وكان الأدوميون أبناء أختهم محلة ، وقد ولدتهم من ابن عمه العيص ، وسمى العيص آدم لأدمته فصار بسوه الأدوميين

كان نابت على صلة طيبة بأبناء أعمامه جميعا ، وكان يرى فيهم ورثة الصلحة الروحية الذين سيتشلون البشرية من المادية الطاغية ليبسوا حصارا متألفة على تقوى من الله . فإن كانوا اليوم جماعات متفرقة إلا أنهم متاسقون لا بد أن يندمجوا يوما في مجتمع واحد قوى ما دام إليهم واحدا وغايتهم واحدة ، وسيأتي اليوم الذى يسودون فيه بديهم على كل الشعوب ويجعلون العالم أمة واحدة مؤمنة برب العالمين .

يا طالما رار عمه مدين وأخته محلة بست إسماعيل ، وخرج إلى جبرون ليعرى في موت عمه إسحاق ، وزار قبر الخليل ، واجتمع بابن عمه يعقوب وبنيه بعد أن عاد من حاران يحمل أهل بيته ، ويا طالما حاول أن يشد الأواصر بين بنى إسماعيل وبنى إسحاق ، فإن لم ينجح فى أن يحقق حلمه الجميل فى روح دين إبراهيم فقد كان على ثقة من أن ذلك الأمل سيتحقق فى يوم من الأيام .

كان قلبه عامرا بطاقة روحية رفعت فوق شهوات النفس وعرض الدنيا وزينة الحياة ، فحسب أن قلوب بنى إسماعيل وبنى إسحاق تطهرت من حب المادة ما داموا قد ورثوا دين إبراهيم ، وأهم سائرون على الطريق .

وتنفت حوله فإذا به يحاط بى إسماعيل وأخوانهم من حريم ورجال من قطوراء ، رآهم فى تلك اللحظة كأنهم على قلب رجل واحد فأشرق وجهه

بالرضا وأشار للقافلة أن تنطلق وهو يقول :

— سيروا باسم الله وعلى بركة الله .

وفصلت العير وانسابت قافلة الإسماعيليين في محراب الكون في رعاية الله بعد أن ألقوا نظرة وداع على البيت المحرم ، ووقف ثابت يرقب القافلة وقد راودته أشواقه وحملته إلى حبرون ، وإذا بهمس يسرى في وجدانه :
« يعقوب ! إنك مبارك ، إنك من الصالحين . ترى كيف حالك بما يعقوب ؟ » .

٢

وقف يعقوب يصلى في المحراب في حيمة الرب التى أقامها جده الخليل فى الأرض التى بارك الله فيها للعالمين ، وكان قلبه خاشعا لذكر الله . ولما أتم الصلاة راح يسأل الله أن يأتبه فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ، ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين .

ذهب إبراهيم الخليل ولم يترك فى حبرون إلا حيمة تقام فيها الشعائر ، فلم يأمره الله أن يقيم بيته فى حبرون ، بل بوأ له مكان بيته هناك فى مكة ، وأمره أن يقيم القواعد من البيت وإسماعيل ، وعهد إليهما أن يطهرا بيته للطائفتين والقائمتين والركع السجود ، وأمر إبراهيم أن يؤذن فى الناس بالحق يأتوه رجالا وعلى كل صامر يأتين من كل فج عميق .

إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين ، وقد فرص الله على الناس حجه ولم يفرض عليهم أن يشدوا الرحال إلى حبرون ، ولا جرم أن الله يعلم السر فى السموات والأرض ، إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون .
وقدر الله أن يكون لبنى إسماعيل شرف ولاية بيته وخدمة حججه ،

وجعل الله لكل أمة منسكا لئذ كروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، فاللههم إله واحد ، حنفاء لله غير مشركين به ، ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق ، ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب .

وأوحى الله إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب ما أوحى وفضلهم على العالمين ، فإن كان الله قد أكرمهم فيما قدمت أيديهم فقد عت وجوههم للحى القيوم وأسلموا لله رب العالمين ، وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال : إني جاعلك للناس إماما ، قال : ومن ذريتي ؟ قال : لا يبال عهدي الظالمين . لا يفضل الله ذرية على ذرية ، ولا شعبا على شعب ، ولا أمة على أمة بل يصطفى من عباده المؤمنين ، كذلك يجرى المحسنين إنه كان خيرا بصيرا .

وخرج يعقوب من الخيمة يتلفت حوله فآلفى الوجود ساجدا في معبد الرب ، يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض له الملك وله الحمد ، ولكن الكنعانيين قلوبهم غلب وفى آذانهم قر ، عميت بصائرهم وقست أكبادهم ، وأفتتهم التجارة والبيع عن ذكر الله فصارت غاية حياتهم جمع الأموال وإشباع الشهوات وحسى اللذات من كل محرم .

نهى جده حليل الرحمن ابنه إسحاق عن أن يتزوج منهم ، وبعث اليعازر الدمشقى خازن بيت ماله إلى حاران ليحطب له رفقة ابنة عمه ناحور ، وأرسله أبوه إسحاق إلى بيت حاله لئلا يتحد له روجة من بنات خاله لتكون له ذرية طيبة لا يجرى فى عروقها دنس الكنعانيين .

وسرح خياله يسترجع ما فات فرأى نفسه شابا يافعا يدخل حاران ، ورأى راحيل عند الكر فحقق بحبها قلبه ، فانطلق إلى خاله يخاطب إليه ابنته فقال له :

— هل من مال أزوجك عليه ؟ —

— لا ، إلا أنى أخذمك أجيرا ، تستوفى بذلك صداق ابنتك .

— إن صداقها أن تخدمنى سبع حجج .

— فزوجى راحيل وهى شرطى ولها أخذمك .

— ذلك بينى وبينك .

ورأى يعقوب نفسه وهو يرعى لحاله سبع سنين ، فلما أصبح وجد أن حاله زوجه ابنة الكبرى ليا وكان شرطه أن يروجه راحيل .

وجاء خاله معاضيا وهو فى بادى قومه وقال له :

— عررت بنى وخدعتنى واستحللت عملى سبع سنين ، ودلست على غير امرأتى .

— يا بن أختى أردت أن تدخل على حالك العار والسُّة وهى خالك ووالدك ، ومتى رأيت الناس يزوجون الصغرى قبل الكبرى ؟ فهلهم فاحدمنى سبع حجج أخرى فأروحك أختها .

ورأى يعقوب نفسه وهو يرعى لحاله سبعا ، ولدت له فيها ليا أربعة : روبيل ويهوذا وشمعان ولاوى . ورأى ليلة تحقيق حلمه ، تلك الليلة المرتقة التى دفع فيها حاله إليه راحيل ، كانت أسعد ليالى حياته .

وتأخر الولد على راحيل الحبيبة فوهبت له جاريتها بلها ، ووهبت له ليا جاريتها زلفة منافسة لراحيل فى جاريتها ، وترعرعت أسرته ودب الشقاق بينه وبين خاله وكان لا بد من الرحيل .

ورأى يعقوب وجه راحيل وقد تهلل بالفرح يوم ولدت له بعد اليأس يوسف ، ورآها وهو باسر حزين تمحود بأنفاسها فى الطريق بعد أن ولدت له بيامين . كانت راحيل أثيرة عمده ، وكان يوسف أقرب بيها شباها فكان أحب أبنائه الاثنى عشر إلى قلبه .

وعام وجه يعقوب بسحابة من الحزن لما تذكر ذلك اليوم المنشوم الذى

خرجت فيه ابته دينة من ليا تنظر بيات الأرض ، لقد رآها شكيم ابن سيد القوم وشغف بها حبا فاغتصبها بسلطان أبيه .

واتخذ شكيم ديه بنت إسرائيل زوجة ، إلا أن ذلك الزواج لم يمح ما لحق إسرائيل وبنيه من عار ، غضب وعضبوا ، ولكن ماذا يستطيعون أن يفعلوا وهم قلة لا عسوية لهم ، إنهم غرباء في فلسطين .

إسرائيل ! إنه ليدكر ذلك اليوم الذي سمى فيه إسرائيل ، كان في طريقه إلى حاران إلى بيت حاله لا يان قبل أن يلتمس من خاله أن يروجه راحيل ، إنه نام في الطريق فرأى فيما يرى النائم سلما منصوبا إلى باب من أبواب السماء والملائكة ترل وتعرج فيه . ولقد أوحى إليه في تلك الليلة أوامر السماء .

وسمع يعقوب حركة بالقرب منه فرفع رأسه ونظر ، ثم ما لبث أن هتف في حب وحبان :

— يوسف .

وارتقى يوسف في أحضان أبيه وراح إسرائيل يربو إلى وجه ابنه ، فرأى كأنما قسم الحسن كله بينه وبين أمه راحيل ، وتذكر ذلك اليوم الذي قال فيه يوسف لإخوته رأيت فيما يرى النائم أنا نحرم حرما في الحقل ، وإذا بحزمتي قد قامت واحتاطت حزمكم ، وإذا بحزمتي قد سجدت لحزمتي . ورن في أذنيه أصوات أبنائه تقول ليوسف : لعلك تملك علينا ملكا أو تتسلط علينا .

كانت في نبرات أبنائه الأحد عشر كراهية ليوسف ، بدت البغضاء من أفواههم فأشفق الأب على ابنه الأثير من عداوة إخوته ، فضم يوسف واحتواه في أحضانه كأنما يحميه من خطر يوشك أن ينقض عليه .

ورفع يوسف رأسه ونظر إلى وجه أبيه ثم قال :

— يا أبت ! إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي

ساجدين .

قال :

— يا بنى لا تقصص رؤياك على إخوانك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإسان عدو مبين وكذلك يحتيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق ، إن ربك عليم حكيم .

واجتمع أبناء يعقوب يتشاورون قالوا :

— ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة ، إن أبانا لفي ضلال مبين . اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين .

قال يهوذا ، من سيصبح أبيا لليهود :

— لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الحب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين .

وراحوا إلى أبيهم يستقنون ، فآلموه يسامر يوسف الحبيب ، قالوا :

— يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون ؟ أرسله معا عدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون .

قال : إني ليحزننى أن تذهبوا به ، وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون .

قالوا : لنأكله الذئب ونحن عصبة ، إنا إذا لخاسرون

وخرج يوسف مع إخوته — ينهل بالمرح — ليرتعوا ويلعبوا ، فلما برروا إلى البرية أظهروا له العداوة وراح أحد إخوانه بضربه فيستعيث بالآحر فيضربه .. لا يرى منهم رحيمًا ، ضربوه حتى كادوا يقتلونه فراح يصيح ويقول :

— يا أبتاه يا يعقوب ! لم تعلم ما يصنع بابنك بنو الإماء .

فتقدم بهوذا وقال :

— أليس قد أعطيتهم موثقا ألا تقتلوه ؟

فانطلقوا به إلى الحب ليطرحوه ، فأخذوا يدلونه في الشر فيتعلق بشفيرها ، فربطوا يديه ونزعوا القميص عنه فقال :

— يا إخوتاه ؟ ردوا علي قميصي أتواري به في الحب .

— ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكبا تؤنسك .

ودلوه في البئر وألقوه في مائها ، وراح يوسف يقاوم العرق حتى بلغ صخرة فأوى إليها وأوحى الله إليه :

— لتبنيهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ..

وجاءوا أباهم عشاء ييكون ، قالوا :

— يا أبانا إنا ذهبنا نستيق وتركنا يوسف عبد متاعا فأكبه الدئب ، وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين .

وجاءوا على قميصه بدم كذب ، قال :

— بل سولت لكم أنفسكم أمرا ، فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون .

وانطلقت قافلة المدينين في الصحراء وعلى مقربة من البئر حطت رحالها ، وأرسلوا وأردهم فأدلى دلوه فتعلق يوسف بالدلو ، فلما رآه الرجل اعتراه دهش لكأنما رأى آدم يوم خلقه الله بيده وصوره ونفخ فيه من روحه ، كان حسنه كصوء النهار ، أبيض اللون جميل الوجه جعد الشعر واسع العينين أقنى الأنف بخده الأيمن حال أسود ، توح — على حدائة سنه — بتاج الوقار ، فلما وجده الرجل قال :

— يا بشرى ! هذا علام .

وأخذ الرجل يوسف وعاده إلى راحلته ، ولما استأنفت قافلة المدينيين رحلتها انطلق يوسف معها . وبينما هو في الطريق إذ وقعت عياله على قبر أمه فلم يتالك ورمى نفسه من على الناقة إلى القبر وراح يروى الثرى بعبراته ويقول :

— أمي راحيل ! انظري يا أماه ماذا فعلوا بحبيبتك ؟ ماذا لقيت يا أماه من بعدك ؟ نزعوا يا أماه عني قميصي وفي عيابت الحب ألقوني . لم يرحموني يا أماه وباعوني بيع العبيد ، إلى أسير يا أماه راحيل . إلى أسير .. أسير . وجاء الرجل وانترعه من فوق قبر أمه وهو يبكي ويصيح :

— أمي .. راحيل .. أمي .. أصبحت عبدا يا أماه .. عبدا .. عبدا . وجاءت قافلة بني إسماعيل ، إنها اجتارت جلعاد والتقت بقافلة المدينيين في أرض شكيم . وعرض أبناء مدين بن إبراهيم الخليل على أبناء إسماعيل بن إبراهيم أن يستروا العلام فشروه بثمان مائة درهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين .

وانطلقت قافلة الإسماعيليين إلى مصر وقد حملوا يوسف ، وما دار بخلد أحد منهم أن ذلك الذي شروه ابن عمهم يعقوب ، ومن أين لهم أن يعلموا وقد كان يتحدث العربية لغة الكنعانيين !

كان نابت بن إسماعيل يرى في المدينيين وأساء إسحاق وأساء إسماعيل وورثة النعمة الروحية الذين سيتشلون البشرية من المنادية الطاعية لينبؤوا حضارة عالمية على أساس من الدين ، وكان آمنه في المستقبل عظيما ، فهم وإن كانوا جماعات متفرقة إلا أنهم متأسقون ما أيسر أن يدعوا في مجتمع واحد قوى يدعوا إلى الله وحده . كان ذلك حلم الشيخ العربي زعيم الإسماعيليين ، ولكن الأحداث كانت تتعاقب بين تلك الجماعات .

كانت لغة الإسماعيليين والمدينيين ونبي إسحاق واحدة ، كانوا يتكلمون

العربية وكانوا مسلمين . إلا أن بني إسرائيل أخذوا عن الكنعانيين اللغة العبرية وهي وإن كانت فرعاً من العربية إلا أنها كانت بداية الفرقة والاختلاف . اجتازت قافلة بني إسماعيل الحدود وانسابت في أرض جوش ومرت بمعابد « ياسست » إلهة اللذة والمرح ، ورأى الرجال العاهرات المقدسات فغضوا من أبصارهم فقد رفعهم ديبهم عن أن يتردوا في الخطيئة استجابة لرغبات الأجساد .

ودخل يوسف مصر عبداً يتمزق من الحزن كما حرجت هاجر مها أمة يتمزق من الحزن ، وتلك إرادة الله ، والله فعال لما يريد .

وبدعت القافلة ثواريس ودخلها يوسف أسيراً ذليلاً كما دخلتها سارة من قبل ، وراح يقلب وجهه في القصور والمسلات ومعابد « ست » إله القوم وقد طاف بذهبه ما سمعه عن قلوب جده الخليل إلى هذه الأرض ، ترى إن قال للقوم إنه حفيد ذلك الرجل المبارك — الذي خرجوا معه فراسخ تعظيماً له وإجلالاً — أيصدقونه ؟

وآثر أن يصمت ، فمن يصدق أن حفيد خليل الرحمن يباع في الأسواق بيع العبيد ؟

واغتسل يوسف وألبسوه ثياباً جديدة وساقوه إلى السوق ، فإذا بوجهه يتلألأ نورا وإذا بكل من في السوق يأتون يتنافسون على شرائه ، حتى قطعير عرير مصر ورئيس وزرائها جاء يتنازع من مهر حسنه ضوء الهار .

وترافع الناس في ثمنه وتزايدوا حتى قال قطعير :
— أدفع ورنه مسكاً وورقا وحريراً .

وابتاعه قطعير وفرح به إسماعيل بشمه ، كانوا في حاجة إلى الورق ليدفعوه إلى قيدار ليعلم أباؤهم فيه الكتابة .

وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته :

— أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً .

حرح الرعاة في عماية الصبح من دور ثابت وقيدار وإدبيل وإحونهم أبناء إسماعيل ، تلك الدور التي بدأت تنشر على سفوح الجبال المحيطة بالحرم ، واحدروا إلى الوادي المقدس وقد امتلأت نفوسهم بالصياء المتألق من وراء الأفق ، فإن تكرر شمس النهار لم تسطع بعد فقد نعد شعاع الله المصىء إلى نفس المؤمنين .

انحدار الرعاة إلى بطن الوادي المقدس سيماهم في وجوههم من أثر السجود ، قد امتلأت نفوسهم بشوة الروح ورأت عيوسهم في الكون حمالا لا يحسه إلا من أحسوا بحفقات روح الوحود بين جوسهم ، فقالوا بأفئدتهم وألستهم :

— ربما ما خلقت هذا باطلا سبحانه فكما عذاب النار .

وراحوا يطوفون بالبيت سعا ، وأقبل من شمال مكة أهل حرهم ، وتدفع من جنوبها أهل قطوراء فامتلاً الحرم بالطائمين والعاكفين والركع السجود ، وأقبلت قافلة من اليمن وعادت قافلة من الشام فخف الرجال إلى الكعبة ليطوفوا بها ويسبحوا الرب العرش العظيم .

ألف الله بين قلوب المؤمنين فقويت الروابط الاجتماعية بين من أقاموا حول البئر ومن جاءوا ليطوفوا بالحرم ، وبدأ ميلاد حضارة بالوادي القمر الذي أسكن إبراهيم به هاجر وإسماعيل وجرهم وقطوراء ، وبين رجال القوافل الغادين الرائحين بين الشمال والجنوب ، وقد اعتصموا جميعاً بحبل الله فالتحدوا بعد أن كانوا متفرقين .

وأقبل من الشمال مضاض بن عمرو وحوله شيوح جرهم وشبابها، وورد من الجنوب السמידع ورجال قطوراء، والتقى أهل جرهم وأهل قطوراء عند الحجر الأسود فتبادلوا التحية، ثم راحوا يطوفون بالبيت وقد اختلط بعضهم ببعض، وارتفعت الأصوات بالابتهالات إلى الله الواحد القهار، وقد نامت الأحقاد واحتفت البغضاء وعمرت القلوب ببور الإيمان.

وجلس الرجال إلى الرجال ينظرون في أمر ديارهم بعد أن عسلت الصلوات أفئدتهم من أدران الغش والطمع والنفاق، فإذا بالعايات الاجتماعية الطيبة تتحقق في سماحة ويسر بعد أن لجوا الحياة من أطيب أبوابها.

وخرجت جحافل الغنم من دور بني إسماعيل وخيامهم في طريقها إلى شعاب مكة لترعى وفي أثرها الرعاة والعبيد وصبيان القبائل، فدا كأن سفوح الحمال قد حجبت بصوف أبيض وأحمر وأسود، وثار القمع وارتفعت سحب التراب تغطي الوادي كأنما ألقى عليه وشاح من رماد.

كان الرعاة بسطاء حماة الأقدام فقراء، بيد أن الدين الذي عرس في وجدانهم بدل طرائق نظرهم إلى الكون والحياة، أمدهم بعلم جعلهم يتطلعون إلى أن يكونوا رعاة شعوب لا رعاة أغنام.

وخرج قي دار من داره بعد أن صار شيخا يتوكأ على ذراع ابنه النبت وعصاه، كان يتشعر الوهن يسرى في أعضائه إلا أن دهنه كان شيطا مشغولا بالخط العربي وصحه أبوه إسماعيل موصولا، وهو يريد أن يفرق بينه ليسره على الكتعانيين وغيرهم على السواء.

كان يمضى الهزيع الأول من الليل في الصلاة وتلاوة ما تيسر من صحف إبراهيم، وكان يستيقظ قبل دلوك الشمس يسبح الله ويدعوه بقلب سليم أن يلحقه بالصالحين إنه من عباد الله المؤمنين.

إنه على الرغم من شيخوخته لم يتنسك ولم يعتزل مجتمعه ولم يقرر أن يمضى

ما بقي من عمره في صومعة يعبد ربه ، فقد لقن فيما لقر أن العمل عبادة ، وأن أسمى ما يرتقى بالروح هو مكابدة الحياة ، فملأت فكرة تيسير الكتابة العربية كل حوائجه وأصحت شعله الشاغل مع عبادة الله آناء الليل وأطراف النهار ، فقد كان حب الله وحير مجتمعه يترحان في نفسه امتزاجا يخدم الحياة ويفتح أبواب السعادة .

وفي لحظة من لحظات إشراق روحه وصفاء نفسه أنارت الفكرة وجدانه كأنها إلهام ألقى في قلبه أو نور أضيئت به ظلمات نفسه ، فتهلل الشيخ بالفرح ودب في الجسم الفاني نشاط عجيب .

وانطلق قيدار وابنه النبت إلى حيث كان صبيان الإسماعيليين يتعلمون القراءة والكتابة ، كانوا يكتبون في ورق البردى الذي جلبته قوافل التجارة من مصر ، يكتبون كما علم إسماعيل أبناءه الكتابة ، هراخ قيدار يعلمهم كيف يفرقون بين الألفاظ كما هداه الله . وسر الصبيان بذلك التبسيط وعكفوا على كتابة صحف حدهم خليل الرحمن متلهلين مستبشرين .

وبرع يعرب بن يشحب بن بابت في الكتابة الجديدة ، وما كان يعرب صبيا من الصبيان الذين يجتمعون خلف بئر زمزم فحسب ، يقرعون صحف إبراهيم ويكتبون في ورق الردي وعظم أكتاف العمير ، بل كان مع ذلك شابا من أبه شاب الإسماعيليين استزته طريقة قيدار في الكتابة ، فحمر نادى قومه وأقبل على الشيخ يتعلم القلم الحديد ، فقد كان على ثقة من أن ذلك القلم هو حجر الزاوية الذي ستقوم عليه حضارة آل إبراهيم .

وشرد ذهب الشيخ قيدار وهو جالس بين الصبيان خلف بئر زمزم ، فترقق الرصافي وجهه ، وشاع في عييه سرور عميق ، فقد تذكر أيام أن كان صبيا يجلس في هذا المكان إلى جوار أخويه نابت وإذيقيل أمام حديثهم هاجر تعلمهم كيف يكتبون حيا وتقص عليهم تاريخ مصر والمصريين حينا ، كانت

هاجر خيرا وبركة على هذا الوادى وكانت خيرا وبركة على آل إبراهيم .
وضح المكان بالابتهاال وأوبت جبال مكة بدعاء المؤمنين ، فالتفت قيدار
إلى الكعبة فإذا بالناس يموج بعضهم فى بعض يتدافعون بالمناكب وهم يطوفون
حول البيت ، كانوا لأول مرة فى تاريخ البشرية تجارارها نأتحكمهم شريعة الله
وقانون الطبيعة ، فالله يشرق فى نفوسهم وعجلة الوجود تدور ، ولم تكن
تدور فى فراغ إلى الأبد بل كانت تدور إلى غاية ، إلى إرضاء الله ، إن الله يدخل
الدين آموا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا .
أدرك هؤلاء البسطاء حقيقة نفوسهم ، عرفوا طريق السعادة ، سرى قانون
الله وقانون الطبيعة فى نفوسهم جسا إلى جنب ، الوجود كله يدور بإرادة
الله ، وهذه الإرادة لم تسلب الناس حق التصرف والاختيار بل تركت للناس
أن يعملوا وأن يختاروا ، ولكل درجات مما عملوا وليوفهم أعمالهم وهم لا
يظلمون .

* * *

وجاء يشجب بن ثابت إلى عمه يسعى ييدو فى وجهه الأسى ، وقال فى
صوت متهدح :
— إن أبى يموت .

وقبل أن يتم مقاله طمرت الدموع من عينيه ، واستشعر قيدار حرنا يشتعل
فى كيانه وهما ثقيلتا ينزل به ورلرل زلزالا شديدا ، لكأئما قد نعى إليه نفسه .
إنه لم يفارق أخاه مذ تفتحت عياه على الحياة ، فطالما لعب ورتع هو ونابت
فى بطاح مكة ، وطالما خرحا معا فى قوافل الإسماعيلين إلى الشام ومصر
والبحر ، كان كل منهما درعا للآخر ، سلاحا لأخيه ، وإذا بسابت يجود
بأنفاسه ويتركه وحيدا وإن كانت قبيلته قد صارت فى عدد النحوم .
صارت ولاية البيت لثابت بعد موت أبيه إسماعيل ، فإن ذهب ثابت فمن

الذى يقوم بولاية البيت ؟ إن نابت كان روحا يسرى في مكة ، كان المحور الذى تدور حوله حياتها ، وها هو ذا نابت يوشك أن يقادر الدنيا فمن لمكة من بعده ؟

وأفاق من ذلك الضعف الذى طاف به ، إن روح الله تحف في صدور المؤمنين وفيض النور الإلهي الذى سكبته الدين في صدورهم لن يفيض ، فالقلوب كلها مفعمة بحب الله ، وإن ذلك الحب لم يكن صلاة في معبد الكون فحسب بل تحول مع ذلك إلى أفعال اشترك فيها الحسد مع الروح : دعاء إلى الله وطواف حول بيته المعظم وسعى بين الصفا والمروة ، ووقوف بعرفة ، ودعاء لله مخلصين له الدين . إنه الاتصال بروح الوجود كله .

وانطلق قيثار إلى دار أخيه وراح فكره يعمل ، إنه كان يعاون أخاه ويرحب بضيف الله ، ولكنه كبر وصار في الغابرين فلا يستطيع أن ينهض بخدمة الحجيج بعد نابت ، ولا أن يسر سبل الراحة لزوار بيت الله ، فولاية البيت في حاجة إلى رجل مسموع الكلمة مرهوب الخائب قوى الشكيمة تندفق فيه الحياة .

وراح قيثار يقلب الفكر ويزن رجال بني إسماعيل ، إن إخوته : إذنبيل وميسام ومشماع ودومة ومسا وحيدار وتيما قعدت بهم السن وأمسوا شيوخا فانيين ، وإن هي إلا سنون قليلة ثم يلحقون بأبويهم الكريمين وجدهم الخليل .

وطاف بذهته رجال الطبقة الثانية من بني إسماعيل : يشجب بن نابت والنبت بن قيثار ، وسرعان ما همس في جوفه هامس : أيقوم بولاية البيت يشجب أو النبت وفي القوم مضاض بن عمرو والسמידع ؟ ! إن مضاض سيد جرهم ونحال بني إسماعيل ، والسמידع سيد قطوراء وهم من العماليق الذين دانت هم مصر وسورية وفلسطين .

وسار قيذار يتوكأ على عصاه ويستند على ذراع النبت بين الحين والحين ،
وسار خلفهما يشجب بن نابت ويعرب بن قيذار والوجوه بأسرة والعيون
دامعة ونار الحزن تشوى القلوب .

ودخل قيذار على أخيه وكان مسجى في فراشه وحوله شيوح بنى إسماعيل
فأحس غصة في حلقه ، فقد استولى عليه إحساس بأنه يفقد بعقد نابت أمه
وأباه ، وأنه وهو شيخ كبير يذوق مرارة اليم لأول مرة .

وراح قيذار يقلب وجهه الواله الحزين في وجوه إخوته ، لقد وعد الله
خليله أن يهب إسماعيل اثني عشر رئيسا وقد صدق الله وعده ، فها هم أولاء
بنو إسماعيل الاثنى عشر وقد صار كل منهم رئيس قبيلة ، وعد الله حقا ومن
أصدق من الله قيلا .

كان شيخ الإسماعيليين يموت وقد مات من قلبه إسماعيل صادق الوعد
فدمعت العيون ولكن القلوب كانت تسبح لله العظيم ، أفمن كان مؤمنا كمن
كان فاسقا لا يستون .

وأشار نابت لإخوته وأبنائه أن يذنوا منه ، فلما اقتربوا قال في صوت
خافت :

— ما تعبدون من بعدى ؟

— نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل .

فهمس في جهد :

— استعينوا بالصبر والصلاة ، وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين .

وشخص ببصره إلى السماء ودعا بدعوة جده العظيم :

— رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبني أن نعبد الأصنام .

انطلقت زليخا امرأة العزيز في ردهات القصر تتلفت ، فحفت إليها أحد الخنصيان وقال دون أن يرفع وجهه إليها :

— ماذا تريد مولاتي ؟

فقالت في طعنة :

— أين يوسف ؟

— خرج يا مولاتي إلى السوق .

كانت زليخا امرأة لظفير عرير مصر ورئيس وزرائها ومذ جاءها ذات يوم ومعه يوسف بعد أن اشتراه وقال لها : « أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا » وهي لا تطيق فراق الفتى الحميل فقد صار كل حياتها .

وجاء يوسف يسعى يتألق وجهه نورا عليه مهابة ووقار ، فلما وقعت عينها زليخا عليه هدأت نفسها وقالت له :

— أين كنت ؟

— في السوق وقد اشتريت هذا .

وقدم إليها جعرا نارا فرعوبيا فتاولته وقالت :

— إنه جعل مقدس بوضع فوق قلب الميت .

— وماذا كتب عليه ؟

فراحت تقرأ :

— يا قلبي لا تقم شاهدا على .

— ومتى يقوم قلبه شاهدا عليه ؟

— عندما يحاكم بعد الموت أمام محكمة أزريس إله الموتى .
وأخذت يوسف إلى جناحها وتناولت صفحة من صفحات البردى كانت
فيها مناظر المحاكمة و متن إعلان براءة المتوفى ، فلما رآها يوسف قال :
— إنها تباع لكل الناس .

فابتسمت زليخا وقالت :
— أى مذهب مهما عظمت ذنوبه يستطيع أن يشتري ورقة ويكتب فيها
اسمه فيصبح مطهرا من الذنوب !
كانت نظرات زليخا إلى يوسف مزيجاً من الحب والاشتهاء ، فكان يوسف
يتحاشى أن ينظر فى عينها فقال وهو يشيح بوجهه عنها :
— أهدأ دين يؤمن به قوم يعتقدون أنهم وحدهم الناس ؟ .

ودنت زليخا منه ولقت ذراعها من ورائه وبسطت صفحة البردى
وقالت :

— هذه صورة لمحكمة أزريس وقد نصب الميران فى الوسط ، يدير الإله
أونويس — وله رأس كرأس ابن آوى — حركته من اليمين ، ومن خلفه الإله
تخوت إله الحكمة — وله رأس كرأس أبيس — ووظيفته تسجيل حكم
المحكمة ، وهذه التى فى أقصى اليمين هى « الملتمة » وشكلها مقعرس ، فهى
تنتظر التهام الروح إذا ما صدر الحكم بإدانتها ، وهذا الواقف إلى يسار الميزان
« القدر » ، وهاتان الواقفتان خلفه إلهتا الولادة ، وهذا الداخل فى خشوع
من أسفل اليسار المتوفى ، يحرق بظفره إلى قلبه وقد وضع فى كفة الميران
اليسرى ، ووضع الريشة فى الكفة اليمنى .

— وما هذه الريشة ؟

— رمز الحق ، رمز العدالة .

— وما هذه الكتابة فوق الميزان ؟

— إنها صلوات يرجو فيها الميت قلبه ألا يحويه .

وراحت زليخا تقرأ :

يا قلبي يا من أتيت من أمي .

يا قلبي الخاص بكبانى .

لا تقض شاهدا على .

ولا تعارضنى فى محكمة العدل .

ولا تكوس حربا على أمام رب الموارين .

ولا تقولن على رورا فى حضرة الإله .

وبسطة رليحا بردية أخرى وقالت :

— انظر يا يوسف .

— وما هذه ؟

— صورة المتوفى بمقاد بعد ترمته أمام أزرير . أثبتت محاكمة الميزان براءته

من كل ذنب عظيم . ها هو ذا المتوفى يقوده حور بن أزرير إلى حضرة أبيه
الإله الأعظم . .

— ولماذا يرتدى أزرير رداء أحضر ويجلس فى جوسق أحضر ؟

— لأنه إله الخضرة .

— إنه فى شكل مومياء .

— لأنه مات ثم قام بعد موته بحاسب الأموات .

فقال وهو شارد :

— مثل بعل .

— بعل ؟ إله الباليين ؟

— هم يعبدون بعل فى بابل ، وفى سورية يعتقدون أنه أخذ أسيرا يوم كان

ملكاً على الأرض فساقوه إلى قاعة المحكمة ، وبعد أن حاكموه ضربوه ثم

انطلقوا به إلى الحبيل ، وكان يحاكم معه ثلاثة من المحرمين فأطلق سراح محرم وأخذ معه محرمان ، وقد جردوه من ملابسه يوم قتلوه فتهدمت المدينة حزنا عليه ، وانكفأت امرأة على قبره تبكيه ، وإذا به ينهض من بين الأموات ويعود إلى الحياة ، وسرعان ما احتفى ليصعد إلى السماء ليصبح إلها يدين البشر ، إنها أساطير الأولين .

وعادت زليخا تتحدث عن محكمة أزريرس وهي سعيدة ما دام يوسف إلى حوارها بإحبابها وتناجيها ، فحبه يتغلغل في سويداء قلبها
قالت :

— إن المتوفى بعد أن يؤكد أنه لم يقتل ولم يسرق ولم يرن ولم يطفئ في الميران ولم يعب في الدات الملكية ولم يسب الإله ، يخاطب آلهة المحكمة الاثنين والأربعين قائلا :

— سلام عليكم يا أيها الآلهة .

إلى أعرفكم وأعرف أسماءكم .

لا تبلعوا عني شرا لذلك الإله الذي تتبعونه .

قولوا عني الصدق أمام الرب المهيمن .

انظروا إلى آت إليكم بلا حطية وبلا شر وبلا دس .

إني أعيش على الحق وأتغذى من عدالة قلبي .

وأحسن يوسف برليخا نضمه إليها فهب واقفا وهو يقول :

— أؤمن بخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ؟ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها

إن الله لغفور رحيم . والله يعلم ما تسرون وما تعلنون . والذين يدعون من

دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون . أموات غير أحياء ولا يشعرون أيان

يعتنون . وإلحكم إله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم

مستكبرون . لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه لا يحب

المستكبرين .

وبلغ يوسف أشده فتأهب ليطلق مع العزيز إلى مدينة بيت البقرة ، وكانت واحدة في الصحراء الغربية ترحح حوفا الغزلان والطيور فكان عظماء الدولة يقصدونها للصيد والتسلية .

وخرج العزيز في مهاتته فحفف العظماء يسعون إليه عند باب قصره منحبين ، الرجال الأول والرفقاء ورؤساء الأسرار ومستشارو القرارات السرية الخاصة بالمحكمة ومستشارو الأوامر الملكية ومستشارو السماء ، فقد كان العزيز رئيس العظماء وكبير القضاة من يشرف على حرائر الأرض ومحارن الغلال ، وكانت كلمة من فمه الكريم تسعد الطامعين في الألقاب الطنانة التي كلف بها المصريون .

وركب العزيز مركبة فخمة تليق بمقامه في البلاد وركب يوسف معه ، وركب المركبات الأخرى قواد الجيش وحكام الأقاليم ، وأسباب الركب في الدلتا يقطع الأراضي التي تتحللها أفرع النيل كالشرايين ، وراح يوسف يرقب في اهتمام القناطر والسدود والأعمال الهندسية العظيمة التي تنظم إيراد النيل وتتحكم في مياهه .

بهрте هندسة الري أكثر مما بهرته الأهرام وأبو الهول والمعابد والمسلات والقصور . واستمروا في رحلتهم حتى بلغوا اليوم فراح يوسف يقلب النظر فيها ، فإذا بها مفايض لنماء انتشرت عليها الطيور المائية وبتت ها وهاك الحشائش البرية ، وسرعان ما تذكر المشروعات الهندسية التي مر بها على النيل . وبلغ الركب مدينة بيت البقرة في الصحراء فأقيمت حفلات الصيد للعزيز والذين معه ، وراح يوسف يفكر في الفيوم ومستقعاتها وفي طريقة إصلاحها لتكون مديرية جديدة تجود على البلاد بالخير العميم .

ومرت الأيام والأسابيع ثم عاد ركب العزيز إلى أواميس ، فهرع العظماء

والرفقاء والرؤساء والمستشارون لاستقبال رئيس العظماء وكبير القضاة ومن جعله الملك على خزائن الأرض . وبعد أن قضى الاستقبال الرسمي انطلق العزيز ويوسف إلى القصر .

كانت زليخا ترقب هذه العودة في شوق عظيم ، أحست لوعة لفراق يوسف فقد شغفت به حبا ولم تعد تطيق أن يبعد عنها ، لم يفارقها طيفه آناء الليل وأطراف النهار في اليقظة وفي المنام حتى باتت تخشى أن يفطن العزيز إلى خائنة الأعين وما تخفي الصدور .

ودخل العزيز عليها فقامت إليه ترحب به وتبالغ في ترحيبها لتخفى ذلك الاضطراب الذي اعترأها لما علمت أن القصر احتوى يوسف الحبيب . ليتها تستطيع أن تترك العزيز وتطير بجناحي الحب إلى الفتى الوسيم الذي أسر قواها .

وفي الصباح خرج العزيز يصرف أمور الدولة قبل أن يذهب للقاء الملك الريان بن الوليد . وسرعان ما أرسلت امرأته إلى يوسف تطلب إليه أن يوافيها في جناحها .

وجاء يوسف وقد أشرق كضوء النهار فأحست زليخا قلبها يدق في حاس ، ورغبة عارمة في أن تحتويه بين ذراعيها لتطفئ لهيب الشوق وحينها إلى العناق .

رحلت به وأجلسته إلى جوارها وسألته أن يقص عليها ما فعله في رحلته ، فراح يوسف يقص عليها ما رآه وهي تصغي إليه كأنما تستمع إلى موسيقى عذبة تنسكب في وجدانها ، أو أجمل أهازيج الوجود تداعب روحها ، وراحت تنفوس في وجهه ، إنه أجمل من إشرقة الصباح وإن كل خلعة من حلجائها تنفوس إليه ، وإنها تكابد شوقا طاغيا لا يقاوم طغيانه بشر .

وارتفعت يدها وهي مأخوذة وراحت تمررها على شعره وتقول في وجد :

— يا يوسف ! ما أحسن شعرك !

— هو أول ما ينتثر من جسدى .

ونظرت في عينيه نظرة طويلة ثم قالت :

— يا يوسف ! ما أحسن عينيك !

فأطرق وقال :

— هما أول ما يسيل إلى الأرض من جسدى .

— يا يوسف ! ما أجمل وجهك !

— هو للتراب يأكله .

ومالت نحوه لتضع شفتيها على شفتيه فإذا به يلوى عنقه عنها ويب مستفضاً من الرهبة ثم يسرع خائراً من غرفتها لا يلوى على شيء .

وحس الليل وزليخا تغدو وتروح في محبتها وقد استندت بها رعبتها وعصفت بها عواطفها ، حتى همت بأن تطلق إليه تروى ذلك الظمأ الذي استبدت بها حرقته لولا أن جاء العزيز يلتمس عندها الراحة والحان .

وحر يوسف ساجداً لله وقد شرق بدموعه يعود به من همرات الشياطين . كان يخشى أن يصعب وأن تنهار عزيمته فيتردى في الضلالة بعد أن هداه ربه إلى صراط مستقيم ، واستمر يدعو الله حتى عشيهِ النعاس وراح في سبات عميق . وعاد يوسف إلى جاح رليخا في القصر فأقبلت عليه تحذره بلواعج نفسها تتغزل في حسه وتناحيه وتحاول بعذب حديثها أن تستولى على حواسه وتغريه . فأطلقت لشهوات الجسد عباها ، وعردت النشوة في جنابات نفسها فدنّت منه وراودته عن نفسه ، وغلقت الأبواب وقالت :

— هيت لك .

فأشاح بوجهه عن الفتنة الطاغية وقال :

— معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى ، إنه لا يفلح الظالمون .

ولست ذراعها حوله وقربت وجهها من وجهه واختلطت أنفاسها الحارة بأنفاسه فإذا بغشاوة تنسدل على بصره وبصيرته ، فلم يعد يحس إلا الجسد الذى التصق بجسده ، ولقد همت به وهم بها لولا أن انجابت الغشاوة عن وجدانه وأضاءت جوانب نفسه بنور ربه فرأى بشاعة ما كان مقدما عليه . كان كالطير يحلق فى أحوار الفصاء وإذا به يهوى إلى قرار سحيق ، لن يقدر أن يحلق بعد أن هوى أبدا ، وخيل إليه أن صوت يعقوب يدوى فى حنات العرفة يتلو ما قاله إبليس لربه : « قال رب عما أغويتنى لأرينن لهم فى الأرض ولأعويهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين . قال هذا صراط على مستقيم . إن عادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتعك من الغاوين . وإن جهنم لموعدهم أجمعين » .

وارتعد يوسف بعد أن رأى برهان ربه واستدار ليفر من الغرفة فجرت حلمه ، واستقا الباب وأرادت أن تجذبه ليعود إلى ما تريد فأمسكت به وقذت قميصه من دبر ، فلم يتمهل يوسف بل فتح الباب ليسجو بدينه ويهاجر إلى ربه .

وألقي سيدها لدى الباب وكان مقبلا مع ابن عم لها ، فلما رأت نفسها فى موطن الرية قالت :

— ما حزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسحقن أو عذاب أليم ؟

فراح يوسف يحاول أن يستر جسده وقال :

— هى راودتنى عن نفسى .

وراح العزيز يقلب وجهه فيهما وهو حائر لا يدري أيهما الصادق ، فقال ابن عمها :

— إن كان قميصه قد من قُل فصدقت وهو من الكاذبين ، وإن كان قميصه قد من دُبْر فكذبت وهو من الصادقين .

وتقدم العزيز يفحص ويتأمل فلما رأى قميصه قد من دبر قال :

— إنه من كيدكس ، إن كيدك عظيم .

والتفت إلى يوسف وزليخا وقال :

— يوسف أعرض عن هذا ، واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين .

وأمسك يوسف لسانه لم يذكر لأحد ما كان من امرأة العزيز ، إلا أن الخبر

طار إلى البيوت وسرى بين الناس ، وقال نسوة في المدينة :

— امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حيا ، إنا لنراها في ضلال

مبين .

فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكئا وآتت كل واحدة

منهن سكينا لتقطع به ما قدمت لهن من فاكهة ، ثم ذهبت إلى حيث أمرت

يوسف أن ينتظر وقالت له :

— اخرج عليهن .

وخرج يوسف على النسوة فلما رأينه أكبرنه ففغرن أفواههن دهشة ، رأين

حسنا تهنو إليه نفوسهن ، وقطعن أيديهن بالسكاكين وهن ذاهلات عن

الفاكهة وقلن :

— حاش لله ما هذا بشر ، إن هذا إلا ملك كريم .

ولما رأت زليخا الرغبة الحامئة في عيون النسوة ، قالت :

— فذلكن الذي لتتنى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ، ولئن لم

يفعل ما أمره ليسجنن وليكونن من الصاغرين .

قال :

— رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه ، وإلا تصرف عني كيدهن

أصعب إليهن وأكن من الجاهلين .

فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم . ثم بدا لهم من

بعد ما رأوا الآيات ليسحته حتى حين ، جاءت زليخا إلى العزيز تقول :
— إن يوسف لم يمسك لسانه ، إنه لم يعرض عن ذكر ما كان كما أمرته فلم
يعد لي مقام هنا ، إني راحلة .

كانت زليخا لا تطيق أن تلتقي عيناها بعيني من أذل كبرياءها ، كانت
سيدته قبل أن تراوده عن نفسه فأصحت ذليلة أسيرة بعد أن كشفت عن
نفسها أمام الملأ وأمام نسوة المدينة ، نظرات الاحتقار التي يصوبها إليها
يوسف أقسى من وقع السياط على جسدها ، إعراسه عنها يكأ كل يوم جرح
قلها ، فأرادت أن تفر من واقعها الأليم فأخذت توسوس للعزيز حتى أصدر
أمره أن يقبض على يوسف وأن يلقى به في السجن سبع سنين .



ولى مضاض بن عمرو الحرمي البيت بعد نابت ، وكان في عزه وكثرة
وثرورة بعد أن ضم بنى إسماعيل إليه فضم الشرف إلى كثرة الجرائمه الدين
غصت بهم الجبال في شمال مكة .

وكانت أمواله كثيرة ، عبيد وخيل وإبل وماشية ترعى بمكة وما حوها من
وادي مر إلى عرفة على طريق الطائف ، وكانت تجارته تجوب الشام والعراق
ومصر واليمن .

ولم تكن ولايته للبيت أمرا سهلا فقد وليه بعد إسماعيل ونابت ، اللذان
أحبهما الناس وداوا لهما بالطاعة ، فكان المجتمع الحديد الذي تكون حول البشر
وحققت في جناته ملة إبراهيم الخليل .

لقد كان إسماعيل أسعد حظا من كل من جاء بعده ، كان هو المحور الذي
جمع حوله أهل مكة فكون منهم مجتمعا جديدا يسرى فيه حب الله وتظله روح

الدين ، فكان مجتمع الرضا والسعادة والصفاء ، ولم يكن لذلك المجتمع الناشئ تقاليد موروثة تثمير الأحقاد وتشب من أجلها المعرك بين القديم والحديث ، ولم يحدث في هذا المجتمع ذلك الصراع الذي يكون عادة بين أنصار الماضي المتعصبين له وحمود الحاضر المتطلعين إلى السيطرة والاستبداد .

وكانت ولاية نابت للبيت امتدادا لحكم إسماعيل ، كانت عهد مصالحة بين المادة والروح فلم تطغ الدنيا على الدين وإن انتصرت الحياة على المادة في ذلك المجتمع الجديد .

كان الإنسان منذ أن وجد على الأرض في شوق إلى أن تمتد أطرافه وأن يفسح مجال بصره وأن تتسع آفاق صوته وأن تشف روحه لتتصل بالوجود من حوله ، فاخترع السيف ليكون امتدادا للذراع ، ونفخ في البغل ليرسل صوته إلى آحاد بعيدة ، وكان كل ذلك أمرا محدودا ، ما الروح فقد اتسعت حتى حوت الكون وما فوق الكون . وقد استطاع إسماعيل أن يستعمل رحابة الروح في رفاهية قومه وقيادتهم إلى طريق السعادة ، وقد مجع نابت في أن يسلك الطريق نفسه ، فهل يستطيع مصاض أن يحافظ على وحدة المجتمع وأن ينهض به ليصعد ويصعد معه في معارج رقيه ؟

صار الناس يحنون إلى الماضي بعد موت نابت وكانوا لا يفتشون يتذكرون أيام إسماعيل وابنه نابت ، وكان ذلك الحين يشل القائد الجديد عن الإبداع ويعوق تجاوب القوم مع من أصبح زعيمهم .

ولم يكن الأمر في مكة لمضاض وحده فإن كان قد ولى البيت فقد كان السמידع يافسه ، بقى مضاض في شمال الوادي المقدس وما جار ، وبقي السמידع وقبيلته قطوراء في الجنوب وقد ورمت أنوفهم لخروج ولاية البيت عن سلطانهم ، وسكتوا على مضض إلا أنهم كانوا يتحينون العرص ويتربقون صروف الرمان ، فولاية البيت شرف تشرئب إليه الأعماق وتته به الأقوام .

وراح مضاض يحصل الأعشار من التجار الذين وفدوا إلى مكة من شملها ، ليصرف منها على عمارة بيت الله وعلى ضيف الله وعلى سقاية الحجيج ورفادتهم ، وأخذ السמידع يحصل ممن وفدوا إليها من جوبها ، فلتس حاز مضاض شرف ولاية البيت فلن يقر السמידع وقومه له بامتلاك مكة كلها ، فإن كان له سلطان على الشمال فللسמידع سلطان على الجنوب يفرص عليه ما يشاء .

وبينا الناس يتسامرون حول الكعبة قال رجل من قطوراء :
— من ذا مضاض الذي صارت إليه ولاية البيت بعد إسماعيل ونابت سبط إبراهيم الخليل ؟!

فقال رجل من جرهم :

— إنه ابن حرهم بن قحطان ، إنه ابن السيادة والشرف .

— ومن هو قحطان ؟

— هو ابن عبد الله أحى هود عليه السلام ، إنه طاهر من طاهر .

فقال نصير السמידع :

— وأين الثرى من الثريا ، إن السמידع بن عمليق بن لاود بن سام بن نوح عليه السلام . أصله في السماء .

ورأى جرهمي آخر أن يشترك في التناؤد بالألقاب فاشترك في الحوار ، قال :

— كان في سفينة نوح ثمانون إنسانا وكان فهم جرهم ، إنه من ولد نوح ذرية بعضها من بعض .

واشتد الجدل بين الحابيين كل يحاول أن يعبد أصله إلى الدوحة الزكية ، إلى نوح عليه السلام ، بينا لاذ الإسماعيليون بالصمت فقد علمهم الخليل أن البشرية جميعا من آدم وآدم من تراب .

ونفض الجراحة وراحوا يطوفون بالبيت قبل أن يعودوا إلى دورهم ،
فارتفعت أصواتهم بالابتهاال إلى الله ثم راحوا يؤكدون أهم قلادة المؤمنين :
لاهم إن جرهما عبادكا الناس طرف وهم قلادكا
وانفض السمار واجتمع شيوخ جرهم يفكرون في ذلك الحوار الذى
اشتعل بين جرهم وقطوراء ، قالوا إن مضاض بن عمرو من نسل نوح فقالت
قطوراء إن السميدع من نسل نوح ، لقد تساوى الرجلان واستويا على فرسى
رمان . لم يعد لأحدهما فضل على صاحبه فإن أرادت جرهم أن تمكن لمضاض
في مكة فلا بد أن تجد ما يرجع كفته على كفة منافسه .

وعصر شيوخ جرهم أذهانهم وقلوبوا الرأى فلم يجدوا أشرف من نوح
ينسبونه إليه ، وصاح صائح في يأس :

— لم يبق إلا أن ننسب إلى الملائكة .

وأضاء ذلك القول رأس أحدهم فقال في حماس :

— هذا هو الرأى .

واتجهت الأبصار تنفرس فيه ، أهازل هو أم جاد ، فقال الرجل :

— سأرفع نسب مضاض بن عمرو إلى الملائكة .

وارتفعت الأصوات :

— كيف ؟

— نقول إن جرهما ابن ملك من الملائكة وأن ذلك الملك أذب ذنبا عظيما

فهوى من عليائه ونزعت منه روحاية الملائكة وصار كأبناء آدم ، ألقيت فيه
الشهوة فتزوج امرأة من العماليق فولدت له جرهما .

— وإذا سألونا ما اسم ذلك الملك ؟

— فليكن عرعرا .

وكان شيخ يخشى أن يفتح القوم باب الأساطير فيفسد الدين فقال :

— ومتى هبطت الملائكة إلى الأرض ؟ هذا هراء .

ووصعوا أصابعهم في آذانهم وأعرضوا عنه ، واندسوا بين الناس يوهمونهم أنه إذا أدنب واحد من الملائكة هوى من عليائه وأن أناهم الأعلى كان ملكا فأذنب فهبط مكة وتزوج امرأة من العماليق فولدت جرهما . وانتشرت الأسطورة في سرعة الريح ، وفتح شيوع جرهم أول باب من أبواب الفسوق بعد الإيمان .

وحقق السמידع واستند به الغصب بعد أن انتسبت جرهم إلى الملائكة ، قالت جرهم إن مضاخ بن عمرو من نسل نوح فقال أنصاره إن السמידع من نسل نوح ، واليوم يزعم الجرهميون أن جددهم من الملائكة وأنهم من نسل السماء فمادا يستطيع أنصاره أن يقولوا بعد هذا ؟ إن ادعوا ما زعمت جرهم وقالوا إنهم أيضا من نسل الملائكة فيتحدهم الناس هروا .

و لم يحظر على باهم أن يدعوا أنهم أبناء الله ولو فعلوا لضرب الناس رقاسم بسيفهم ، فقد قام ديهم على أن الله واحد لا إله غيره لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

انتصر مضاخ بن عمرو في حرب الدعاية ، رفعت الأسطورة إلى مرتبة سامية تؤهله لولاية البيت ، فإن كان إسماعيل قد ولى البيت فقد كان بكر إبراهيم الخليل ، إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا ، وإن كان نابت قد ولىه من بعده فقد كان وارث النفحة الروحية التي قام على صخرتها مجتمع مكة ، وها هو ذا مضاخ يرتفع بأصله إلى السماء . وصاق السמידع بذلك الزعم ووطد النفس على أن يتمرد على هذا السلطان .

وراح السמידع وقطوراء يدحضون دعوة جرهم في النوادي والجمعيات ويحاولون ما وسعتهم الحجة أن يسفها ذلك القول ، إلا أن الناس قتنا به . وظهر للسמידع ألا جدوى من المحاجة ، ففزع إلى السيف . فخرج على

قومه وصاح صيحة الحرب فهبت قطوراء تنأهب للقتال ، فأخرجوا الحيات والرماح ، وخرج السميدع بقطوراء على ظهور الخيل الحيات مسمى المكان أحياد .

وتأهب مضاض في جباله وخرج في كتيبة عدتها الرماح والدرق والسيوف ، وقعقع قعقعة تتجاوب في أرجاء مكة فسميت تلك الحال قعقعان .

والتقى الجمعان ودارت رحى معركة رهيبة سالت فيها الدماء في مكة أم القرى التي حرم الله فيها القتال ، ورأى مضاض أن يصع حدا للمجزرة فتقدم الصفوف ونادى :

— يا سميدع ! أنا الملك مضاض بن عمرو فابزلى ، فمن أظفره الله كان الملك له .

وخرج السميدع من صفوف قطوراء ومشى إليه مضاض وكأنه ليث كشر عن أيابه ، كان كل منهما على ظهر جواده يدور حول عريمه مرهف الخواس كاتم الأنفاس يلتمس غفلة من صاحبه ليطعنه طعنة قاصية تضرع أوزار هذه الحرب .

كانا صقريين يقطين ومهدين حفيقين ، وشد السميدع على مضاض شدة منكرة كادت تطير لها أفتدة جرهم ، وارتفعت أصوات قطوراء بالتهليل الزاخر بالفرح والأمل ، بيد أن مضاض بن عمرو اتقى الصربة وفي مثل البرق الخاطف سد صربة قاتلة إلى قلب السميدع .

وسقط السميدع عن ظهر جواده ، وقبل أن يمس الأرض عاجله مضاض بضربة كالشهاب ، وحملت جرهم على قطوراء حملة رجل واحد ودار القتال وسرعاد ما انهزمت قطوراء . كانت تحارب بلا أمل فقد قتل قائدها ومن أرادت أن تكون له الزعامة في البيت .

وولت قصوراء الأدبار وحرهم في أثرها تصرب الرقاب ، وانفضحت
قطوراء فسمى المكان فاضح .

وعاد مضاض إلى جبال قعيقعان مرفوع الرأس يقول :

ونحن قتلنا سيد الحى عنوة فأصبح فيها وهو حيران موجع
وما كان يبغي أن يكون سواؤنا بها ملكا حتى أتنا السمدع
فذاق وبالا حين حاول ملكنا وعالج منا غصة تتجرع
فنحن عمرنا البيت كنا ولاته ندافع عنه من أتنا وندفع
ومن كان يبغي أن يلى : داك عزبا ولم يك حى قبلنا ثم يمنع
وكنا ملوكا فى الدهور التى مضت ورثنا ملوكا لا تمرام فوضع

وراحت جرهم تطوف بالحرم وتقول :

لاهم إن جرهما عبادا القوم طرف وهم قلادكا
وانطلقوا إلى حرائ البيت — وكانت بثرا فى بطنه — وراحوا يلقون فيها
الهدايا ، ألقى مضاض الذهب وأتقت نسوة جرهم الحلى والمتاع ، وارتفعت
الابتهالات حتى رحعت صداها جبال مكة .

كان بو إسماعيل قد اعتزلوا الفتنة فلما انتهت الحرب مشوا بالصلح بين
جرهم وقطوراء ، فسارت جرهم وقطوراء حتى نزلوا شعبا بأعلى مكة
واضطلحوا هاك وأسلموا الأمر إلى مصاص ، فحز للناس وطبخ لهم
وأطعمهم فسمى ذلك الشعب المطابخ .

وانتهى أول بغي كان فى مكة .

كان يوسف في سجنه غريبا وحيدا بلا جنس ولا وطن ، بيد أنه كان يسبح من أشرق الفؤاد بوره فإذا به يستشعر رحابة في وجدانه وسعت الكون كله وسمت روحه لتتصل بروح الوجود ، وإذا به يأنس بربه ويحس تعاطفا مع كل ما حوله ، وإذا بالدنيا كلها وطه ، وإذا بقلبه يتفتح للبشرية جميعا ويعطف حتى على هؤلاء الذين ظلموه .

كان سعيدا وإن كان يعيش بين جدران أربعة ، فروحه حرة لم ترزح تحت وطأة الدنس ، إنه هر من سجن الخطيئة إلى رحابة النفس المطمئنة ، حرح من ظلمات أحاسيسه الهابطة إلى فيض المور الإلهي .

وراحت رهرة نفسه تتفتح فإذا بروحه قد شفت لتتلقى الحكمة التي تسكب في ضميره ، وإذا بنور ربه يشيع في جنياته فيملؤه طمأنينة ورضا ، وإذا بالفتى اليافع الجميل صاحب إرادة ونية وعزم وقصد .

كانت إرادته أن يتقى الله حق تقاته ، ونيته أن يخلص الله ، وعزمه على أن يظل معنصما بحبل الله ، وقصده أن يهب نفسه لعبادته ويسير في سبيله ، فحزاه الجزاء الأوفى وآتاه من علمه ، والله بكل شيء عليم .

كان يتعبد لله ويدعو من في السجن إلى عبادته وحده ، ولم تكن كل ساعات ليله ونهاره عبادة وتسيحا واستغفارا بل كان يفكر في العيوم وفي مفايض الماء تتشرب أرضها وفي طريقة تخفيف تلك المفايض وتنظيم ربها ، فلو نجح لأسدى إلى مصر خدمة جليلة ، فسيضيف إلى أرضها الحصبة مساحات

واسعة تريد في رحائها وتسعد أهلها .

وأدخل معه الريان ملك الهكسوس صاحب طعامه وصاحب شرابه بعد أن اتهمهما بأثمهما تأمرأ عبده ودسا له السم في الطعام ، فراح يدعوهما إلى الله ويذهب عنهما حرهما ويدلّهما ما وسعه البذل لتطعمن نفوسهما ، كان كالنبراس في الليلة الظلماء .

وجاء صاحب شراب الملك في الصباح وقال له :

— إني أراي أعصر خمرأ .

وقال الآخر :

— إني أراي أحمل فوق رأسي جبأ تأكل الطير منه ، بينما بتأويله إنا نراك

من المحسنين .

قال :

— لا يأتيكما طعام تررقاه إلا سأتكما بتأويله قل أن يأتيكما ذلكما مما

علمي ربي إلى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون .

واتبعت ملة آباءي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لما أن نشرك بالله من شيء ،

ذلك من فضل الله عليا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون .

كره يوسف أن يعبرهما عما سألاه فقد فطن إلى أن مكروها بصيب

أحدهما ، فعدل عن التأويل وقال :

— يا صاحبي السجن أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ ما

تعبدون من دونه إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن

الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا

يعلمون .

فقال صاحب شراب الملك :

— نبينا بتأويل ما رأينا .

— يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقى ربه خمرا ، وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه ، قصي الأمر الذي فيه تستفتيان .
وقال للذي ظن أنه ناج منهما :
— اذكرني عند ربك .

إنه في لحظة من لحظات ضعفه اتقى الفرح من عند غير الله ، أراد أن يذكره صاحب شراب الملك لمولاه إذا ما كسبت له النجاة . ومرت أيام وأفرج الريان عن صاحب شرابه ، وصلب صاحب طعامه فقد ثبت أنه هو الذي دس له السم في الطعام .

وراح صاحب الشراب يسقى الملك خمرا وصى أن يذكر له أن في السجن مطلوما حبس ظلما ، فلت يوسف في السجن بصع سين ، لأن الشيطان أنساه ذكر ربه لما سأل صاحب شراب الملك أن يذكره عند الملك .
وقام الملك من نومه مفزوعا وقال :

— إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عحاف وسبع مسلات خصر وأخر ياسات ، يأبها الملاء أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون .
قال الكهنة والعرافون والمجموعون :

— أضعاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين .

وقال صاحب شراب الملك الذي نجا منهما وادكر بعد أمة :
— أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون .

واطلق إلى السجن حتى إذا التقى يوسف قال :
— يوسف أيها الصديق ! أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عحاف ، وسبع مسلات خصر وأخر ياسات ، لعلني أرجع إلى الناس لعلهم يهتدون .
قال :

— تررعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلا مما

تأكلون . ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون . ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يعاث الناس وفيه يعصرون .
وعاد صاحب شراب الملك بتأويل الرؤيا ، فلما قصها على الملك من الكهنة والعرافين والمصحين لزموا الصمت المين ، وقال الملك في إعجاب :
— اتنوني به .

وعاد صاحب شراب الملك إلى السجن وهو يتهلل بالفرح ، فربه قد أمر بإطلاق يوسف من سجنه ، وما إن رأى يوسف حتى قال والبشر يترفرق في وجهه :

— أمر ربي بإطلاق سراحك ، إنه يريدك .
وأنى يوسف أن يعادر السجن ، لقد سجن بهتانا وزورا ولن يغادر سجنه .
قل أن تعلن على الملك ببراءته فقال لصاحبه :
— ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ، إن ربي يكيدهن عليهن .

وبعث الملك إلى امرأة العزيز وإلى النسوة اللاتي أعتدت لهن متكئا وآتت كل واحدة منهن سكينا ، وقال :
— ما حطبك إد راودت يوسف عن نفسه ؟

كان صمير زليحا وضماثر النسوة قد عدتتهن طوال السنين التي قصاها يوسف في سجنه ظلما فقلن :
— حاش لله ما علمنا عليه من سوء .

قالت امرأة العزيز :

— الآن حصحص الحق ، أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين . ذلك ليعلم أنى لم أحبه بالعيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين . وما أبرئ نفسي إن النفس لأماراة بالسوء إلا ما رحم ربي ، إن ربي غفور رحيم .

وقال الملك :

— ائتمنى به أمتخلصه لنفسى .

وجاء يوسف ولم ينس ما شغل به سح سين ، إنه فكر فى الفيوم ودبر وأمكنه بالوحى والحكمة والهندسة أن يصل إلى حير السبل لتنظيم ربا . وعمل ودبر وإذا بالمعايض تخرج ثمرات مختلفا ألوانها تسر الناظرين . وكلمه الملك وقال له :

— إنك اليوم لدينا مكين أمين .

قال :

— اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفظ عليم .

وأصبح يوسف على خزائن الريان بن الوليد وصار القاضى الذى يحكم بين الناس بالعدل . ومات العزيز فورث يوسف منصبه وقصره وتزوج امرأته . وكذلك مكأليوسف فى الأرض يتبوا مها حيث يشاء بصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ، ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون .

ولم تؤثر نعومة الحياة ولا إقبال الدنيا فى خلق يوسف فقد زاد تواضعا لله وراح يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، فأمن بالله قوم كثير ، فقد كان يوسف أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر . وكان كلما كلم الريان بن الوليد يزين له الإسلام ويدعوه إليه ويحبه فيه ، فكان الريان يلقى إليه سمعه وينشرح صدره لحديثه : واستمر الحوار بينهما موصولا حتى أسلم الريان وجهه لله رب العالمين .

عرفت مصر التوحيد أيام إدريس قبل أن يوحد مينا الوجهين البحرى والقبلى فى أمة واحدة ، وقبل أن يكون رع ملكا على الأرض قبل أن ترفعه الأساطير إلى السماء ليكون إله الشمس يعبر السموات فى مركبته الإلهية من

الشرق إلى الغرب .

وعرفت مصر التوحيد أيام أن جاء إليها إبراهيم الخليل يقبض سارة من الأسر ، فقد ناقش مستشارى أسرار السماء وكهنة أواريس ومنف في أمر الدين ودعاهم إلى عبادة الله وحده ، رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار .

وها هو ذا يوسف يشرب بين الناس في الدلتا أن لا إله إلا الله ، وأن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ، وأن من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون .

واقترحت دعوته دور الكهنة في طيبة ومنزل وحى الإله آمون في سيوة ففتحت أمامهم آفاقا جديدة ، جعلتهم يعيدون النظر في أمور دينهم وتعدد آفتهم ، وراح قول يوسف : يا صاحبي السجن ! أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار . ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان . إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون . يقرع أذهان الكهنة الصادقين الذين ينفون وجه الحقيقة ، ويرعرع إيمانهم في رع وبناح وأزريس وإيزيس ، بل وفي آمون حامى حى طيبة والمحافظ على استقلال الجيوب من عارات الهكسوس !

وولدت زليخا له أفرايم وميشا ، ومضت السنوات السبع المحصنة والمصريون يررعون ذأبا ، فما حصنوا دروه في سبله ، ودخلت السنوات المحدبة وقحط الناس ، وأصاب آل يعقوب في حبرون المحاعة فمعت يعقوب بنيه إلى مصر وأمسك أبا يوسف بيامين ليكون بقره ، فما كان يطيق فراقه بعد أن فقد يوسف الحبيب .

وانطلقوا إلى مصر مع المطلقين ، فلما دخلوا على يوسف عرفهم وهم له مسكرون ، فالتفت إلى رجاله وأمر بأن يوفر لكل رجل من إخوته بعيره ، فقال

له إخوته :

— لنا أخ بقى إلى حوار أينا وهو شيخ كبير .

كانوا يطمعون في حمل بعير لبيامين ، فقال لهم يوسف لما جهر بهم
بجهازهم :

— اتنوى بأخ لكم من أيكم ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين ؟
فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون .
قالوا : سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون .

وقال لفتياته :

— اجعلوا بصاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفوها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم
يرجعون .

ودهب هتيان يوسف إلى رحال إخوته ودسوا فيها ثمن ما اشتروا من طعام .
كان يوسف يرجو أن يرجعوا إذا ما وجدوا أنهم لم يدفعوا ثمن ما أخذوه ، فقد
كان لا يزال يثق في ضمائرهم بعد ما فعلوه معه يوم ألقوه في البئر لتلتقطه
بعض السيارة .

فلما رجعوا إلى أبيهم شكوا إليه أنهم لم يحصلوا على نصيب بنيامين ،
وقالوا :

— يا أبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون .

قال :

— هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ، فאלله خير حافظا وهو
أرحم الراحمين .

ولما فتحوا متاعهم وجدوا بصاعتهم ردت إليهم ، وجدوا ثمن ما أخذوه
في رحالهم ، ففهم فكروا في العودة كما كان يرجو يوسف بل قالوا :

— يا أبانا ما بعى ، هذه بصاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونرداد

كيل يعير ، ذلك كيل يسير .

رأوا أن الثمن الذى رد إليهم يعوق كثيرا كيل العير ، لم تعد المسألة مسألة ضمير وحقوق بل أصبحت موازنة بين كيل العير وقيمته وبين الثمن الذى وجدوه فى رحالهم ، ولم يقبل يعقوب ما رأوه بل أمر برحوعهم إلى مصر ليتدوا ثمن ما أخذوا ، ودارت المشاورة بينه وبينهم حول بنيامين قال : — لن أرسله معكم حتى تؤتوا موثقا من الله لنا فننتنى به إلا أن يحاط بكم . إنه لم يقلل منهم عدرا أن يعودوا من غير بنيامين إلا أن يهلكوا جميعا ، فأقسموا على ذلك ، فلما أتوه موثقهم قال :

— الله على ما نقول وكيل .

ونحركت أبوة يعقوب فقد كان يحبهم من سويداء قلبه وكان يخشى أن يصيبهم مكروه ، فقال :

— يا بى لا تدحوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة ، وما أغنى عنكم من الله من شيء ، إن الحكيم إلا الله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون .

ولما دخلوا مصر من حيث أمرهم أبوهم ما كان يعنى عنهم من الله من شيء إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها ، وإنه لدو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

ولما دخلوا على يوسف التفتوا إلى بنيامين وقالوا :

— هذا أخونا الذى أمرتنا أن نأتيك به قد حشاك به .

— قد أحسستم وأصبتم وستجدون جزاء ذلك عندي .

ونظر إلى إخوته الأحد عشر وقال :

— إنى أراكم رحالا وقد أردت أن أكرمكم .

فدعا صاحب ضيافته فقال :

— انزل كل رجلين على حدة ، ثم أكرمهما وأحسن ضيافتهما .

ثم نظر إلى بنيامين وقال :

— إنى أرى هذا الرجل الذى جئتم به ليس معه ثان ، فسأضمه إلتى فىكون منزله معى .

وانزل أخاه معه فأواه إلية ، فلما خلا به قال :

— إنى أنا أخوك فلا تبشس بما كانوا يعملون .

فلما جهزهم ببجهازهم جعل الإلاء الذى كان يشرب فيه الملك فى رحل أخيه ، فلما ارتحلوا أدن مؤذن :

— أيتها العمر إنكم لسارقون .

قالوا وأقبلوا عليهم :

— ماذا تفقدون ؟

قالوا :

— بمقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير ، وأنا به زعيم .

قالوا :

— تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين ، فلو كنا

سارقين ما رددنا ثمن الطعام الذى وجدناه فى رحالنا .

قالوا :

— فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ؟

قالوا :

— جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه ، كذلك نجزي الظالمين .

فبدأ يوسف بأوعيتهم قبل وعاء أخيه .

لم يكن حكم الريان ملك مصر وقضائه أن يُسترق السارق بما سرق ، وما

كان ليوسف أن يأخذ أخاه فى دين الملك إلا بعلقة كادها الله له فاعتل بها .

قالوا :

— إن يسرق فقد سرق أح له من قبل .

والتفتوا إلى بنيامين وقالوا :

— يا بني راحيل ما يرال لنا مكم بلاء ، متى أخذت هذا الصواع ؟

فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم . قال دون أن تتحرك شفتاه :

أنتم شر مكانا والله أعلم عما تصفون :

قالوا :

— يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا فحد أحدنا مكانه إنا نراك من

المحسنين .

قال :

— معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ، إنا إذا لظالمون .

وظلوا يسألونه أن يطبق بنيامين ويأخذ بعضهم مكانه وهو يأبى أن يأخذ

بريئا سقيم ، فلما استأسوا منه حلصوا نجيا قال كبيرهم شمعون :

— ألم تعلموا أن أنا كم قد أخذ عليكم موثقا من الله ومن قبل ما فرطتم في

يوسف ، فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير

الحاكمين . ارجعوا إلى أبيكم فقولوا : يا أبانا إن ابنك سرق ، وما شهدنا إلا

بما علمنا وما كنا للغيب حافظين . واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا

فيها وإنا لصادقون .

وعادوا إلى حبرون وقالوا لأبيهم ما قال شمعون ، فقال يعقوب :

— بل سولت لكم أنفسكم أمرا ، فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم

جميعا إنه هو العليم الحكيم .

وتولى عنهم وقال :

— يا أسفى على يوسف .

وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم قالوا :

— تالله تعنا تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين .

قال :

— إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون . يا بني اذهبوا

فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله ، إنه لا ييأس من روح

الله إلا القوم الكافرون .

وذهبوا إلى مصر يحملون الصنوبر ليقايصوا ببصاعتهم ما عند يوسف من

طعام ، فلما دخلوا عليه قالوا :

— يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الصر وجئنا بصاعدة مزجاة ، فأوف لنا الكيل

وتصدق علينا إن الله يجزى المتصدقين .

قال :

— هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ؟

قالوا :

— أنك لأنت يوسف ؟

قال :

— أنا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا ، إنه من يتق ويصبر فإن الله لا

يضيع أجر المحسنين .

قالوا :

— تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين .

قال :

— لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين . اذهبوا

بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصير وأتوني بأهلكم أجمعين

قال يهوذا الذي سيصبح الحد الأعلى لليهود :

— أنا ذهبت بالقميص ملطخا بالدم إلى يعقوب فأخبرته أن يوسف أكنه الدث ، وأنا أذهب اليوم بالقميص فأخبره بأنه حي فأقر عينه كما أحرته .
وفصلت العير وانطلقت من أواريس إلى حبرون ، وقبل أن يصل البشير إلى يعقوب قال أبوهم :

— إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفقدون .

قالوا :

— تالله إنك لعي ضلالك القديم .

فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا قال .

— ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون ؟

قالوا :

— يا أبانا استعفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين .

قال :

— سوف أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم .

وخرج يعقوب في سبعين راكبا من أهله وساروا إلى مصر . وقبل أن يدخلوها حرج يوسف ليلقاهم وارتمى في حضن أبيه وامتزجت دموعه بدموعه .

وآوى إليه أبويه وقال :

— ادخلوا مصر إن شاء الله آمين .

وبلغوا مصر وذهبوا إلى قصر يوسف ، ورفع أبويه على العرش وخروا له

سجدا وقال :

— يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا ، وقد أحسن في
إدأخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزع الشيطان بيبي
وبين إحقوقي ، إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم .
رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث ، فاطر السموات
والأرض أنت ولي في الدنيا والآخرة ، توفى مسلما وألحقني بالصالحين .

عادت قوافل بني إسماعيل إلى مكة تحمل خيرات مصر والشام ، فأسرع الناس إلى العائدين يطفئون نيران الشوق ويسألون عن أخبار الرحلة ، واطلق رجال القوافل إلى الحرم يطوفوا به قبل أن يعودوا إلى دورهم وليشكروا الله على ما آتاهم من فضله إن الله سميع عليم .

كان بنو إسماعيل يعيشون أتقياء إلى جوار بيت الله . كانوا يحسنون التوكل على الله فيما لم يبالوا ، ويحسّنون الرضا عما قد بالوا ، ويحسّنون الصبر عما قد فات . وكانوا يصربون في الأرض يتبعون من فضل الله ، فقد لقوا أن الكسب عبادة وأن العمل عبادة ، فكان العمل والتوكل على الله يسيران جنباً إلى جنب في مجتمع مكة الجديد يتناسقان ولا يتنافسان ، ويدفعان بالشعب الحديد ليكون بمثابة الرأس لما يحيط به من شعوب .

كانوا يعملون ويحبون الآفاق في طلب الرزق ، وكانوا في ذات الوقت يؤمنون بأن الله هو الرزاق ، فهو الذي يريق الخنير في بطن أمه والدود في جوف الحجر والطير في السماء ، فلم يعانون من الخوف والقلق واللهفة على أرزاقهم ولم يحسدوا أحداً على ما آتاه الله من فضله . فعموا بالسعادة وراحة البال .

وجرت الأموال في أيدي بني إسماعيل فلم يهرحوا بما آتاهم الله من فضله ، فقد كانوا في قرارة نفوسهم يؤمنون بأن المال ليس غاية بل هو وسيلة ليخدموا به ربهم ومجتمعهم الذي صاقت به رحاب مكة ، وصار في حاجة إلى يد

الكثير .

زهدوا الدنيا فتركوها من قلوبهم ، ولكنهم لم يلبسوا مسوح الكهنة
ويعتزلوا الحياة بل كانوا يخوضون عمارها وهم على ثقة من أنهم سيؤجرون على
كفاحهم وعلى مكابدة حياتهم .

كان الكنز الروحي الذي عمرت به قلوب بنى إسماعيل براسا لهم ، فلم
يفتخروا عن حقيقة واقعهم ، ولم يتملكهم الغرور فيعبدوا دواتهم الفانية باعتبار
أن ذلك السمو الروحي الذي سعوه بعملهم وكدهم امتياز خلعه الله عليهم .
بل كانوا موقنين من أن عهد الله لا يناله الظالمون .

وجلس يعرب بن يشجب بن نابت في حجر إسماعيل يربو إلى الكعبة
ويسبح لله ، وكان الرضا يتألق في وجهه والصعاء يتفرق في عينيه ، فقد
تعشق النور الإلهي فانعكس على مجاه ، وتعلق قلبه بالحقيقة المطلقة الخالدة
فشرح الله صدره ، إنه عليم بذات الصدور .

كان يعرب قد خلف الشباب وراءه وصار شيعا كبيرا من شيوع بنى
إسماعيل ، تعلم على عمه قيدار الكتابة بالطريقة الجديدة التي وضعها عمه ،
طريقة الفصل بين الألفاظ بعد ما ورثوها عن جدهم إسماعيل موصولة
الكلمات .

كان يعرب بمضى أعين وقته في الملتزم بين الحجر الأسود وباب الكعبة
يكتب العقود والمواثيق ، ويعلم صبيان الإسماعيليين الكتابة الجديدة التي
كانت تتطور على مر الأيام ، وكان يخرج مع القوافل ويسير في الأرض ويمطر
كيف كانت عاقبة الدين من قبل كان أكثرهم مشركين .

وراودته فكرة الخروج إلى العراق مع الخارجين ، كان في شوق لأن يرى
أور مدينة حده إبراهيم فما أكثر ما سمع عما كان بين جده وقومه وما كان مه

يوم أن حطم الأصنام في معبد دنا إلهة القمر ، وجعلهم جدادا إلا كبيرهم
لعلهم إليه يرجعون .

واستولت الفكرة على الشيخ الكبير حتى إذا تحشرت القافلة الخارجة إلى
بابل خرج معها وهو قير العيين ، وكان من قبل قد ظهر نفسه ، كان قد سما
في عاداته فإذا سأله الله لا يسأله شيئا لذاته بل كان يمر به إليه ويعود به منه .
يمر من مقتنه إلى رحاب رحمة ويعوذ بمغفرته من غضبه والله غفور رحيم .

واسابت القافلة في محراب الكون فإذا يعرب يحس تعاطفا مع كل ما
حولنه ، كان شروق الشمس يجعله يتהלل بالفرح وكان عروبها يحرك كل
حوارجه بالتسبيح لرب الناس ملك الناس . وكان صوء القمر يبر قلبه فيعقل
أسرار الوجود ، وكان النور الصافي الذي يكسو الصحراء يقوى الإيمان في
قواده فيحقق بين جوائحه بالتقديس ليديع السموات والأرض .

وبدعت القافلة أور هراح يعرب بمد بصره إلى البحر وإلى أبراج المعابد وبملا
رثيه بهوائها وهو سعيد ، كان يشم عبق الماضي التليد ، عبق جده الخليل وهو
يسرى كالروح في أور الكلدانيين ، ونزل يعرب عن صهوة جواده وهو
يتلمت فإذا بالخیل تضرب بحوافرها أرض أور ، وفي مثل لمح البصر طامت
بقلبه فكرة : إن جده إبراهيم لم ير هذه الجياد وهي صاعدة هابطة من يده إلى
بابل وإلى بلاد ما بين النهرين تحمل البضائع وأثقال الناس إلى بلد لم يكونوا
بالفيه إلا بشق الأنفس .

لم يكن إسماعيل قد دلت له الخيل العراب بعد ، ولم يكن أحد من البشر
قد اعتلاها قبله ، ولم يكن العرب قد اتخذوا من إسماعيل قدوة وعمموا على
استئناس الخيل . جاء الحصان إلى هذه البلاد مع من وردوها من العرب وقد
أطلق عليه الساميون في أول الأمر : الحمار القادم من الدو .

ونظر ناحية الهر فإذا بسفن كبيرة لا يقل بحارتها عن تسعين رجلا تتهادى

بما حملت من القمح والزيتون والأخشاب والبحور ، وحانت منه التفاتة فإذا
بأناس قد تجمعوا عند النهر وقد قبضوا على امرأة طأطأت رأسها في دل
وتسلم ، فذهب ينظر ما يكون .

وهم الرجال بإلقاء المرأة في النهر فقال يعرب لرجل وقف إلى جواره :
— ماذا تفعلون ؟

— نحكم الإله .

— في ماذا ؟

— في هذه المرأة التي زنت .

— إنها ستفرق إن كانت تجهل العوم .

— إن كانت بريئة فسينقذها الإله مردوح ، هذه شريعة حموراني شريعة
السماء .

ولم ينتظر ليرى إن كان الإلهم سينقذها أو سيتخلى عنها ، كانوا يسمون
ذلك العبث التحكيم الإلهي ويؤكدون أن الإلهم شرع هذا الجزاء يوم أوحى
إلى حموراني بقانونه .

وسار في طرقات أور وهو شارد القلب حتى إذا ما وصل إلى معبد عشتار
رأى العاهرات المقدسات يمارسن الزنا إرضاء لعشتار ، فعجب في نفسه كيف
يلقى بالزانية في الماء أو في النار لتنقذها الآلهة إن كانت بريئة بينما الزنا يمارس
باسم الدين على مرأى من رجال القانون والكهان ؟

ودخل إلى معبد عشتار إلهة الحمل والحب واللدّة ، وإلهة الحرب ،
وإلهة الأمومة الرحيمة ، والعصر الخلاق في كل مكان .

واشتد عجبه إذ كيف تجمع إلهة كل هذه الصفات ؟ كيف تجمع بين
المهر والأمومة الطاهرة ؟ كيف تصور عارية تقدم ثدييها للرضاع ، وتصور
ملتحية تجمع بين صفات الذكران والإناث ؟ ثم يخاطبها عباها بعد ذلك :

يأتيتها العذراء المقدسة ويأتيتها الأم العذراء .
ورأى رجلا يصلى لها فى حرارة قداسه وألقى إليه سمعه ، فإذا بالرجل
يسبح بحمدها تسبيحا أدهل يعرب وعقد لسانه من الدهشة :
— أتوسل إليك يا سيدة السيدات ، يا ربة الربات ، يا عشائر ، يا مدكة
المدائن كلها ويا هادية كل الرجال .
أنت نور الدنيا ، أنت نور السماء ، يا بنت سين العظيم .
ألا ما أعظم قدرتك وما أعظم مقامك فوق الآلهة أجمعين !
أنت تحكمين وحكمك عدل .
وإليك تخضع قوانين الأرض وقوانين السماء .
وقوانين الهياكل والأصرحة ، وقوانين المساكن الخاصة والعرف الخفية .
أين المكان الذى لا يذكر فيه اسمك ؟ وأين البقعة التى لا تعرف فيها
أوامرك ؟
إذا ذكر اسمك اهتزت لذكره الأرض والسموات ، وارتجفت له الآلهة .
إنك تنظرين إلى المظلومين وتنصمين فى كل يوم المهانين المحقرين .
إلى متى يا ملكة السماء والأرض إلى متى ؟
إلى متى تتمهلين يا راعية الرجال الشاحسى الوجوه ؟
إلى متى أيتها الملكة التى لا تكل قدماها والتى تسرع ركبتها ؟
إلى متى يا سيدة الحبوش ، يا سيدة الوقائع الحرية .
يا عظيمة يا من تهابك كل أرواح السماء ويا من تخضعين كل الآلهة
العضاب ، ويا قوية فوق كل الحكام ، ويا من تمسكين بأعنة الملوك .
يا فاتحة أرحام جميع الأمهات ، ما أجمل ساك !
يا نور السماء الراق يا نور العالم ، يا من تضيئ كل الأماكن التى يسكنها
نور الإنسان ، يا من تجمعين جيوش الأمم .

يا إلهة الرجال ويا ربة النساء ، إن مشورتك فوق متناول العقول .
حيث تنظلعين تعود الحياة إلى الموتى ويقوم المرضى ويمشون ويشمى عقل
المريض إذا نظر إلى وجهك .

إلى متى أينما السيدة ينتصر على عدوى ؟
فأمرى فمتى أمرت ارتد الإله العضوب .
إن عشتار عظيمة ، عشتار ملكة ! سيدتى جليلة القدر ، سيدتى ملكة ،
ابنة سين القوية ، ليس لها مثيل .

وانسل يعرب من معد عشتار وراح يرقى في مرتفعات أور فقد كان في
طريقه إلى معبد نانا إله القمر ، واساب في الحرم المقدس ثم دخل المعبد فإذا
بأصنام الآلهة في كوات وإذا بكبيرهم مردوخ في وسطها ، وراح يراقب
الرجال الساجدين والكهنة وهم يطلقون البحور ، ويصغى إلى المعيات اللاق
كس ينشدن للآلهة فأحس رغبة في أن يحطم الأصنام كما فعل جده العظيم ، وأن
يصيح في القوم كما صاح : « إني براء مما تعبدون ، إلا الذى فطرنى فإنه
سهيدي » . كان مؤمنا عميق الإيمان ولكنه لم يكن يملك الشجاعة التى
يضعها الله في قلوب المرسلين .

وعاد يعرب أور وخرج مع القافلة المنطلقة إلى بابل ، وكانت القافلة تسير
على شاطئ النهر في الحقول وكانت الثيران تجر المحارث والعلاحيون يرعون
ويحصدون ومياه النهر تقطع الشاطئ ممناجلها البيض ، وسرت القافلة في معد
الله ليالى وأياما حتى لاح برح بابل للعيون ، وسرعان ما اسابت القافلة من
باب عشتار إلى بابل العظيمة ، حنة العرب .

وذهب يعرب إلى السوق وكان الرجال سود الشعر سمر البشرة ملتحيين ،
يصمون على رؤوسهم شعرا مستعارا أو يصفرون شعرهم في صفائر تنوس على
أكفهم .

كانوا يرتدون مآزر من الكتان فوقها عمامات ، وكانت أثوابهم ملونة بالأزرق فوق الأحمر أو الأحمر فوق الأزرق على هيئة خطوط أو دوائر أو مربعات أو نقط . وقد أخذت هذه الثياب الملوثة عيون التجار القادمين من جزيرة العرب فقد كانوا يعرفون النضعة الفرعونية التي كانت تصنع بها الثياب في أرض كنعان ، أما هذه الألوان فقد كانت شيئا جديدا

واندس التجار العرب يبيعون ويشتررون ، وراح يعرب يطر ويسمع ، سمع كثيرا عن عشتار ومردوخ وآلهة السابليين وعن قانون حمورابي ، عرف عشتار أنها على الدوام في عواية وحب . أحبت ذات يوم أسدا فأعوته ثم قتلته ، وشعفت تمور حبا حتى إذا ما قتل هبطت حلفه إلى العالم السفلي إلى الأرض التي لا رجعة منها . وعلى الرغم من الأساطير التي نسجت حول آهتهم فقد كان يعجب من بعض الملاح التي كانت في دين النجوم ودين التوحيد .

ولم يطل عجبه فقد اهتدى إلى أنها بقايا دين يوح ، إلهم يتحدثون عن الطوفان ويدكرون تفاصيله بيد أنهم قالوا : إن كل من عاصمه أصحى حالدا لا يعرف الموت ، وإن شماش إله الشمس كان أحد هؤلاء الساحين .

وكان في شوق إلى قراءة قانون حمورابي ذلك القانون الذي سرى سريان الأنفاس في أرض بابل . إنهم يقدسونه تقديس المؤمنين لصاحب إبراهيم . فانطلق إلى أسطوانة من الحجر على أحد أوجهها حمورابي وهو يتلقى القوانين من شماش إله الشمس . إنها شرائع مزلة من السماء .

وراح يعرب يقرأ كيف أن الآفة مادت حمورابي لكي يشتر العدالة في العالم ويقضي على الأشرار والآثمين ، ويجمع الأقوياء أن يظلموا الضعفاء ، ويشتر النور في الأرض ويرعى مصالح الخلق .

واستمر يعرب في قراءة القانون حتى أتى عليه وقرأ في ختامه :
 « إن الشرائع العادلة التي رفع منارها الملك الحكيم حمورابي ، التي أقامها

في الأرض دعائم ثابتة وحكومة طاهرة صالحة ... أنا الحاكم الخفيظ الأمين عليها ، في قلبي حملت أهل الأرض سومر وأكد ... وبحكمتي قيدهم حتى لا يظلم الأقوياء الضعفاء ، وحتى ينال العدالة اليتيم والأرمة .. فلبأت أي إنسان مظلوم له قضية أمام صورتي أنا ملك العدالة ، وليقرأ النقش الذي على أثري ، وليلق باله إلى كلماتي الخطيرة ! ولعل أثري هذا يكون هاديا له في قضيته ، ولعله يرمح قلبه فينادي : « حقا إن هموراني حاكم كالوالد الحق لشعبه ، لقد جاء بالرحاء إلى شعبه مدى الدهر كله ، وأقام في الأرض حكومة طاهرة صالحة .

ولعل الملك الذي يكون في الأرض فيما بعد وفي المستقبل ، يرفع ألفاظ العدالة التي نقشتها على أثري » .

ووقف يعرب أمام الأثر التذكاري يعكر وهو يعجب : من أين جاءت إلى هموراني كل هذه الحكم ؟ أيكون ما بين شريعة هموراني وشريعة السماء من تشابه هو بقايا شريعة نوح ؟ ولم يطل عجب الشرائع السماوية كلها واحدة منذ آدم حتى إبراهيم ، وأن تلك الشرائع لم تذهب عن الأرض بل حملت بأساطير الشعوب ، إنها مصدر كل ما في القوايين الأرضية من رحمة وعدل . وكان يعرب ممن درسوا الخط العربي الجديد على يد عمه فيدار فكان مهتما بالقلم البابل ، إنه قلم مسماري ، فالتحار ورجال الدولة ورجال الدين يكتبون بقلم مديب على ألواح من الطين ثم يتركوها تجف أو يجففونها بالنار . لم يعرفوا ورق البردي ولم يستخدموه في الكتابة كما عرفه المصريون وعرفه المجتمع الذي نشأ حول بئر زمزم بفضل جدتهم العظيمة هاجر المصرية .

وملأ أذنيه وقع حوافر الخيل في طرقات بابل فإذا بقوافل الحياض تنطلق إلى أسواق حنة العرب ، فشر ذهنه وراح يفكر في الخير العميم الذي جنته بابل من استئناس إسماعيل للخيل ، صارت مركز تجارة العالم وتكدست الثروات بها .

وتلفت يعرب حونه هرأى كل شىء يطق بالبدح ، ولم يحمد بابل على عماها بل رثى لها ، فاشتعال الكهنة بالتجارة ومغالة التجار في الربا وانتشار الخشع في قلوب أبائنا ، كل ذلك يدبر بقرب الكارثة . أصبح من المستحيل التوفيق في مجتمعها بين التقوى والشره الذى جعل فوائد القروض عشرين في المائة ، وفوائد البصائع ثلاثة وثلاثين في المائة .

كانت بابل دولة قوية على رأسها حكومة قوية تسدها ثروة تجارية ضخمة ، إلا أن عيب يعرب كانت ترى السوس ينخر في أعمدة هذه الدولة ، كان الثرف هو الخنجر الذى سوف تتحر به الأمة التى تتألق كالكاح فوق شعوب العرب .

وعادت قافلة بنى إسماعيل إلى مكة تحمل الأقمشة التى طررت بمهارة والثياب التى صنعت بالأزرق فوق الأحمر أو الأحمر فوق الأزرق . وما إن لاحت أرباص أم القرى حتى طمرت الدموع إلى مآق الشيخ يعرب ولم يمدك نفسه حتى نشج بالنحيب .

ونحف زحال القافصة إلى الكعبة يطوفون بها ، وخر يعرب ساجدا لله رب العالمين .

أو لم يوسف الصديق ليعقوب وإخوته ونيمة فحمة تليق بعزيز مصر رئيس وررائها وقاصى قضائها ومن جمعه الريان على خرائثها ، دعا إليها الرجال الأول فى دولة الهكسوس والعظماء والرفقاء ورؤساء الأسرار ومستشارى الأوامر الملكية ورجال الجيش ومستشارى أسرار السماء ، فعص قصره بالقصاة ورجال القصر الملكى وكهنة المعابد ووجهاء من آمنوا بدين التوحيد الذى كان يدعو إليه يوسف بالحكمة والموعظة الحسنة .

وراح يعقوب وبنوه يتحدثون إلى القوم فى ود وقد فتحوا لهم قلوبهم ، وساد جو الحفل المحبة حتى إذا ما دعوا إلى الطعام وجدوا أن يوسف فرق بين أبيه وإخوته وبين المصريين وجعل لكل من الفريقين طعاما ، وحمد يعقوب ليوسف ما فعل فقد كره يعقوب أن يأكل من طعام لم يذكر اسم الله عليه . وراح يعقوب وبنوه يأكلون مطمئين ، ولم تدم الراحة التى هاضت فى صدورهم طويلا فقد علموا أن المصريين هم الدين أبوا أن يأكلوا معهم على مائدة واحدة ، فهم يعتبرونهم نجسا ويرون أن سكاكينهم وقدرهم وسقافيدهم نجس حتى إنها تنجس الضحية الطاهرة إذا ذبحت بها أو وضعت فيها .

وبدرت فى صدر يعقوب بذرة الخوف من المستقبل ، أسكنهم الريان بن الوليد أرض جوش الطيبة فى شرق الدلتا ترويتها قناة حرجت من النيل لتصب فى البحر الأحمر وراحت عنهم وإبلهم وسائر مواشيهم ترعى فى الأرض الحصبة دون منارع ، ولكن كراهية القوم لمقدمهم بدت من أمواهم وأفعالهم

وصارت إيريس أم الإله ، وراح المؤمنون بها يصلون لتمثالها وهي ترضع ابنها حور ، وصار أوزير رمزا للحصب ما دام قادرا على أن يضع في بطن إيريس ابنه بعد أن قتله أخوه ست الشرير !

رع إله الشمس يقطع المستنقعات السماوية كل يوم في سميته الإلهية من الشرق إلى الغرب ، وبتاح الإله الذى خلق الكون أدار البيضة التى نشأ منها العالم على عجلة الفخار .

وأصغى يعقوب وبنوه إلى تمجيدات رع :

— الصلاة لك يا رع عد الشروق ويا أتوم عد الغروب، إبتك تشرق وتشرق وتسطع وتسطع متوجا كملك الآلهة ، أنت رب السماء ورب الأرض الذى خلق الكائنات العليا والسفلى .

أيها الإله الأوحد الذى كان مذ البدء ، الذى أنشأ العالم وخلق البشر ، والذى أنشأ ماء السماء وخلق النيل . والذى أنشأ ما فيه .

وعجب يعقوب وبنوه من المصريين وآلهم ، فما أكثر ما غادر المصريون بلادهم ورأوا الشمس تبرز من خلف أبراج بابل تنشر ضياءها على أرض شعار كما رأوها تبرز من خلف مسلات منف وطيبة وتنشر ضياءها على وادى النيل ، وعلى الرغم من ذلك ظل إلههم فرعون محليا يحكم أرض المراعين ، ولم يعرفوا ذلك الإله الذى يسيطر على العالمين .

قالوا إن رع خلق العالم وخلق البشر وأنه رب السماء ورب الأرض ، بيد أن عالمهم كان الدلتا ومجرى النيل ، وكانت سماؤهم سماء مصر وأرضهم أرض مصر ، وكان الفرعون الإله يصون مصر وحدودها ويسهر على أمنها وأمن أسائها وما كان له سلطان خلف الحدود .

وطمع يعقوب فى أن يأتى نصر الله ويدخل المصريون فى دين الله ويؤمنوا بأن الله واحد لا إله إلا هو فى السماء والأرض . وأن يكون بنوه نبراس الهدى

الذى يهذى إلى دين الحق ، يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويصل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء .

واستقر يعقوب وبنيه في جوشن بالقرب من مديس مدينة ناست إلهة المرح والبلدة ، وأعرض بنو يعقوب عن عبادة الإلهة ذات رأس القطعة ومحوها ، بيد أن الهكسوس اشتركوا في عيد ناست وشربوا وعربدوا ورقصوا وعرفوا في الشهوات حتى آذاهم ، فعادت المخاوف إلى قلب يعقوب فقد رأى فيما فعلوا الحنجر المصوب إلى قلب حكمهم ، ذلك الحنجر الذى سوف ينتحرون به قبل أن يهب المصريون لطردهم من بلادهم .

المحصارة كالحياة كلاهما في صراع دائم مع الموت ، كان الهكسوس يصارعون الفناء وإن أسرفوا في الترف والمسق ، وكان يعقوب يصارع سكرات الموت وقد التفت حوله بنوه روبيل وشمعان ولاوى ويهوذا وإخوتهم ، وجاء يوسف يعود أباه فاكتمل عقد الأسباط قصاروا اثني عشر رجلا يرنون إلى أبيهم الشيخ الكبير في حب وإشفاق .

وأشار يعقوب إلى يوسف أن اقترب ، فدنا يوسف من أبيه فقال له يعقوب :

— إذا مت فادفنى إلى حوار جدى وأنى .

وسرى صوت إبراهيم في أذنى يعقوب كأنما كان آتيا من مكان سحيق ، ورآه يحياه الكليل يوم أوصى إسماعيل وإسحق ويعقوب :

— يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتوا إلا وأنتم مسلمون .

كان يعقوب يموت مسلما كما أوصاه الخليل ، كان يموت على ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ، وكان الأسباط مسلمين لم يكونوا هودا ، فهوذا الذى سيصبح جدا لليهود ينظر مع إخوته إلى أبيه وفي العيون دموع وفي القلوب حزن عميق .

وراح يعقوب ينظر بعينين واهنتين إلى بنيه ، حتى إذا ما حضر يعقوب الموت قال لبنيه :

— ما تعبدون من بعدى ؟

قالوا :

— نعيد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون .

وفاضت روح يعقوب فاهمرت الدموع من العيون ، فقد مات إسرائيل وإن كانت وصيته ترن في آذانهم وتسكب في وجداهم وتفعل بها نفوسهم فتتحرك ألسنتهم :

— آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب .

وحمل جسد يعقوب الطاهر ليحنط . فقد أوصى ابنه يوسف عزيز مصر أن يدفن هناك في حبرون إلى جوار حده الخليل وأبيه إسحاق وراح الحنيطون يستخدمون التوابل والمر وسائر أنواع الطيب إلا الخور ، حتى إذا انتهوا من عملهم عطوا الحثة بالنظرون أربعين يوما ثم غسلوها وأخذوا يلغون الجسم كنه بشرائط من الكتان الشفاف مغطاة بالصمغ . وبذلك تم تجهيز الحثة لتنقل إلى الخليل .

واستأذن يوسف الصديق الريان بن الوليد في أن يخرج ليدفن بى الله يعقوب في الخليل فأذن له ، فخرج يوسف وإخوته يحملون جثمان أبيهم . وراح المصريون يكون الشيخ المبارك ، وانطلق أكابر المصريين وشيوخهم مع يوسف إلى فلسطين .

واعترض الكتعانيون الجازاة وقاوموا دفن يعقوب في أرضهم ولكن الجلود المصريين الذين كانوا مع يوسف شقوا طريق الجازاة بأسياهم حتى

انتھوا إلى قبر الخليل .

ودفن يعقوب إلى جوار إبراهيم وإسحاق ، وعاد يوسف وإخوته إلى مصر
ليمضوا أيامهم على الأرض ، وما إن دخل يوسف محرابه حتى راح يدعو الله :
— رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث ، فاطر
السموات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة ، توفى مسلما وألحقني
بالصالحين .

كان خلفاء إسماعيل يعيشون في تناسق في مجتمعهم الذي كان يسمو على مر الأيام ، فلم يدع بنو إسماعيل أنهم ورثة النعمة الروحية وخدمهم ، ولم يحاولوا أن يغتصبوا الحق الإلهي ، ولم يبلغ بهم الزور أن يدعوا أنهم وخدمهم الناس وأن يعبدوا ذواتهم من دون الله ، بل كانوا في قرارة نفوسهم يؤمنون أن لا فضل لهم على من سواهم إلا بالتقوى ، وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهم ، قال : إني جاعلك للناس إماما ، قال : ومن ذريتي ؟ قال : لا ينال عهدي الظالمين .

وكانت ولاية البيت لجرهم ، كانوا حكام مكة يحكمون بما أنزل الله ، ولم يكونوا كهنة لهم نفوذ ديني يمكنهم من استغلال الناس باسم الله بل كانوا جميعا يعملون لإرضاء الله وإدراك غاية روحية مشتركة .

وكانت قطوراء قد سكنت إلى الدعة بعدما كان بينها وبين جرهم من قتال في سبيل ولاية الحرم ، فقد أشبع دين إبراهيم الجوع الروحي في نفوس المؤمنين وألف بين قلوبهم ، ففضى على روح التعصب ونشر في المجتمع الجديد روح التسامح والمحبة .

وكانت قلوب بنى إسماعيل تخفق بنح مصر ، فقد كانت جدتهم هاجر أميرة في مصر قبل أن تقع أسيرة في أيدي العماليق وتهدى إلى جدهم الخليل . وكان رواد الإسماعيليين في غدو ورواح بين مكة ووادي النيل يحملون البحور للمعابد المصرية ، فما كانوا قد تردوا في هوة التعصب فيحتقروا ديانات المصريين ، بل كانوا يدعون إلى ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة ، وكانوا

يؤمنون بأن اضطهاد دين لديهم يباغض عقيدتهم السمحة التي تدعو إلى أخوة البشر جميعا ، وإلى الله رب العالمين ، يهدى من يشاء ويضل من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير .

وكانوا على صلة طيبة ببنى إسرائيل الذين نزلوا بأرض جوشن من دلتا النيل ، كانوا جميعا مسلمين فهم حمدة الخليل ، وكانوا على ملة إبراهيم . ولم يكن بنو إسرائيل قد انصرفوا عن طبيعتهم البشرية وعبدوا ذواتهم وزعموا أنهم وحدهم الناس وأن من عداهم أميون من الأمم التي كتب عليها أن تتخبط في الظلمات إلى يوم الدين .

كان بنو إسماعيل وبنو إسرائيل على دين واحد ، وكانوا حديثي عهد بإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف والأسباط فأسلموا وحوهمم الله رب العالمين ، وتعاونوا في مصر على البر والإحسان ولم يتعانوا على الإثم والعدوان .

ورأى بنو إسماعيل العمال المصريين يعملون في مناجم سيناء ، في الأرض التي كانت مركزا لعبادة الإله « سين » ، إله القمر فنسبت إليه ، فعرف بنو إسماعيل شيئا عن التعددين .

ورأوا في مدن مصر الصانع يعيشون عيشة تدعو إلى الأسى ، يقاسون من سخرية قومهم حتى إن شعراءهم كانوا يتغنون بتحقيقهم قائلين :
— لم أر أبدا الحداد يوقد كسفير .

لا ولا صانع الذهب يؤدي رسالة .

ولكنني رأيت الحداد في عمله .

بجانب بؤرة موقدة .

لقد كانت أصابعه مثل جلد التماسيح .

وكان أثن من يعض السمك .

ورأوا العمال العراة يقتلعون من المستنقعات قصب البردى من سيقانه ويربطونه حزما ينقلونها إلى المخارن ، ورأوا القوارب تصع منه وينسح الحصر وتقتل الحبال وتبأ النعال .

ورأوا كيفية إعداد البردى للكتابة ، بأن تقطع سيقانه طولاً إلى شرائح رقيقة وتوضع عليها عرضاً طبقة ثابتة من الشرائح ، ثم تطرق الأوراق المؤلفة من ذلك بشدة وتجمف وتلصق جنباً إلى جنب .

ورأوا كيف يسج المصريون الكتان الأبيض ناعماً رقيقاً كأنه الحرير في طراوته وعموته . وكانت صناعة الملابس من عمل النساء ، فإن إيزيس وأختها نفتيس غزلتا وسجتا وبصتا ملابس أحبيهما أوريس وإمام الشهداء وزوجهما العزيز .

ورأوا دبغ الخلود وقطعها بالسكاكين ذات الصل الهلالي ، ورأوا زحرفتها وتلوينها بالأحمر والأخضر لترتين عربات أكابر القوم ووجهاء البلاد .

ورأوا التجارين يصنعون الأثاث ويشقون الخشب بالمناشير ويرحرفون ما يصنعون بالأزاميل ، وكانوا يعجبون بتأليف المصريين ألواحاً كبيرة من ألواح صغيرة تلصق جنباً إلى جنب بأوتاد صغيرة من الخشب .

ورأوا كيف يصنع المصريون الورق المقوى فيضعون قطع الكتان بعضها فوق بعض ثم يبلصقونها معاً بمادة لاصقة ، ثم يعشونها بطبقة من الحص .

ورأوا صناعة الفخار وعجلة الفخاري ، وعرفوا أن أساطيرهم تقول : إن الخفائي خنوم محبوب الفسين صاع عليها أوائل الشر في بداية الخليقة . ورأوا صناعة القاشاني والزجاج وإذابة المعادن .

أما الصياغة فقد كان بنو إسماعيل يفهمون أسرارها ، كانوا يتأخرون في الذهب والفضة بين مصر وسورية وبلاد ما بين النهرين .

عرف بنو إسماعيل بعض أسرار الصناعة ولكنهم لم ينقلوا إلى بلادهم شيئاً

منها ، فقد كانوا يشاهدون ما يقاسيه الصانع في مصر من البؤس والشقاء لقلة الأجور ، على الرغم من التحف النادرة التي كانت تخرج من بين أيديهم الفنية الخلاقة ، فأبوا أن ينقلوا تلك الصناعات إلى مكة حتى لا تتكون طبقة محزونة تقاسى وحدها وطأة الظلم الاجتماعي .

ورأى بنو إسماعيل فنون المصريين من نقش وحفر وصنع تماثيل وإقامة أعمدة على شكل البردى ، وعرفوا ذلك الإبداع الذى أطلق عليه المصريون « العسق المقدس » وأعجبوا بالتناسق الفنى الذى يحتم عليهم إذا صوروا شخصا متوجها إلى اليمين أن تكون الذراع اليسرى والساق اليسرى هما الممتدتان إلى الأمام حتى لا يتقاطع جسم الإنسان فتصبح أعضاؤه فى شكل غير واضح أو قبيح .

وعلم بنو إسماعيل الشيء الكثير عن دقائق الفن المصرى ولكنهم لم يحاولوا تقليده ، فقد كانوا يعتقدون أن الفنون من عمل النساء كحياكة الملابس وتطريزها .

وظلت صلة بنى إسماعيل بمصر وثيقة ما دام العماليق على عرش البلاد وما دامت عبادة الله فى بنى إسرائيل . وقد أعلق الحبوب أبوابه فى وجه كل ما يأتى من الشمال الذى سقط فى أيدي « الحقا وخاسوت » حكام البلاد الأجنبية ، بيد أن موجة التوحيد راحت تفرع أبواب طيبة الموحدة وتتسلل إلى معابد آمون .

راح كهنة آمون يذبجون الآلهة فى إله واحد ليقموا فى وجه دعوة التوحيد التى بدرت فى أرض الشمال ، فصار رع إله الشمس وهور بن أريس وحنوم إله البنين وآمون إله طيبة إلها واحدا هو الإله آمون ، ولم يجعلوه إلها للشمس ولا للحكمة بل جعلوه الباطن ورمزوا إليه بالهواء .

وأقيمت الصلوات لآمون فى طيبة كنز مصر الذى لا ينضب معينه ،

وراح الكهنة والناس يتلون في إيمان عميق :

من خلق كل ما هو موجود ،

ومن عينيه نشأ الإنسان ،

ومن فمه الآلهة .

من فطر الأعشاب للماشية ،

وأشجار الفاكهة للإنسان .

من يمنح الحياة للفرخ في البيضة .

وللطير في السماء .

من يمنح الحياة للفرخ في البيضة .

ويحفظ ابن الدودة حيا .

من خلق ما يعيش به البعوض ،

والديدان ، وكذلك البراغيث .

من خلق ما تحتاج إليه الفيران في جحورها .

ومن يحفظ الطيور على سائر الأشجار .

وقوى الإحساس الديني في نفوس أهل طيبة ، يساوهن وراح يلغظ أنفاسه

في صدور العمالق ، وكان متفوفهم يعيشون في الأرض فسادا .

وقد توقف القادة عن القيادة وعن أن يكونوا أسوة حسنة ، وأرادوا أن

يحافظوا على كياهم فلجشوا إلى العسف فوسعت الهوة بينهم وبين سواد الناس ،

وبدا أن حضارة الهكسوس بدأت تتحلل .

وترغ الهكسوس قبل أن تم طيبة للكعاج ، كان سوس الفساد قد غمر في

عظام مملكتهم وكانت الخناجر المسمومة تصوب إليها من أنائها .

كانت دولة العمالق تتحرر قبل أن يشهر في وجهها سيف أوريشن عليها

المهجوم فرسان آمون .

انتهى التناسق بين مجتمع أورابيس فكان ملوك العماليق وحاشيتهم ومن لف
لفهم في جانب ، وكان سواد الشعب في جانب ، واعدتم التجاسس بين الفريقين
فتزعزعت حضارة العرب الذين جاءوا من تهامة من أساسها .

وهب أحبس في طيبة يؤجج نار الحماسة في صدور المصريين ويؤكد لهم
أن آمون لم يدنس بعار الجريمة وأنه قادر على نصرهم ، وقاد أحبس جنوده
وانطلق لقتال المكسوس .

كان المصريون يقاتلون في سبيل تحرير وطنهم وإعلاء كلمة إلههم آمون ،
وكان المكسوس يقاتلون دفاعا عن أرواحهم وقد دبت روح الجريمة فيهم قبل
أن يلتقى الجمعان .

كانت قلوب المصريين عامرة بالإيمان فيما كانت قلوب المكسوس هواء ،
فما لبث أن انهزم المكسوس وولوا الأدبار وأحبس في أثرهم حتى طردهم
خارج الحدود .

وتريع أحبس على عرش مصر ورفع آمون على عرش الآلهة ليكون رب
الأرباب ، وراح بنو إسماعيل يوجهون تجارتهم وجهة أخرى غير مصر وإن
كانوا يرصدون الأحداث ليصلوا ما انقطع بينهم وبين أحب بلاد الله إلى قلوبهم
بعد واديه المقدس .

وعاد بعض من كان من العماليق بمصر إلى تهامة بعد أن طردهم أحبس من
البلاد فضاقت مكة بمن فيها ، وصار على الأقوياء من أبنائها أن يضربوا في
الأرض ويتبعوا من فصل الله . وبقي بنو إسرائيل في مصر يسومهم آل فرعون
سوء العذاب ويدعون أبناءهم ويستحيون نساءهم وفي ذلكم بلاء من ربكم
عظيم .

١٠

كان مجتمع مكة الذى تكون حول البشر جديدا لم تصبه الأسقام المدمرة التى تتعرض لها الأمم ، أسقام طول العمر والملل والجمود . بل كان مجتمعاً ينبض حيوية وتسرى فيه نفحة روحية تجدد شبابه على الدوام .

أدرك ذلك المجتمع الكنز الروحى وتاه به فخرا ، وجلبت التجارة إلى مكة الذهب والفضة فتعم شعب مكة بكوز الأرض وكنوز السماء . وطمع بنو إسماعيل أن يكون الحرم مركز الإشعاع الروحى الذى يفيض منه الإيمان بالله وحده على العالمين ، وياتوا يرقبونه الفرصة لشر دين الله .

وضاقت مكة بمن فيها بعد أن عاد بعض المكسوس الذين كانوا فى مصر إلى تهامة وبعد أن تكاثرت الناس ، فكان على الأقوياء من أبائهم أن يغادروها وأن يتركوها للحائمين واللاتذين بالحرم والشيخوخ الذين يتمنون الموت فى الأرض التى بارك الله فيها للعالمين .

وكان بنو إسماعيل من الأقوياء فقد جابوا الآفاق وانطلقوا إلى بلاد ما بين النهرين وسورية ومصر ، فكانت بابل ودمشق وأواريس ومنف ومكة أرض الله ، لم يتعصبوا إلى وثن السيادة القومية وإن كانت قلوبهم تهوى إلى الوادى المقدس .

لم ترتجف قلوبهم خوفا من الاعتراب عن الأوطان فقد كانوا يؤمنون أنهم أينما ساروا فهم مع الله فى دنيا الله وفى محراب الله ، فإن كانوا يحبون مكة وتعلقت أهدنتهم محرما بالبيت الذى جعله الله مثابة للناس وأما ، فقد كانوا قادرين على أن يعودوا إليه كلما هزتهم الأشواق أو هوت إليه أهدنتهم .

أصبح نابت بن إسماعيل قبيلة ، وأضحى قيدار قبيلة . وأمسى إذبيل قبيلة ، وبات كل من مسا ودوما وميسام ويطور وباقي أبناء إسماعيل الاثنى عشر قبائل قوية تتأهب لمخروج من مكة إلى عراب الله ، إن الأرض يرثها عباده الصالحون .

وكان لكل قبيلة رعيم مطاع ما دام يحكم فيهم بما أمر الله ، وكان هؤلاء الزعماء أناسا يبذلون دواب نفوسهم لإسعاد شعوبهم الصغيرة فلم يتحول أحد منهم إلى رب من الأرباب ولم يصحح شيخ من شيوخهم نصف إله .

وجاءت قبيلة نابت تطوف بالبيت طواف الوداع قبل أن ترحل إلى المجهول إلى حيث ينزلها الله ، ففاصت عيون الرجال والنساء بالعبرات ، وتحركت شفاههم بالتسبيح لله بينا كانت جوارحهم وقلوبهم ساجدة في معبد الكون ، ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين عمورا .

وراحوا يشكرون الله على ما رزقهم وعلى أن وفاهم بكسة كلك الكسة التي أصاب بها بني إسرائيل في مصر ، فقد فقدوا حريتهم وصاروا عبيدا أرقاء يعدون ما يعبد المصريون من دون الله ويقاسون أسوأ صنوف العذاب .

وحات ساعة الرحيل فحفظت القلوب في الصدور ، كان حبهم للحرم شديدا وكان أقصى ما يوجع أفئدتهم تصورهم معارقه وعدم الطواف به كلما خرجوا من مكة أو عادوا إليها ، فعلا التحب والنشيج ، وأحلوا حجارة من البيت تذكرهم بحرمهم المقدس وبأحب بقعة من بقاع الأرض إلى نفوسهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

وذهبوا إلى قبر نابت إلى جدتهم الأعلى الذي كان أول من ولى البيت بعد أبيه إسماعيل ، وألقوا عليه نظرة وداع ثم داروا على أعقابهم ليخرجوا من مكة مرتع الصبا وأرض الذكريات .

ووصعوا الحجارة التي أدخلوها من البيت الحرام في رحالهم وأحاطوها

بتقديم الوثنيين لأصنام آلهتهم ، ثم انطلقوا بحيامهم وإبلهم ومواشيهم
تحدوهم الآمال إلى الأرض الجديدة وقد وطمدوا أنفسهم على أن يخوضوا أقصى
غمار المعارك إذا تحرش أحد بهم أو اضطرهم إلى القتال .

أغرى انتصار أحمس على الهكسوس المصريين على أن يتحولوا من الدفاع
عن النفس إلى الغزو بحجة تأمين حدودهم ، فراح حلفاء أحمس يحاربون في
سورية حربا لا هوادة فيها لتوسيع رقعة الإمبراطورية المصرية .

واضطربت المنطقة وانتشرت الحروب وكثرت الاعتداءات ، وكانت
قبيلة نابت على يقين من أنها قد تمتشق الحسام لتقرير مصيرها . كان بنو نابت
رسل سلام وكانوا في نفس الوقت فرسان قتال ، لم يكونوا فلاسعة ولا رجال
أحلام بل كانوا رجال واقع يؤمنون بدور الحروب في إيقاظ الشعوب من
سباتها ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو
فضل على العالمين .

ونزلوا حول البحر الميت ، ولم يرتح أهل المنطقة لنزولهم فقد كانت
مواشي رواد الإسماعيليين وإبلهم وأغنامهم كقطع الليل نزلت على المراعى
كالجراد المنتشر ، فخاف الناس من هذه المراحة على مراعيهم وخشوا القوة
النازلة بأرضهم .

فنشب قتال بين بنى إسماعيل وبينهم كتب فيه النصر للمؤمنين ، واستقرت
قبيلة نابت حول البحر الميت يستريحون الأسفت من سواحل الشرقية
وترعى مواشيهم في مروج الخضرة ، ولم يكن ذلك كل ما يطمع فيه بنو نابت
بل كان خطوة على الطريق .

وجرت الحياة في مكة كما كانت تجري قبل خروج قبيلة نابت ، كانت
القوافل في غدو ورواح والطواف حول بيت الله لا ينقطع في الليل أو في
النهار ، فقد كان البيت قبلة المؤمنين وكان الأمل ومحط الرجاء ، فلم يحسد

الاجتماع المكي السيادة السياسية في إنسان بشري ولم يعرف الابن الملكي للإله ، فما كان في مكة اس لرع أو ابن لمدوخ أو ابن لبعل بل كانوا جميعا عباد الرحمن وكان الملك لله لا فصل لحاكم على محكوم ولا لعنى على فقير إلا بالتقوى ، وكان التقديس للبيت الذى جعله الله مثابة للناس وأما .

نجت مكة من الكابوس الطبقي ومن عبء طائفة الكهنة الذين لا هم لهم إلا أن يخذعوا الشعوب لثقتل حرائثهم بالذهب والفضة وتروى شهواتهم باسم الإله ! ونجت من أن يرعى ملك طموح قطيعهم البشرى للحرب واقتناص الصيد البشرى في سبيل محمده ورفع شأنه وتحليل اسمه ، وحلت من الكبرياء الذى يسبق تردى الأمم في هوة الدمار فقد أسدأ أهل مكة وجوههم لله .

وتأهت قبيلة قيدار للرحيل والتفصح في الأرض فجاء الرجال والنساء إلى الحرم وفي حناجرهم عصص وفي عيونهم دموع ، وطاقفوا بالبيت وارتفعت الأصوات بالتهليل والدعاء لرب السموات والأرض ، وقبل أن يغادروا أول بيت وضع للناس أخذوا منه حجارة لتذكرهم به إذا ما هوت بعوسهم إليه . وألقت قبيلة قيدار نظرة على البيت ثم انطلقت قافلتهم في معبد الله حتى نزلت على طريق القوافل ، فقد كان بنو إسماعيل يعيشون على التجارة ويعدون أرواحهم بمناجاة الله فقد لقنوا أن الإنسان لا يعيش بالحر وحده .

وراح الرجال يرمون العقود ويعلمون الصياني الكتابة فكانت أصوات الصية في الخيام تتحارب في الفضاء : أبجد هوز حطى كلمس ، وكانت الكتابة عندهم كالماء لا غنى لهم عنها فقد كانت عصب التجارة ، ولم يستغل بنو إسماعيل معرفتهم الكتابة لاستغلال الناس أو لتأييد سلطان حائر كما كان يفعل الكتبة المصريون ، فالطبقة المثقفة المصرية كانت القوة التي تساند العرش وتنظم الأباشيد في تمجيد الملك الإله وتسن القوايين التي تنقل بها كاهل الفلاحين ، وكانت تقبص الثمن إعفاء من المشاركة في فلاحه الأرض ، بها

استغل كتبة الإسماعيليين معرفة الكتابة في تشييط التجارة لرفاهية أقوامهم وفي نسخ صحف إبراهيم لتعريف الناس بأمور دينهم ، فكانوا سببا من أسباب التناقض بين قانون الطبيعة وشرعة الله . بين العمل والعبادة ، بين خدمة الدنيا والدين .

وجاءت قبيلة دومة تطوف بالبيت الحرام طواف الوداع قبل أن تغادر الوادى المقدس ، وحملت فيما حملت حجارة من البيت المحرم ووضعتها في الرحال في تقديس وحشوع ، فقد كانت حجارة من البيت الذى دعا جددهم الخليل ربه أن يجعل أفئدة من الناس تهوى إليه .

وخرجت القبيلة بخيامها وإبلها وجيادها ومواشيها وانطلقت إلى الشمال لتتزل على طريق التجارة ، وقد حطت رحالها إلى جوار قبيلة قيدار وعرف مكان نزولها بدومة الجندل .

وتتابعت هجرات قبائل بنى إسماعيل فخرجت قبيلة مسا من الحرم ونزلت في شرق مؤاب على مقربة من فلسطين في الشمال الغربى من قبيلة نابت ، ونزلت تيماء في العلا ، ونزلت إذبيل على مقربة من غزة وإلى جنوب غربها ، ونزلت قبيلة يطور في ساء أرض عبادة الإله سين وعرف مكان نزولها بالطور .

وحفت قبائل بنى إسماعيل بطريق القواهل المنطلق من مكة إلى غرة ثم وادى الليل وقد أسلموا وجوههم لله رب العالمين ، وإن وصعوا الحجارة التى أخذوها من الحرم في أماكن أمينة لتصبح أماكن مقدسة على مر السنين وأحب بنو إسماعيل أراضيهم الجديدة وبقيت قلوبهم متعلقة بالحرم ، فكان ولاؤهم مقسما بين المجتمع الحديد ومكة ، وكانوا يحسبون أن ارتباط أفئدتهم بمكة كفيل بجمع كلمتهم وتوحيد صفوفهم وشد أزرها ليكونوا مراكز للإشعاع الروحى في المنطقة بعد تلك الكسة الزهية التى أصابت بنى إسرائيل

في مصر ، وما دار بخلدهم أن خروجهم في قبائل متفرقة دون أن يندمجوا ويتحدوا سيعطل سير التاريخ .

كان السيل الطبيعي أن يمتزحوا في بوتقة واحدة وأن يصهروا لتحرح منهم حير أمة أحرحت للناس ، ولكن خروجهم في قبائل متفرقة فوت عليهم فرصة التوحيد الاختياري لأنفسهم بأنفسهم ، وربط أجرائهم ببعضها ببعض بروابط دولية عالمية .

كانوا يؤمنون بأن الله رب العالمين ، وكانوا في قرارة نفوسهم يحسون بالأحوة البشرية . فلم يفرق بينهم تعصب ولم يحتقروا ديانات الشعوب التي تربطهم وإياها صلات تجارية وثيقة ، بل كانوا يدعون الله أن يهديهم سواء السبيل ، فهم وإن كانوا ورثة الحصار ، إلا أن السياسة قد وزعتهم طوائف بعدما خرجوا من مكة وبقيت أفئدتهم جميعا مشلولة برباط المحبة إلى مكة ، إلى حرم الله ، وما تشاعون إلا أن يشاء الله رب العالمين .

انحصر ماء الفيضان عن وادى النيل فراح الفلاحون في الشمال والجنوب
يبدرون الحب ويطلقون الخنازير لتدفن الحب في الأرض بأرجلها ، وهم
يغنون ويرتلون الصلوات لآمون العظيم ، بعد أن صار رب الأرباب وإله
الآلهة لما انتصر أحسن بركته على الهكسوس .

وراح بو إسرائيل يعملون في مزارع نخمس الأول وفي إعادة بناء المعابد
والقصور التي خربها العرب الفاتحون قبل أن يسموا ويتمرفوا ويجنحوا إلى
الدعة والمقوق ، فقد صرت الذلة على بني إسرائيل وأصبحوا عبيدا
للمصريين .

نسى بو إسرائيل ربهم فأنساهم أنفسهم ، اضطجعوا بالصبة الفرعونية
وعبدوا آمون والعجل أيس وسجدوا للأفعى وقالوا : إنها رمز الدكورة
المخصبة ومثلة الدهاء والحكمة والخلود ، وأشركوا بالله بعد أن هداهم إلى
التوحيد ، ومن يشرك بالله فقد ضل ضللا بعيدا .

وجاء أوان الحصاد فأطلق الفلاحون القردة المدربة لحى الثمار ، وأطلق
فرعون عبيده من بني إسرائيل لجمع المحاصيل ونقلها إلى محازنه على
ظهورهم ، فقد مسهم فيما أفاضوا فيه عذاب أليم .

كانت الدواب تملأ حظائر فرعون ولكنه لم يأمر باستخدامها في نقل
غلات أراضيه ، بل استلحذ بني إسرائيل تعديبا لهم ، وكان يقلقه أنهم على
الرغم من الاضطهاد والظنك الذى كانوا يعيشون فيه يتناسلون ويتكاثرون .
إنهم غرباء عن البلاد جاءوا في أعقاب العرب الذين وثبوا على الحكم في

مصر وتعلعلوا في ربوعها واستولوا على مباح الثروات فيها ، أصبح كثير من الأراضي ملكا لهم والصاعات تحت سيطرتهم وتسربت الأموال من جيوب الشعب إلى حزائهم

لقد أوحس خلفاء أحبس خيفة منهم بعد أن خرج اهكسوس من مصر ، فضموا أراضيهم إلى أراضيهم وأموالهم إلى حرائثهم وجعلوا عبدا لهم وصفوهم في أعمالهم . وعلى الرغم من ذلك كان تحتمس الأول يفتش أن يثوروا يوما متبرين فرصة اشغاله في حروبه مع السوريين ولو فعوا لضربوه صربة في الصميم ، لذلك كان يضع يده القوية على رءوسهم حتى لا يرفعوها يوما ليوق نفسه ومملكته ثورة العبيد .

وعاد تحتمس الأول من سورية يحمل العائم ويسوق الأسرى فخرج الشعب يستقل الفاتح المظفر بالأعاني والأهاريح ودخل ممف دخول نظامرين ، وهرع لاستقباله أباه تحتمس الثاني وتحتمس الثالث والأميرة حتشبسوت فصمهم جميعا إلى صدره ، ثم أقبل على الأميرة يتحدثها في ود كبير فقد كانت الفطنة والسجابة والحكمة تتراقص على طرف لسانها . فقد كانت أحب آبائه إليه وإن كانت امرأة . وتاهب لزيارة إلهة آمون الذي أبده بهبه أعدائه ، فتأهبت العاصمة لاستقبال ابنها البطل ، وراح كهنة آمون يطهرون المعبد للحدث العظيم .

واستقل كبير الكهنة مرعون العظيم وقاده إلى قدس الأقداس حيث حرا معا ساحدين لآمون ، وتكدست القرائن على مذبح الإله وارتفعت الصلوات وعبقت طيبة كلها برائحة البحور .

وجاء رئيس كهنة وحي الإله آمون من سيوة ودخل مع الملك في عرفة خاصة ، وراح رئيس كهنة وحي آمون يهمس في أذن تحتمس الأول عما أوحى إليه الإله ! إنه يأمر ابنه الإلهي أن يذبح المذكور من بني إسرائيل حتى يأمن

الفتنة ، وتكون كلمة آمون هي العليا ويستتب الأمر لتحتمس ولأبائه من بعده .

وعاد تحتمس الأول إلى قصر صف فرحيت به أحوس أم حتشبسوت وبالغت في الترحيب فأدا بالعكرة التي طالما خامرته تستولى على كل تفكيره ، فدنا من أحوس في حب وقال :
— سأوصى بأن ترفع حتشبسوت إلى العرش وأن تشارك أخواها في الحكم .

وذهب إلى قاعة عرشه فكتب أن ترث حتشبسوت الملك مع أخيها ، وكتب أمرا يقضى بقتل كل ذكر يولد في بني إسرائيل .
وهرع عمران إلى أهله وهو مفزوع فألماهم يصلون ، إهم أهل بيت من المسلمين فقد كانوا على ملة آبائهم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب لم يعدوا آمون ولا العجل ولا آلهة المصريين ، واستمر ينظر إلى روجه وإلى ابته وإلى ابنه الصغير هارون في قلق ، حتى إذا ما أتموا صلاتهم اتبذ بزوجه مكانا قصيا وقال لها همسا :

— أمر فرعون بقتل كل علام يولد في بني إسرائيل .
ونزل بالزوجة هم ثقيل فهي تعمل في قصر الأميرة حتشبسوت مع العاملين فيه من عبيد بني إسرائيل ، وإن أمر إخفاء ما في بطنها لشيء عسير ، فركبها القلق وباتت تخشى أن تصع ولدا فيدحه المصريون ، فاحتسرت وأخذت تخفي أمارات الحمل وأسلمت أمرها لله لعل الله يجعل لها مخرجا إن الله على كل شيء قدير .

وجاءها المخاض فنزل بها آمن عجيب ، وامتألت جنبات القصر بأريج أطيب من المسك وأركي من عطر البحور ، وفي سر وضعت وليدها دون أن تلمس أحدا لمعاونتها أو يستقبل الوليد الكريم دياه بالصياح كما يفعل سائر

الولدان ، وأقمت المرأة على وليدها وأحسنت أن جوارحها تشرق بالبور كالأمان
امتدت إليه عيناها ، وأجج ذلك الحب الخطر الذي يترى به فراحت تضمه
إلى صدرها وتمطره بمصلات نابعة من قلب يحرق بالحنان العامر والحب الكبير .
كانت المرأة وابستها الكبرى تتأويان رعايته ، إن ذهبت الأم إلى عملها
بقصر حشيشوت بقيت الابنة إلى جوار أخيها الحبيب ، وإن انطلقت الابنة
إلى جناح سيدتها بقيت الأم مع ابها وهي تترقب في خوف شديد ، فحياته
رهن بصياحه بالبكاء يقتحم رجال فرعون على أثره مدعها ليرعوه من بين
أحضائها ويذبحوه !

ورفعت عيناها إلى السماء في سكون الليل تنتمس من الله عونه ، فأوحى
إليها :

أن أرضعه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ، ولا تخاف ولا تحزن إن أرادوه
إليك وجاعلوه من المرسلين .

ومرت ثلاثة أشهر وهي تفكر في ذلك الوحي وتسال نفسها كيف إذا
خفت عليه ألقيه في اليم ؟ ! إنه سيفرق ! إنه سيموت ! وطلت ترعاه وحوفها
يترايد ، حتى تأكد عندها أنها لن تستطيع أن تحميه عن العيون المتربصة ببي
إسرائيل ، وبدأت تطمئن إلى ما أوحى إليها فحاءت بسقط من البردى
ووضعت ابنها فيه ثم ألقته في النهر . وما حملة التيار وبعد عنها حتى همت
بالعدو خلفه والبحث عنه لولا أن ربط الله على قلبها وألهمها الصبر والامتنان
لأمره لتكون من المؤمنين .

وقالت لأختها :

— قصيه .

فسارت أخته على الشاطئ تتبع أثره لتعلم خبره وهي ترمقه من طرف
عينها وتظاھر أنها عاقبة عنه حتى لا ينكشف أمرها ، فصرت به عن جنب

وهم لا يشعرون .

وحمله التيار إلى جناح حشيشوت وقد خرجت مع جواربها يفتسلن في النيل ، فلمحن بين الأشجار سبطا به غلام صغير ، فهرعت إحداهن إليه وانتشلته فارتفع بكاء الطفل فسمعه حشيشوت فقالت :

— هذا بكاء طفل صغير .

وجاءت الجارية إليها وهي تحمله وتقول :

— هذا طفل ألقى به أهله في النيل .

نظرت حشيشوت إليه فبهرا جماله وألقى الله في قلبها حبه فضمته إليها وقبلته في حنان شديد . كانت زوجة تحتمس الثاني وكانت على وشك أن تعلى العرش معه بعد أن أوصى أبوهما لهما بالملك معا ، وكان أبوهما تحتمس الأول على فراش الموت يلفظ النفس الأخير .

ودخلت حشيشوت قصرها وهي تحمله وتلصقه بفؤادها فقد تحركت فيها أمومتها ، فلما رأت أخته ذلك اكتفتها راحة ونزل بقلها اطمئنان ودست ترصدا ما يكون .

وأقبل تحتمس الثاني المرعون الحديد ، فلما رأى الطفل قال :

— ما هذا ؟

— طفل التقطناه من اليم .

— إنه ابن من أبناء العبريين ، اقتلوه .

— ارحمه يا مولاي إنه طفل صغير .

— اقتلوه .

— قررة عين لي ولك . لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا .

وظلت تدافع عن الطفل البريء وتلتمس من زوجها وأحبها أن يقيه ، واستوهبته إياه فوهبه لها فهي روجه وشريكته في ملكه وقررة عين أبيه .

فرحت حشسوت بالطفل الذى استحيت وحملته وضمته إليها ونحركت فيها إحساسات الأم الرؤوم ، وبكى الطفل فاقتمست له المراضع . وراح النساء يتوافدن على حشسوت لإرضاع الطفل الوليد ولكن الطفل يأتى ويستمر فى بكائه وامتناعه عن أن يلتقم ثدى إحداهن فقد حرم الله عليه المراضع من قبل ، إن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون .
وحارت حشسوت فى أمره ، فدنت أخته منها وكانت تعمل فى قصرها وقالت :

— هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ؟

فنظرت حشسوت إليها وقد شاع فى وجهها أمل :

— أتعرفين أهل هذا الغلام ؟

— لا أعرفهم ولكن أعرف امرأة صالحة فعله يأخذ ثديها .

— اذهبي وأقى بها .

وذهبت أخته تحت الخطا يتהל وجهها بالفرح ، حتى إذا بلغت عرفتها فى

القصر صاحبت بأمرها :

— أبشرى جاعك الفرج ، إنهم يلتمسونك لترضعيه .

وانطلقت الأم يلقيها اضطراب ، ولكنه اضطراب لذيد فيه لطف وفيه

رجاء ، ودخلت على وليدها وكادت مفرحتها تفزع حبيطة نفسها وكادت

تمس فى وجد وهي تضمه إلى الصدر الملهوف : ولدى ، أبى الحبيب .

وكادت تصرح به لولا أن ربط الله على قلبها لشكون من المؤمنين .

وناولته ثديها فالتقمه ، فأشرق وجه حشسوت بالفرح ونزل بقلب أمه

سكىنة ، رده الله إليها كى تفر عينها ولا تحزن وأطرقت برأسها شكرا لله فقد

رده إليها ليكون من المرسلين .

وجلس حشسوت ترنو إلى الطفل الذى تعلق به فؤادها والذى فخر فى

نفسها يتابع الحنان والرأفة فشاعت في نفسها نشوة ، وأرادت أن تدعوه باسمه بيد أنها لم تعرف بماذا تدعوه ، أتدعوه أحس ؟ إنه اسم عزيز على المصريين فقد سميت أمها أحوسى من شدة تعلقهم به ، ورن اسم أمها في أذنيها ريبا موسيقيا تشع منه ظلال من القداسة ، ولكن فقزت إلى ذهنها فكرة : إنها وجدته بين الماء (مو) والشجر (شا) فلماذا لا تدعوه « موشا » ، واستراحت للفكرة فراحت تاديه : موشى .

أطلق على موسى اسم فرعونى وما كان مصريا ، بل كان ابن عمران من نسل لاوى بن يعقوب ، وما كان يهوديا فلم ينحدر من سبل يهوذا بن يعقوب جد اليهود الأعلى ، وما كان بنو إسرائيل قد انقسموا بعد إلى شيع وما كانوا قد اقترفوا بعد جريمة عبادة أنفسهم وإن كانوا قد أشركوا بالله ، ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما .

وترعرع موسى في القصر وقد صار الملك لتحتمس الثانى ولزوجه حتشبسوت ، وكانت حتشبسوت تمقت الحروب وتحب السلام فراحت تعمل على نشر المحبة وإسعاد الناس .

وشب موسى في القصر وشب معه تحتمس الثالث ابن تحتمس الأول من إحدى سراريه ، كان أخو الملك والملكة ولكن حتشبسوت لم تكن تحبه ، فقد كان على الرغم من ضالة جسمه يتحدث عن الغزو وقتل الناس وتوسيع رقعة الإمبراطورية .

وراح موسى يركب مراكب فرعون وييس ما يلبس فرعون ، وكان الخدم يدعونه « الأمير » « موسى بن فرعون » . ولكن موسى كان يعرف أهله وأنه من بني إسرائيل ، وكانت أسعد أويقات صباه تلك السويعات التي يمضيها مع أمه وأخته وأخيه هارون .

ولما بلغ أشده واستوى آناه الله حكما وعلما ، كان يرى كل من في القصر

يسجدون لآمون ويقدمون له القرابين ، ولكن الله كرم وجهه فلم يسجد
لأنه من آهة المصريين ، وكان يحرق نفسه أن قومه الذين اعتدوا إلى رب
السموات والأرض ارتدوا إلى عبادة العجل والثور والتمس والأفعى .

وفي ذات يوم أقبل إلى القصر ، ولما لم يجد فرعون سأل عنه فقيل له : إنه
حرق إلى مسف ، فركب موسى في أثره ودخل مسف محزن عملا آهة المصريين
والعرش العظيم وكان البهار قد انتصف فأعلقت الأسواق من شدة الحر ، فبينما
هو يمشى في ناحية من المدينة إذ رأى رحلين يقتلان أحدهما من سى إسرائيل
والآخر من قصر فرعون ، فاستعانه الذى من شيعته على الذى من عدوه
فوكزه موسى ففضى عليه ، قال :

— هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين .

وأحس حزنا عميقا فلم يكس يريه قتل الرجل ، وملاه الدم فرفع وجهه
إلى السماء وقال :

— رب إني ظلمت نفسي فاغفر لى .

ففقر له إنه هو الغفور الرحيم . قال :

— رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين .

فأصبح في المدينة خائفا يترقب يحشى أن يكون فرعون وملؤه قد علموا أن
هذا القتل إنما قتله موسى في نصره رحل من سى إسرائيل ، فلو علموا ذلك
لشكوا في أنه مبهم ولتعدر عليه أن يبقى في القصر ليعمل على ما فيه مصلحة
بنى إسرائيل .

وبما هو منطلق بتلفت رأى ذلك الإسرائيل الذى نصره بالأمس يقاتل
رحلا آخر من المصريين ، فلما رأى موسى استصرخه :

— موسى ، انصرنى يا موسى .

فان في وجه موسى العصب وقال للإسرائيلى :

— إنك لغوى مبين .

وأقبل نحوهما فلما لمح الإسرائيلي الشر في عيني موسى فرق منه وفر من وجهه وهو يقول :

— أتريد أن تقتلى كما قتلت نفساً بالأمس ، إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين .

سمع المصري ما قاله الإسرائيلي فذهب إلى القصر وأفشى أن موسى هو الذى قتل الرجل ، وكان خباز الملك وبلغ النبأ مسامع تحتمس الثانى وحششوت فدافعت عنه حششيسوت دون جدوى ، وأعرض عنها فرعون وصاح :

— خذوه واقتلوه بجايته .

وكان أحد أنصار موسى عند فرعون لما أصدر أوامره بقتله ، فخرج يعد السير ، وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى ، قال :

— يا موسى إن الملاء يأتعمرون بك ليقتلوك ، فاخرج إلى لك من الناصحين .

فوقف موسى يتلفت في حيرة لا يدري إلى أين يذهب ، إنه لو بقي في مصر لقبض عليه فرعون ونفذ فيه القتل ، فليس أمامه إلا الخروج فاطلق هارباً لا يلوى على شيء .

سار موسى في حلقة الليل وفي رابعة النهار يضرب في الصحراء في الطريق الذى تسلكه البعثات المصرية التى تبحث عن المعادن في سياء ، يحوع فلا يجد إلا ورق الشجر وبظلاً فلا يطفى ظمأه إلا ما يصادف من ماء الآبار ، ولما توجه تلقاء مدين قال :

— عسى ربي أن يهدينى سواء السبيل .

كان بنو إسماعيل يعبدون الله وحده في قبائلهم التي أحدثت تنتشر في الأرض بين حدود مصر ودمشق وبابل على طريق القوافل وفي الوادي المقدس ، وكانت مكة قبلتهم ومهوى أفئدتهم ، وكان من خرجوا منها يعودون إليها ليستشقوا غير المأوى التليد وليعدوا أرواحهم بالنور الذي ينسكب في وجدانهم فيشدهم إلى السماء ويجعل لحياتهم معنى أسمى من تحصيل الرزق والانعماس في الشهوات .

كانوا على دين الآباء إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، لم يعيروا ولم يبدلوا بل أسلموا لله رب العالمين . لم يفسد دينهم ولم يتأثروا بدين من حولهم ، ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً ، واتخذ الله إبراهيم خليلاً .

وكان أول من غير دين إبراهيم من أبنائه بنو إسرائيل فقد نزلوا بأرض مصر يدعون إلى الله الواحد القهار ، وما إن دالت دولة الهكسوس حتى صاروا عبيدا للمصريين يسجدون لآلهتهم ويعبدون آمون والعجل وسائر ما يعد المصريون من حيوانات وطيور .

وغير أهل مدين دين إبراهيم فحلبوا أصنام الأوثان وعبدوها ، وكانوا أهل تجارة فكانوا يطففون الكيل والميزان ويقطعون الطريق ، بعث الله إلى مدين أخاهم شعيباً قال :

— يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم ، فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تفسدوا في الأرض

بعد إصلاحها ذلك حير لكم إن كنتم مؤمنين . ولا تقعدوا بكل صراط
توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغوها عوجا ، وادكروا إذ كنتم
قليلًا فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين .
قالوا :

— يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ؟ أو أن نفعل في أمورنا
ما نشاء ؟ إنك لانت الخليم الرشيد .
قال :

— يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقا حسنا ، وما
أريد أن أخالكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي
إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ، ويا قوم لا يجزى منكم شقاق أن يصيبكم مثل
ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم بعيد .
واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود .
قالوا :

— يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول ، وإنا لنراك فينا ضعيفا ، ولولا رهطك
لرجمناك وما أنت علينا بعزيز .
قال :

— يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله ؟ واتخذتموه وراءكم ظهريا إن ربي
ما تعملون محييط . ويا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل سوف تعلمون من
يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارقبوا إني معكم رقيب .
قال الملأ الذين استكبروا من قومه :

— لخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريش أو لتعودن في ملتنا .
قال :

— أو لو كنا كارهين ؟ قد ائتمرنا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ

نجابا الله منها ، وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علما ، على الله توكلنا ، ربنا افتح بينا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين .
واستمر شعيب يدعو قومه :
— يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولا تعشوا في الأرض مفسدين .

بلغ موسى مدين وقد نال منه التعب والجوع . ورأى شجرة موقف تحتها يستظل بها ويستريح ، ومد بصره فإذا جماعة من الرعاة يسقون فذهب ليرد الماء فوجد من دونهم امرأتين تكفكمان عنهما أن تختلط بغنم القوم ، فاقرب موسى منهما وقال :
— ما خطبكما ؟

قالتا :

— لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير .
نظر موسى فوجد الرعاة قد وضعوا على فم البئر صخرة عظيمة ، فتقدم ورفع تلك الصخرة وحده وكان لا يرفعها إلا عشرة رجال ، ثم استقى لهما وسقى غنمهما ورد الحجر كما كان . وتولى موسى إلى ظل الشجرة ويطه لاصق بظهره من الجوع وقال :

— رب إني لما أنزلت إلى من حير فقير .

وعادت الفتاتان إلى أبيهما فلما رآهما قال لهما :

— ما بالكما قد عدتما اليوم سريعا ؟

قالتا :

— عاوننا رجل كريم على سقى غنمنا .

وقالت صفورة ابنة الشيخ الصغيرة :

— يلوح عليه يا أبي أنه جائع مكنود .

فأمرها أبوها أن تذهب إليه فتدعوه ، فجاءت تمشي على استحياء حتى إذا بلغتته وهو في ظل الشجرة قالت له :

— إن أبي يدعوك ليحزبك أجز ما سقيت لنا .
فقام معها وقال لها :

— امضي .

فمشت أمامه فضربتها الرياح فبدت مفاتس جسمها ، فحول موسى عنها بصره وقال لها :

— امشي خلفي ودليني على الطريق إن أخطأت .

واستمر في سيره حتى دخل على شعيب ، وراح يقص عليه ما حدث له في مصر فلما انتهى من قصته قال له الشيخ :

— لا تخف نجوت من القوم الظالمين .

وقدم الطعام لموسى ، فلما شبع قام ليصرف فقالت صفورة ابنة الشيخ الصغيرة :

— يا أبت استأجره ، إن خير من استأجرت القوي الأميين

فقال لها الشيخ :

— وما علمك بهذا ؟

— إنه رفع صخرة لا يطيق رفعها إلا عشرة رجال .

— وما أدرك بأمانته ؟

— إني مشيت قدامه فأنى على نفسه أن يخونني وأمرني أن أَمْشِي خلفه .

فذهب شعيب إلى موسى وقال له :

— إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثمانى حجج ،

فإن أتممت عشرا فمن عندك ، وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله

من الصالحين .

— ذلك بنى وبسث أيما الأحدين قصيت فلا عدوان على ، والله على ما
يقول وكيل .

وتزوج موسى صفورة وقد أجز نمسه للشبيح ثمان سنين أو عشر على عفة
مرجه وطعام بطنه ، وبقي موسى يرعى العنم ويسجد لله في معبد الكون
ويأحيه في محراب الوجود ، فقد شب موسى في قصر فرعون بين جدران
وأعمدة ومسلات وهون تحول بين روحه والانبلاق في رحاب السموات
والأرض لتتصل بروح الأرواح وتضىء بنور الأنوار .

وأحسن موسى تناسقا بيه وبين الكون فراح يجوب الآفاق ويتصل بأبناء
عمه إسماعيل الدين خرجوا من مكة ليتفصحوا في الأرض هملوا على طريق
القوافل بين الحجار ومصر وكانوا إخوته في الدم وإخوته في الدين ، وقد
أرضاه أنهم كانوا لا يرالون على ملة إبراهيم لم يغيروا شيئا منها ولم يبدلوا فيها ،
رصى الله عنهم ورصوا عنه فلم يكونوا في حاجة إلى أن يعث الله فيهم نذيرا .
ومرت السنون وموسى يكابد الحين إلى أهله ، كان يستقى أخبار مصر
من القوافل التي تمر بمدى في طريق عودتها من وادي النيل ، وقد علم أن
حتشبسوت امرأة فرعون التي التقطته وأكرمت مثواه ماتت وأن الأمر أصبح
لحتشمس الثالث لا يمارعه فيه مازع .

كانت حتشبسوت تكره ذلك العنى وإن كان من أبيها من إحدى
جواريه ، وكان موسى لا يحبه وما كان يحب موسى فما اجتمعا في القصر يوما
إلا دارت المناقشات بينهما حادة عنيفة ، وعلى الرغم من ذلك فقد كان موسى
في شوق إلى مصر ، فلما أتم الأهل قال لروجه :

— اشتقت إلى أمي وإلى أحي هارون فتأهبى للخروج إلى مصر ، فإن
لي فيها شيعة وأنصارا .

وتأهب موسى وروجه وأولاده للخروج ، حتى إذا أذنت ساعة الرحيل

ودعوا الشيخ وانطلقوا يضربون في البداء حتى بلغوا جانب الطور الأيمن في
عشبة شامية شديدة البرودة .

وجاء الليل وعابت النجوم وأخذت السماء تبرق وترعد وتمطر ، فخرج
موسى من خيمته ينظر ، وراح يلور ببصره في الفضاء فأس من جانب الطور
نارا فقال لأهله :

— امكنوا إني آنست نارا لعل آتيكم منها بحبر أو جذوة من النار لعلكم
تصطلون .

وانطلق موسى في وادى طوى يتوكأ على عصاه صوب النار ، فإذا
بخشوع عجيب يحيط بالوادي كله ، وإذا بور لطيف تحسه الأفقدة قبل العيون
يفشى المكان ، وإذا بالهواء بفعم بتسيحات رقيقة ، تسيحات ملائكية ليس
لوجود عهد بها ، وبدا الوادى جليلا ولا عرو فقد كانت الأرض تتلقى وحى
السماء :

ودنا من النار فلما جاءها نودى أن بورك من في النار ومن حولها وسبحان الله
رب العالمين . فخاف موسى وفر مفزوعا . ولما أفرح روعه عاد ثانية إلى النار
فلما أتاها نودى من شاطئ الوادى الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة : أن
يا موسى إني أنا الله رب العالمين .

وفر موسى مرعوبا ، وما بعد عن النار حتى عاد إليه روعه فدنا منها ،
فلما أتاها نودى :

— يا موسى . إني أنا ربك فاحلح نعليك إني بالواد المقدس طوى . وأنا
احترتك فاستمع لما يوحى . إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة
لذكرى . إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى .
فلا يصدك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى .

وحلح موسى نعليه ولم يذهب عنه روعه ، فقال له الله مؤنسا فهو يعلم

ما في يده وما يخفى صدره إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء :
— وما تلك يمينك يا موسى ؟

قال :

— هي عصا أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى .
قال :

— ألقها يا موسى .

فألقاها فإذا هي حية تسعى .. فلما رآها تهتز كأنها جان ولي مدبرا
ولم يعقب .. فتاداه ربه :

— يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدى المرسلون .. أقبل ولا تخف إنيك من
الآمنين .

فلما رجع ورأى الحية تسعى بقي على خوفه فقال الله له :

— خذها ولا تخف سعيدها سيرتها الأولى .

فمد يده إلى الحية فإذا هي قد عادت عصا كما كانت وقال له الله :

— اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ، واضمم إليك
جناحك من الرعب .

فوضع موسى يده في جيبه وأخرجها فإذا هي تتلألأ كالقمر بيضاء من غير
سوء ، وشعل فكره بالعصا التي صارت حية تسعى وبيده التي أضاعت
كالبرق فقال له الله :

— فذلك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه إلههم كانوا قوما فاسقين .

وعلم موسى أن الله أرسله إلى فرعون فقال :

— رب إني ظلمت منهم بعصا فأخاف أن يقتلون ، وأخي هارون هو أفصح
منى لسانا فأرسله معي ردعا يصدقني إني أخاف أن يكذبون .

قال :

— سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما بآياتنا ،
أنتم ومن اتبعكما الغالبون .

ووقف موسى لا يدري ما يقول فقال له الله :

— اذهب إلى فرعون إنه طغى .

فقال موسى في ابتهاج :

— رب اشرح لي صدري . ويسر لي أمري . واحلل عقدة من لساني .

يفقهوا قولي .

وسار موسى وأهله وهو يفكر في تحتس الثالث ذلك الشاب القصير الذى
قتل بالغزو وقتل الناس ليكون من الفاتحين ، ودخل موسى وأهله مصر
جلسة ، وانطلق إلى أمه فقرت به عينا ، وانتظر حتى جاء أخوه هارون فقام
الأخوان يتعانقان ، وراح يقص على أخيه قصته ثم قال :

— يا هارون انطلق معى إلى فرعون إن الله قد أرسلنا إليه .

فقام هارون ليذهب مع أخيه ، فهبت أمهما إليهما تصيح :

— أنشد كما الله لا تذهبا إلى فرعون فيقتلكما .

فقال موسى لأمه :

— لا تخافى ولا تحزنى إن الله معا ، قال .. فادھبا بآياتنا إنا معكم

مستمعون . فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين . أن أرسل معا بهى

إسرائيل .

فقالت له أمه :

— أخشى عليكم من فرعون .

فقال لها موسى :

— اطمئنى ، لقد بعثنى الله لأخلص بنى إسرائيل من العذاب المهين .

ونحرك موسى وهارون للدهاب فقالت لهما أمهما :

— انتظرا حتى الصباح .

— سنذهب إليه الآن .

وانطلقا في ردهات القصر وكان موسى يعرف طريقه فقد شب فيه وكان ذات يوم أميرا في أمرائه ، ولم يكن الحراس حراس حثيثين فقد أتى تحتمس الثالث بأنصاره وجعل هامان وزيره ، حتى إذا وصلا إلى رئيس أسرار القصر قال لهما :

— ماذا تريدان ؟

— إنا رسول رب العالمين .

ودخل على تحتمس الثالث وقال له :

— إن بالباب مجونا يزعم أنه رسول رب العالمين .

فقال فرعون :

— أدخلوه .

ودخل موسى وهارون على فرعون ، فراح تحتمس ينظر إلى موسى مليا ثم قال :

— ماذا تريد ؟

— إنا رسول رب العالمين ، أن أرسل معنا بني إسرائيل .

وعرف تحتمس موسى فقال له في استخفاف :

— ألم نركب فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين ، وفعلت فعلتك التي

فعلت وأنت من الكافرين ؟

وعرف موسى أنه يخذه عن المصري الذي قتله فقال :

— فعلتها إذا وأنا من الضالين . ففررت منكم لما حفتكم فوهب لي ربي

حكما وجعلني من المرسلين ..

قال فرعون :

— وما رب العالمين ؟

قال :

— رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين .

فالتفت تحتمس إلى من حوله وقال في إنكار واستحقاف :

— ألا تسمعون ؟

قال موسى :

— ربكم ورب آبائكم الأولين .

قال فرعون لمن حوله :

— إن رسولكم الذى أرسل إليكم نجون .

قال موسى :

— رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون .

وتضايق فرعون فأمر موسى وهارون بالخروج ، ثم رأى أن يذهب إلى

معبد القصر ليسمع الكهنة وهم يصلون وقد جعلوا آمون العظيم معجده حتى
ليقر بربوبيته .

أطلق البحور وتكدست القرايين في اندبح ، ودخل تحتمس الثالث

وهامان ورجال القصر ورجال الجيش ورؤساء أسرار السماء وكبار

الموظفين ، وارتفعت أصوات الكهنة بالترتيل . كان آمون يخاطب ابنه الإله

الملكى تحتمس الثالث :

أتيت فمئحتك نهاية العالم لتدكها بأقدامك .

ودائرة المحيط جعلتها في قبضة يمينك .

وجعلتها تنظر إلى جلالتك كباشق يخلق عاليا .

ثم ينقض على ما يلتمسه بالقدر الذى يشتهي .

أتيت فمحتك أولئك الذى يقتربون من حدودك لتذكهم
بأقدامك .

وقد أسرت سكان الصحراء أحياء .

وجعلته يظرون إلى جلاتك كابى آوى فى الجنوب .

سريع يسترق الخطى وهو يجوب الأرضين .

وظل تحتمس الثالث يصعى إلى الكهنة وهم يرجون إليه المديح والتفديس
والتأليه فانتفخت أوداجه ، وعاد إلى القصر يكاد يصر عرورا ووريره هامان
يعذى فيه ذلك الغرور بقوله :

— إنك جلاتك تعرف كل ما يحدث فما من شيء تجهله ، أحطت بكل
شيء علما فأنت إله المعرفة وميزان العدل السماوى .

وأصر فرعون أن يجمع الناس ، فلما خفوا إليه وألقوا إليه سمعهم قال :

— أأرىكم الأعلى .. يأيتها انلا ما علمت لكم من إله عبرى .

قال له موسى :

— إني أدعوك إلى الله .

فقال فرعون فى غلظة :

— لكن اتخذت إلها عبرى لأجعلك من المسجوبين .

— أولو جئت بك بشيء مبين ؟

— فأت به إن كنت من الصادقين .

فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين ، وشرع يده فإذا هى بيضاء للناظرين .

فنظر فرعون مدهوشا فقال له موسى وهارون :

— إنا رسول ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم قد حثناك بآية من

ربك والسلام على من اتبع الهدى . إنا قد أوحى إليك أن العذاب على من كذب

وتولى .

— فممن ربكما يا موسى ؟

— ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى .

قال :

— فما بال القرون الأولى ؟

قال موسى :

— علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا يسى . الذى جعل لكم الأرض مهذا وسلك لكم فيها سلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى . كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى . منها خلقتناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى

فقال فرعون فى غيظ :

— أجبنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى ؟ فلنأتيك بسحر مثله ، فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى .

قال :

— موعدكم يوم الزينة وأن يحشُر الناس ضحى .

وتأهب المصريون للعيد وخرجوا مبكرين وانطلقوا إلى الساحة الكبرى ، فالיום هو اليوم الذى جعله موسى موعدا بينه وبين فرعون . وجاء السحرة الذين جمعهم تحتمس الثالث من أنحاء مملكته واصطفوا صفوفًا . وجاء فرعون ووريره هامان ورؤساء أسرار السماء وجاء سحوت من كان موطفا في معبد آمون فجعلته حشيشوت عظيمًا فى القطرين وعيته رئيسًا من الرؤساء ومشرقا على مشرق الأعمال فى جميع أنحاء مصر ، كان مستشار الملكة بيد أن تحتمس الثالث نجاه عن منصبه وإن تركه عظيمًا من عظماء قصره .

وقال فرعون للسحرة :

— اتوا صبا وقد أفلح اليوم من استعل .

وخرج موسى ومعه أخوه وسار وهو يتكى على عصاه حتى أتى الجمع ،
تحتس في مجلسه مع أشراف أهل مملكته ، يخف به رؤساء أسرار السماء
ورئيس وحى آمون الذى جاء من سيوة ليشاهد ذلك الساحر الذى يريد أن
يرعزع سلطانهم ، فأقبل موسى على السحرة وقال لهم :

— ويلكم ! لا تفتروا على الله كذبا وقد خاب من افترى .

وراح السحرة ينظر بعضهم إلى بعض ثم قال قائل منهم :

— هذان ساحران يريدان أن يخرجاك من أرضكم بسحرهما .

وأقبلوا على موسى وقالوا :

— يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى .

قال :

— بل ألقوا .

فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاعوا بسحر عظيم ، فطر
موسى فإذا حاطهم وعصيم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى . فأوحى في
نفسه حيلة موسى ، فأوحى الله إليه :

— موسى لا تحف إنك أنت الأعلى ، وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما

صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى .

فألقى موسى عصاه .. فإذا هي تلقف ما يأفكون . فوقع الحق وبطل ما

كانوا يعملون . فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين .

وألقى السحرة ساجدين . قالوا :

— آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون .

وثار فرعون وزاد في ثورته أن موسى هزمه على مرأى من الملأ ، وأن

السحرة سجدوا لإلهه والناس ينظرون ، فحشى أن تشتعل الفتنة وأن يفلت

زامم الشعب من يده فقد راح بؤ إسرائيل يسبحون بحمد ربهم العظيم ، فقال

للسحرة :

— آأتمم له قبل أن أذن لكم ؟ إنه لكبير كم الذى علمكم السحر . فلا تقطع أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلسكم فى جذوع النخل ولتعلمن أيا أشد عذابا وأبقى .

وكانت حلاوة الإيمان قد مست قلوب السحرة فلم يعزعوا بل قالوا : — لم نؤترك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض ، إنما تقضى هذه الحياة الدنيا . إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهنا عليه من السحر والله خير وأبقى . إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا . ومن يأتته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى . جئات عدن تحرى من تحتها الأنهار حالدين فيها وذلك جزاء من تركى .

وآمن له سنحوت مستشار حشيشوت ورجال من قصر فرعون وإن أحفوا إيمانهم ، وهجر بنو إسرائيل عبادة آمون والعجل وابن آوى والتعبان وما كان يعبد المصريون ، وحرص موسى وهارون بى إسرائيل على أن يضربوا عن العمل فى حقول الملك وفى مزارع المصريين .

وخاف الأغنياء ثورة العبيد فموسى يفتن بدعوته الفقراء والمستضعفين ، والباس يلتعنون به ويعجبون ، وقال الملأ من قوم فرعون لتحتس : — أئذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض وينترك وآهلك ؟

قال :

— سنقتل أباءهم وستحى نساءهم وإنا فوقهم قاهرون . وأمر فرعون بقتل أباء بى إسرائيل فنزل بهم كرب شديد . قال موسى لقومه :

— استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .

وزاد اضطهاد فرعون لهم فجاجوا موسى يقولون في ضيق :

— أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئنا .

قال :

— عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف

تعملون .

وجلس فرعون مهموما فقتل بنى إسرائيل لم يرحه منهم ، إنه لن يعرف

الراحة ما دام موسى يسعى في الأرض فالتفت إلى من عنده وقال :

— ذروني أقتل موسى وليدع ربه ، إني أخاف أن يبدل ديكم أو أن يطهر

في الأرض الفساد .

وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه :

— أنقثلون رجلا أن يقول ربي الله قد جاءكم بالبينات من ربكم ؟ وإن يك

كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم ، إن الله لا يهدي

من هو مسرف كذاب . يا قوم لكم الملك ظاهرين في الأرض ، فمن يصرن

من يأمن الله إن جاءنا ؟

فقال فرعون في اعتداد :

— ما أرىكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد .

وقال الذي آمن :

— يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب . مثل دأب قوم نوح وعاد

وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد . ويا قوم إني أخاف عليكم

يوم التناد . يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فما له

من هاد . ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به ،

حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا ، كذلك يضل الله من هو

مسرف مرتاب . الذين يحادلون في آيات الله يعير سلطان أتاهاهم كبر مقتا

عند الله وعد الذين آمنوا كذلك يطيع الله على كل قلب متكبر جبار .

والتفت فرعون إلى وزيره وقال :

— يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى ، وإنى لأظنه كاذبا .

فنظر هامان إلى فرعون وى عبيه حيرة ، فقال فرعون فى كبرياء :

— يا أيها المخلأ ما علمت لكم من إله غيرى فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى .

وقال الذى آمن :

— يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد . يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هى دار القرار . من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنسى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب . ويا قوم ما لى أدعوكم إلى المحاة وتدعونى إلى البار ؟ تدعونى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم وأنا أدعوكم إلى العرير العفار . لا جرم أنما تدعوسى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب البار . فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد .

دحل موسى على فرعون يطلب منه تخليص بنى إسرائيل من العبودية وأن يرسلهم معه ليتركوا مصر . فقال له فرعون :

— إذا تركتهم لك فمن يحراث أرضي ومن يسقى زرعى ومن يصنع لى اللبسات لأبنى صرحى ؟ لا يا ساحر لن أطلق لك عبيدى فادع ربك ليخلصهم من يدي .

وأخذ الله مصر بالسنين ونقص من الثمرات ، فتفشيت المجاعة فى البلاد وانتشر الجوع وخشى فرعون العواقب فبعث إلى موسى وقال له :

— ادع ربك يرفع عنا هذا البلاء .

— وإذا رفعه عنكم ترسل معى بنى إسرائيل ؟

— أرسلهم معك .

ودعا موسى ربه فجاء بالخصب وعم الرخاء ، ودخل موسى على فرعون يستنجزه وعده فأبى فرعون واستكبر وقال له :

— ما أصابا الجذب إلا بشؤمكم وما فعل إلهك لما شئنا ، اخرج من عدى فما كنت لأطلق لك عبيدى .

وجاء الفيضان فأتلف الررع وحاق الضيق بالبلاد ، وفزع فرعون وبعث إلى موسى وقال له :

— ادع ربك يرفع عنا هذا البلاء .

فدعا موسى ربه فرفع مفته عن البلاد ، وذهب موسى إلى فرعون يستنجزه وعده فأبى وتكبر وقال :

— لن أتركهم لك حتى أبني صرحى وأصعد إلى السماء وأسمع ربك يأمرني بأن أرسلهم معك .

وسلط الله عليهم الجراد فلم يترك زرعاً ولا ثماراً ولا سبداً ولا لبداً ، فجرع فرعون وفزع إلى موسى وقال :

— ادع لنا ربك يرفع عنا هذا البلاء .

— أو ترسل بنى إسرائيل معى ؟

— أرسلهم .

فلما رفع الله عنهم بقمته عاد فرعون إلى الاستكثار وقال لموسى :

— مهما تأتينا من آية لتسحر بنا بها فما نحن لك بمؤمنين .

وسلط الله عليهم القمل ، فسقطوا فريسة المرض العتاك وانتشر فيهم الموت فراح يحصدهم حصداً ، فجرع فرعون وأهله إلى موسى وقالوا :

— يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك ، لنس كشتت عنا الرجز لنؤمن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل .

فلما كشف الله عنهم الرجز إلى أجل هم بالعوه إذا هم يكثون ، فأرسل الله عليهم الضفادع والدم فهرعوا إلى موسى وقالوا :

— يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك ، إنا لمهتدون .

فلما كشف الله عنهم العذاب إذا هم ينكتون ، ونادى فرعون في قومه قال :

— يا قوم أليس لى منك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتى أفلا تبصرون ؟ أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين . فلولألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين .

فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين .

فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتهم ،

وإن فرعون لعال في الأرض وإنه من المفسرين .

وبعد صر سى إسرائيل فأنش ترل بهم والسلايا تتساقط عليه ورحان فرعون يسوموهم العذاب . ففرعوا إلى موسى يطلبون منه أن يدعو الله ليخلصهم من محنتهم العظيمة فقال لهم :

— يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين .

كانت دعوة موسى هي الإسلام ملة أبيه إبراهيم . إنه يدعو إلى ما كان يدعو إليه آباءه إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا جميعا مسلمين . كان إلههم الواحد الرحمن الرحيم رب العالمين ، ولم يكن يعرف تلك العصية المقيتة ولا اليهودية المتعصبة التي جاء بها من جاءوا بعده من نسل يهودا جد اليهود . فما كان موسى يهوديا بل كان حنيفا مسلما ، أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا ، وإن كانوا أبناء يهودا ووحدوا من قبله فلا تعقلون ؟ ^١ كان يهود من الأسباط وكان من الصالحين ، إنه أحد أبناء يعقوب ، حتى إذا ما حصر يعقوب الموت قال له مع من قال هم من يه : « ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا : عبد إلهك وإنه آباءك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إنهم واحد ونحن له مسلمون » .

وها هو ذا موسى جاء من نسل لاوى بن يعقوب ولم يأت من نسل يهود يقول لقومه من سى إسرائيل : يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين .

فقالوا :

— عى الله توكلنا ، ب لا تحمنا فتنة للقوم الظالمين . وكما برحمتك من القوم الكافرين .

وأوحى الله إلى موسى وأخيه : أن ثبوا أقومكما بمصر بيوتا ، واحصوا بيوتكم قلة ، وأقيموا الصلاة وشر المؤمنين .

فراح موسى وهارون بنفذان وحى الله فاتخذوا لبني إسرائيل بيوتا متميزة فيما بينهم ليكونوا على أهبة الرحيل إذا أمروا به ، ليعرف بعضهم بيوت بعض لا ليفرق الله بين بيوت بني إسرائيل وبيوت المصريين إذا أراد أن يصب غضبه على المصريين كما قال الحاهلون ، إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون .

وقال موسى وهارون :

— ربنا إنك آتيت فرعون وملأه رية وأموا في الحياة الدنيا ، ربنا ليضلوا عن سبيلك ، ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم .

قال :

— قد أحييت دعوتكما ، فاستقيما ولا تشعنا سبيل الدين لا يعلمون . وتأهب بنو إسرائيل للحروج سرا ولكن كيف يخرجون وهم أرقاء عبيد الأرض ؟ وذهب موسى وهارون وأكابر بني إسرائيل إلى فرعون يرجونه أن يأذن لبني إسرائيل في الخروج إلى عيد لهم فلم يقبل ، فظنوا به يرجون ويلحفون في الرجاء حتى قبل وهو كاره . فرح بنو إسرائيل لقرب الخلاص وخرجوا متظاهرين بالاحتفال بالعيد ، وذهب موسى وهارون وبعض القوم إلى حيث وضع تابوت يوسف الصديق وأخرجوه ثم حملوه فيما بينهم فقد عزموا على أن يذهبوا به ليدفنه هناك في الخيل إلى جوار إبراهيم وإسحاق ويعقوب الأبرار المسلمين . فلما جن الليل خرج بنو إسرائيل يتسللون واجتمعوا خارج المدينة ، ثم انطلقوا إلى الشمال ليسلكوا بمس الطريق الذي تسلكه بعثات التعدي إلى سيناء طلبا للقيود .

انطلقوا لا يلوون على شيء ليفروا من الطاعة الذي استعبدتهم وأذلهم وساروا مهطعين ، واقترب مؤمن آل فرعون من موسى وقال له :

— يا موسى أين أمرت ؟

— البحر !

وحاء الموكلون بإدلال بنى إسرائيل إلى القصر يسعون ويقولون :

— حرح بنو إسرائيل إلى العيد ولم يعودوا إلى أعمالهم ، فلم يعد في ضياع الملك من بحرسها ويزرعها ويحني ثمارها . وذاع في مصر أن موسى حرج بيني إسرائيل فهاجت البلاد وماجت ، وجمع فرعون جنوده وأطلق في أثر اغاريين ليعيدهم إلى أراضيه .

ملأ الخلق فرعون واشتد غصبه فشرع في استحثاث جيشه ليلحق اهاريين ويمحقهم ، فأوحى الله إلى موسى : أن أسربعادي إكم متعون . فراح موسى يحد السير ولكن ما إن أشرقت الشمس حتى كان جنود فرعون يلوحون في الأفق البعيد . وترأى الحمعان ولم يبق إلا المقاتلة والمجادلة والحاماة ، فتفتت أصحاب موسى وهم خائفون فالبهر أمامهم والجبال الشاهقة عن يسرتهم وعن أيماهم ، موقع الدعر في قلوبهم وهرعوا إلى موسى يصرخون :

— إنا المذركون

— كلا إن معي ربي سيهدين .

وتقدم إلى البحر وأمواجه تتلاطم كالجبال وقال :

— ههنا أمرت .

وجعل بعض الرجال يقتحمون بأفراسهم البحر مرارا ليسكوه ولكنهم كانوا يرتدون خائبين . وتفاقم الأمر واقترب فرعون وجوده في حدهم وحدهم وحديدهم وعصهم وحققهم فراغت الأبصار وابتعت القلوب الخاخر. عند ذلك أوحى الله إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فلما صربه انفتق فكان كل فرق كالطود العظيم . فاحذر بنو إسرائيل فيه مسرعين ، فلما حاوروه وحرج آخرهم مه كان ذلك عند قدوم أون جيش فرعون إليه فأراد موسى أن يضرب البحر بعصاه ليعود سيرته الأولى فأوحى الله إليه :

— واترك البحر رهوا إنهم حند مغرقون .

وأقبل فرعون على صهوة حصانه يهزمه برجليه ويضربه بسوطه حتى وقف على شفير البحر . فلما رآه منفقا وقف يطر مدهوشا وفكر في أن يحجم ، ولكنه لم يشأ أن يظهر أمام جنوده وعديدا وهو الذي دوح السوريين وبلغ حدود بابل ، فافتحم البحر وانطلق وتدفق حنوده خلمه حتى إذا كانوا جميعا في البحر ارتطم البحر كما كان وأحدث الأمواج تتقاذف الجود ورفعت فرعون وحمضته حتى إذا أدركه العرق قال :

— آمت أنه لا إله إلا الذي آمت به يسرائيل وأنا من المسلمين .

آمن ولم يكن ينفعه إيمانه وكان هو وجده من اعرقين وابتلعهم اليم .. فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا مظرين

وجاور بنو إسرائيل البحر وساروا في سيناء أرض عبادة إله القمر سين ، ورأوا تماثيل الآلهة وكيف يدسح القوم لتلك الأصنام ويسجدون لآلهة يرونها . كانوا حديثي عهد بآلهة المصريين وبالأصنام التي رأوها في معاندهم وسجدوا لها فحنوا إلى أن يجعلوا لله أصناما بعد أن عرّفوا الله رب السموات والأرض واكتشفوا الكنز الروحي . فحاءوا إلى موسى وقالوا له :

— اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة .

كان رسولهم بينهم يفقههم في أمر دينهم ، ولكهم من طول ما رأوا المصريين يعكفون على أصنامهم أثر فيهم وجعلهم يلتصقون إلهها يرونه إذا دعوه ، أرادوا أن يحسدوا الفكرة المطلقة ، أن يجعلوا لله رمزا ، فغضب موسى وقال لهم :

— إنكم قوم تجهلون . إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون

أغير الله أبنيكم إلهًا وهو فصلكم على العالمين ؟

وسار موسى بقومه صوب الأرض المقدسة ، إنه لا يستطيع أن يدخلها

حتى يقاتل أهلها فقال :

— يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين . يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقبوا حاسرين .

قالوا :

— يا موسى إن فيها قوما حباريس . وإننا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون .

قال رحلان من الديين يخافون أنعم الله عليهم :

— ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون . وعلى الله فتوكلوا ، إن كنتم مؤمنين .

قالوا :

— يا موسى إننا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها ، فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون .

قال

— رب إني لا أمالك إلا نفسي وأخي فافرق بينا وبين القوم الفاسقين .

قال :

— فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض ، فلا تأمن على القوم الفاسقين .

وبقى بنو إسرائيل في التيه في صحراء سيناء القاحلة الماحلة ورأوا يحثون عن الماء فلم يجدوه ، فاجأوا إلى موسى يصرعون إليه ، فاستسقى موسى لقومه فقال له الله :

— اضرب بعصاك الحجر .

فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ، وكان أسباط بني إسرائيل اثني عشر سبطا

فكان لكل سبط عين تباحس ، وأحسوا الجوع فهرعوا إلى موسى يلتمسون الطعام فدعا موسى ربه أن يطعمهم فساق إليهم أسراب المن والكلوى .
وضجر كثير من بني إسرائيل بحياتهم الجديدة فأين ما هم فيه من خيرات مصر ، فجاءوا إلى موسى وقالوا له :

— يا موسى لن نصبر على طعام واحد ، فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقنائها وفومها وعدسها وبصلها .

فغضب موسى وقال لهم في سحرية :

— أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ؟ اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم .

فما إن قرعت سحرته آذانهم حتى زاغت أبصارهم ثم أظرقوا في خجل شديد . سوا نعمة الله عليهم إذ نجاهم من فرعون وجوده ومن الذل المهين وراحوا يشتهون ألوان الطعام بعد أن هجروا غذاء الروح .

وواعد الله موسى ثلاثين ليلة وأتمها بعشر ، فتم ميقات ربه أربعين ليلة ، وقبل أن يذهب موسى ليأس بالله ويناحيه قال لأخيه هارون :

— احلفنى فى قومى وأصمى ولا تتع سبيل المفسدين .

وانطلق موسى لميقات ربه إلى جبل طور سيناء ، كان الكون حاشعا فى محراب الله وكانت الشوة تملأ جوارحه وقد اتسعت آفاق روحه حتى كادت تستوعب الكون كله ، فقد كان على صلة بربه له الملك لا إله إلا هو وسع كل شيء علما .

كلمه ربه فتاداه وناجاه وقربه وأدناه ، فطمع موسى فى أن يرى الله فقال :

— ربي أرني أنظر إليك .

قال :

— لن تراني ، ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني .

فلما نجلي ربه للحل جعله دكا وخر موسى صعقا ، فلما أفاق قال :
— سبحانك تست إليك وأنا أول المؤمنين .

فقال الله :

— يا موسى إني اصطفتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك
وكن من الشاكرين .

وأوحى الله إليه فيما أوحى :

— يقيم لك الرب إلهك نبيا من وسطك من إخوانك مثلك له تسمعون .
وراح موسى يفكر . يا مثله من إخوانه ! ترى من أى إخوانه يعث الله ذلك
الرسول ؟

واستمر يصغى إلى ما يوحى به إليه :

— أقيم لهم نبيا من وسط إخوانهم مثلك وأجعل كلامي في فمه ، فيكلمهم
بكل ما أوصيه به .

وفهم موسى أن الله سيبعث في إخوانه نبيا .. لا يطلق عن الهوى . إن هو
إلا وحي يوحى . علمه شديد القوى . ولكن ترى من أى إخوانه يعث ذلك
النبي ؟

ولم يشأ الله أن يترك رسوله دون أن يوضح له ما شغل باله ، إنه يريد أن
يعرف من أى إخوانه يأتي ذلك السى . فأوحى الله إليه :

— جاء الرب من سيناء وأشرق هم من سعير وتلألأ من جبل فاران .
فاران ؟ إنها الأرض التي استقرت بها هاجر وإبها إسماعيل . لقد وصح له
كل شيء . إن ذلك النبي الذي سينزل عليه الذكر من فاران من أرض هاجر
وإسماعيل ، إنه من بني إسماعيل . إنه دعوة إبراهيم .

وولى موسى وجهه شطر البيت الحرام ، وإذا بالسكون كله يردد دعوة
إبراهيم الخليل : ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم

الكتاب والحكمة ويزكيهم ، إنك أنت العزيز الحكيم .

وكتب الله له في الألواح وراح يقرأ ما كتب فيها خافق القلب مهوور النفس : إن الله يأمره أن يسحبه ويقدسه لا إله إلا هو ، ولا يشرك به شيئاً ، ولا يقتل النفس التي حرم الله ، ولا يخلف باسمه كذباً ، وأن يكرم أباه وأمه ، ولا يقتل ، ولا يزني ، ولا يسرق ، ولا يشتهى امرأة صاحبه ولا عبده ولا أخته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئاً من الذي لصاحبه .

وقال الله لموسى :

— وما أعجلتك عن قومك يا موسى ؟

قال :

— هم أولاء على أثرى وعجلت إليك رب لترضى .

قال :

— فإيا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى .

مرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا .

كان موسى قد ذهب لميقات ربه وكان قد وعدهم ثلاثين ليلة ، فلما أنقضا

بعشر وانقضت تلك الليالي ولم يعد جاء السامرى وقال لهم :

— إن موسى قد احتبس عنكم ، إنه ليس يراجع إليكم فينعى لكم أن

تتخذوا إلهاً .

وفكر سو إسرائيل فيما يقول السامرى فوجدوه يصادف هوى في

نفوسهم ، فقد اتمسوا من موسى من قبل أن يجعل لهم إلهاً كما للأقوام الذين

مروا بهم آهة ولكن موسى أرى . وها هو ذا موسى قد ذهب فما الذى يحول

بينهم وبين اتخاذ إلههم ؟ لقد عبدوا العجل لما كانوا عبيداً في مصر ولقبوا أن

روح الله تحل في العجل المقدس ، فجاءهم السامرى بعجل له حوار صغره من

حلى المصريين ، واجتمع القوم يعبدونه والسامرى يقول لهم :

— هذا إلهكم وإله موسى موسى .

فقال لهم هارون :

— يا قوم إنما قسم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري .

قالوا :

— لن نرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى .

ورجع موسى إلى قومه غضبان أسفا فلبلغ سمعه أصوات عرف ، فانطلق إلى

النصوت فإذا بالقوم يعزفون ويرقصون حول المعجل ، فصاح في غضب :

— نسمما حلفتُموني من بعدى ، أعحلتم أمر ربكم .

وألقي الألواح وقال :

— يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا ؟ أنظال عليكم العهد أم أردتم أن

يحل عليكم غضب من ربكم فأحلقتُم موعدى !

ودهب يبحث عن هارون فلما وجدته أحده برأسه يحره إليه ويقول :

— يا هارون ما صنعت إذ رأيتم صلوا ألا تنص ، أعصيت أمري ؟

— يابن أم إن القوم استصعفوني وكادوا يقتلوني ، فلا تشمت بي الأعداء

ولا تجعلى مع القوم الظالمين .

وجره موسى من شعره وهو يقول :

— هلا قاتلتهم إذ علمت أنى لو كنت فيهم لقاتلتهم على كفرهم ؟

— يابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى ، إني خشيت أن تقول فرقت بينى

إسرائيل ولم ترقب قولى .

فرفع موسى وجهه إلى السماء وقال :

— رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين .

وبعث إلى السامرى فلما جاء قال له :

— فما خطبك يا سامرى ؟

قال :

— بصرت بما لم يصبروا به ، بصرت بجبريل فقبضت قبضة من أثر الرسول فشدتها على العجل وكذلك سولت لى نفسى .

قال :

— فادهب فإن لك فى الحياة أن تقول لا مساس ، وإن لك موعدا لن تخلفه ، وانظر إلى إلهك الذى طلت عليه عاكها لحرقة ثم لسفنه فى اليم سما .
وسف موسى العجل وقال لقومه :

— إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو ومع كل شىء علما .

وأطرق بنو إسرائيل خجلا فقال لهم موسى :

— يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ، ذلكم خير لكم عند بارئكم .

ولما سكث عن موسى العضب أخذ الألواح وفى نسحتها هدى ورحمة للمدين هم لربهم يرهبون .

ورأى بنو إسرائيل أن يستغفروا ربهم فكلموا موسى ، فاختر موسى سبعين رجلا من علماء بنى إسرائيل وانطلقوا ليعتذروا عن بنى إسرائيل ، واقتربوا من الحبل فصعد موسى يكمم ربه وصعد بنو إسرائيل يسمعون .

أشرق الجبل بنور ربه لكأنما كان غارقا فى بحر من النور ، وساد الوجود خشوع وعبق المكان بأريج طيب لا نظير له فى طيب الأرض ومسكها وعطورها ، وغشى القلوب أمن عجيب ، وهامت النفوس لتسبح فى روح الأرواح لتفر منه إليه ، لتهم فيه .

وجعل موسى يعتذر عن عبادة العجل ، ثم رجع إلى قومه فقالوا له :

— يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله حهرة .

فانقضت عليهم صاعقة من السماء وماتوا جميعا ، فقال موسى لربه :

— رب لو شئت أهلكنا ما فعل السفهاء ما ؟ إن
هي إلا فتنتك نضل بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت وليا فأعفر لنا وارحمنا
وأنت خير الغافرين .
قال :

— عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء .

وظل موسى يناحى ربه حتى بعثهم من بعد موتهم ، فعادوا في التيه لا
يفكرون في الدحول إلى الأرض المقدسة فأبها محرمة عليهم أربعين سنة ،
وتقصت السون فمات هارون محرن عليه بنو إسرائيل فقد كان عليه ليا ،
ومات بعده موسى فشق ذلك عليهم وراحوا يكتونه والتموا حول فتاه يوشع
بن نون .

واقصت سون التيه فخرج بنو إسرائيل بقيادة يوشع لعرو الكنعانيين ،
ودارت بين الفريقين معارك قاسية مريرة وراح يوشع يسرف في القتل ، كان
من يؤمنون بقانون الطبيعة الثاني وهو : أن أكثر الناس قتلا هو الذي يبقى
حيا .

وتأخر فتح أورشليم فعضب ذو النون من ربه وذهب معاضيا فظن أن لن
يقدر الله عليه . واستمر القتال وحق الغم بدى النون ولم يجد له ملجأ إلا الله
فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانه إلى كبت من الظالمين .
فاستجاب له ربه ونجاه من العم وجاء النصر والفتح ودخل بنو إسرائيل بيت
المقدس ، وكذلك يحى الله المؤمنين .

وعكف بنو إسرائيل على كتاب الله ، على الفرقان الذي فرق بين حياة
العبودية في أرض مصر وحياة الحرية في حياتهم الجديدة . « ولقد آتينا موسى
وهارون الفرقان وضياء وذكر للمتقين . الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من
الساعة مشفقون » .

انتشرت قبائل الإسماعيليين في سيناء وعلى طريق قوافل التجارة الذي يربط مكة بالشام ، حول البحر الميت وفي دومة الجندل ، وقد أحسوا أوطانهم الحديدية وإن تعلقت أقدسهم بالبيت العتيق .

كان ولاؤهم مجتمعاتهم الحديدية عظيما ولكن ولاءهم لمكة كان أعظم ، فقد عرفوا سعادة الدنيا في التجارة ، في الخروج من تلك المجتمعات الحديدية لينشروا في الأرض وليبتعوا من فضل الله ، بينما كانت سعادة الآخرة تتمثل في ذلك البيت الذي أقام إبراهيم قواعده وإسماعيل .

كانوا كلما هزم الشوق إلى بيت الله يعودون إليه ليطوفوا به وينهلوا إلى الله أن يأتيهم في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ويمثلوا جوانحهم بالبور الذي يعيض على البيت . ومن يأتيه مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى . جات عدن تجرى من تحتها الأنهار حالدين فيها وذلك جزاء من تزكى .

انقسمت وحدتهم السياسية ولكن الإشعاع الروحي نبعث من أقدسهم المؤمنة كاب يؤلف بينهم ، وكان يجعل الصلة بين بنى إسماعيل في أوطانهم الحديدية وإخوانهم اللاتدين بالحرم وبين بنى إسرائيل في فلسطين صنة طيبة ، فقد كانوا جميعا ورثة النعمة الروحية التي جاء بها أبؤهم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ، وكانوا جميعا مسلمين . مله أياكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل .

وبعدت الشقة بين بنى إسماعيل والحرم فلم يكن الخروج من مجتمعاتهم

أخذيدة إلى البيت الذى تنهى إليه أقدتهم أمرا سهلا ، ولم تكن المرات القليلة التى تتاح لهم للبريرة لتشفى العليل أو تطفى نار الشوق ، فهم يريدون فى مجتمعاتهم الحديدية بيوتا يظفون بها كلما نرحوا من دورهم ويتمسحون بها كلما عادوا من أسفارهم ، بيوتا مكرمة مطهرة مقدسة يستحب فيها ماحاة الله وذرف دموع التوبة لله رب العالمين .

وطال على الناس الأمد فقتت قلوبهم ، وبدأ شباب الإسماعيليين يولون مكة ظهورهم ، وهما بأن يطلقوا العنان للنفس وأن يعيشوا وفق طباعهم دون صابط أو وارع ، وحاف شيوخهم أن يملت الزمام وأن يدثر الدين وأن تنقطع الأسباب بين حملة شعل التوحيد وبين السماء ، فأحرقوا الحجارة التى أخذها آباؤهم من البيت المحرم يوم حرقوا من مكة ليتفسحوا فى الأرض لتدكرهم بالوادي المقدس أحب بقاع الأرض إلى أقدتهم ، وحلواها فى إجلال وهم يدعون الله فى خشوع ، تسيل عرايتهم على دقوبهم من شدة الامفعال ، وتنطق انتهالاتهم من حناجرهم شكرا لله رب العالمين .

ووصعوا الحجارة التى أخذها آباؤهم من أول بيت وضع للناس فى مكان أعدوه للعبادة ، وجعلوا لها حرما آمنا كذلك الحرم الذى فى مكة ، ووصعوا علامة يبدءون من عددها الطواف ، ثم راحوا يظفون بها سبعا تشبها بالطواف حول الكعبة .

وضل سعى شيوخ بني إسماعيل فى الحياة الدنيا وهم يحسون أنهم يحسون صعبا ، فقد فتحوا أبواب الفتنة على مصاريعها وإن ظنوا أنهم أعادوا إلى شعوبهم جوهر الدين الذى يعذى الروح ويسيطر على الذات ويبطس الشهوات .

وراح بني إسماعيل فى طور سياء وفى دومة الجندل وفى أرض البطح ، أرض أبناء ثابت بن إسماعيل الذين نزلوا حول البحر الميت يسترحون الأسفلت .

يطوفون بالحجارة التي جاء بها آباؤهم من الحرم المقدس كلما حرجوا من دورهم في الصباح وقبل أن يعودوا إلى دورهم في المساء ، وصارت لأماكن العبادة تلك قدسية كقدسية البيت المحرم في الوادي المقدس .

كانوا يطوفون بالحجارة ويدعون الله وحده لا شريك له ، لم يشركوا بالله ولم يجعلوا له أندادا ولم يتخذوا له ذرية ولا أزواجا ، إذا تلى عليهم صحف إبراهيم يحرون للأذقان يكون ويزيدهم خشوعا .

ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك ، فإن فعلت فإليك إذا من الظالمين . وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بحير فلا راد لفضله ، يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم .

وذهبت أيام تحتمس الثالث (فرعون موسى) وأيام أمحتب الثاني الذي قاد ستة من ملوك الكنعانيين الآراميين من البلاد التي أحصعها في سورية إلى طيبة وقدمهم قربانا إلى آمون ، وجاءت أيام أمحتب الثالث فتزوج أميرة من أميرات سورية وفتح أبواب مصر للتجار ، فعاد بنو إسماعيل إلى أسواق منف وطيبة يحملون الطيب ومنتجات بابل وسورية ويستبدلوها بالصاعسات المصرية من خزف وحلى ونسيج .

سارت قافلة بني إسماعيل في أرض مصر قاصدة طيبة كنز مصر العظيم ، وراح رجال القافلة يمدون أنصارهم لكل ما يرون ويلقون السمع للفلاحين والصناع ورجال الدين ، ويصيحون الآذان لابتهالات الكهنة لإلههم آمون .

كان المصريون يعتقدون أن هرعون إلههم وأن سلطان ذلك الإله أرض مصر وأنه يقف على حدودها ليحميها من أعدائها ، فلما جاء الهكسوس وجاء بنو إسماعيل ثم جاء من بعدهم يوسف وموسى يرفعون مشعل التوحيد تأثرت

الديانة المصرية بمعتقداتهم ، فصار إله الفراعين الذى لم يكن سلطانه يتجاوز أرض وادى النيل يرى جميع العالم فى كل ساعة ، وأصبح رب العالمين .
ولاح لقافنة بنى إسماعيل معد لآمون فحطوا الرحال ودهسوا إلى المعبد
يظرون ويسمعون . فراح الكهنة يرتلون لآمون الساطن الذى رمزوا إليه
بالهواء ، فهو لا يرى كما أن الهواء لا يرى :
— إلك صانع مصور لأعضائك بنفسك .

ومصور دون أن تصور ،
متقطع القرين فى صفات .
أنت خالق الكل وما معهم قوتهم ،
أنت الذى ترى ما خلقت ،
والسيد الأحد الذى يأخذ جميع الأراضي أسرى كل يوم .
بصفته واحدا يشاهد من يمشون عليها .

وراح بنو إسماعيل ينظرون إلى التماثيل الخميطة التى غص بها المعبد ، إنها ثمرة
الفن المصرى الذى أطلقوا عليه اسم الغسق المقدس ، إنها روحهم فقد كانت
روح مصر فى عقيدتها وقد ترجمت تلك العقيدة إلى تماثيل ، إنها لتزدهر كلما
اردهرت فلسفتها . وطامت بأدهانهم تلك الحجارة البركانية التى يطوفون بها
فى أوطانهم ، ولكن سرعان ما طردوا الخواطر التى راحت توازن بين
حجارتهم وتماثيل آلهة المصريين ، وراحوا يستغفرون الله ويعوذون به من
همزات الشياطين .

وانطلقت قافلة بنى إسماعيل إلى طيبة وكانت مدينة عمية عظيمة تخبئ
الألخاب وتسى العقول ، قصورها شائعة ومتربهاها منسقة تنسيقا بديعا
وبحيراتها الصاعية متشرة هنا وهناك ، والرجال والنساء يغدون ويروحون فى
أحداث الأرياء . كانت مدينة مترفة يتغنى بها الشعراء ويجوس التحار حلالها

يبيعون ما حلبوا من السلع ويشترون أجود ما تنتجه الصناعات المصرية .
واصطف الشعب على جانبي الطريق الذي يؤدي إلى الهيكل العظيم
بالكرنك ، فقد كان فرعون أمسحتب الثالث في طريقه إلى معبد آمون ، وكان
ولى عهده أمسحتب الرابع الذي سيعرف فيما بعد باسم إخناتون إلى جواره في
مركبته الملكية ، وكانت روجة فرعون الآسيوية وأم إخناتون ولى العهد في
عربة ملكية زينت بأجمل زينة .

كان إخناتون شابا صئيل الجسم كبير الرأس برر رأسه من الخلف برورا
كثيرا ، وقد عرست فيه أمه الآسيوية عقيدة التوحيد التي كانت لا تزال
منتشرة في قائل بنى إسماعيل وبني إسرائيل وعند بعض الموحدين في الممالك
السورية .

وبلغ الركب الملكي معبد الكرنك فراح إخناتون ينظر إلى العتبات
المقدسات الجالسات على جانبي الطريق في اشمثار . كان الكهنة يحدعون
الشعب ويومونه أن هؤلاء العاهرات إن هن إلا سراري لآمون ، ولكن
إخناتون ما كان يصدق ذلك الزعم فقد كان على يقين أنهم خليلات كهنة
آمون الذين يستعلون الدين لا بترار أموال السذج .

كان إخناتون شابا مستقيما وكان يرى في تعدد الآلهة كفرا ، فإبراهيم دعا
إلى التوحيد في مصر أيام الهكسوس ، وجاء يوسف من بعده ليدعو إلى الله
وحده ، ثم جاء موسى في أيام تحتمس الثالث يدعو إلى الله الواحد القهار وما
عهد موسى ببعيد ، فتغلطت دعوة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب
ويوسف والأسباط وموسى في إخناتون حتى النخاع .

ووقف بنو إسماعيل ينظرون ، ثم دخلوا معبد آمون في طيبة ورأوا صحابة
تمثيل الآلهة وطقوس رجال كهنة آمون الأثرياء وما تكدر في المذابح من
ثيران وأبقار وطيور وأسماك وعسل وبيض وخبز ، فعادت أفكارهم ترتبط بين

تمثال آلهة المصريين وبين الحجارة البركانية السوداء التي جاء بها آباؤهم من البيت المقدس والتي يطوفون بها آباء الليل وأطراف النهار .

ومصت أياه أمحبت الثالث واعتلى العرش آمون حنح الرابع ذلك الشاب النقي الذي اغتته أمه الآسيوية عقيدة التوحيد ، فاتخذ مستشاريه من الآسيويين ، وكان أول ما فعله أن غير اسمه من آمون حنح إلى آمون راضي إلى إحتاتون أي أتون راضي ، فقد عزم على أن يوحد الآلهة في إله واحد ، وقد رمز لذلك الإله بقرص الشمس « أتون » .

كان إحتاتون يمت آمون وكهنة آمون فرح بمحو اسم آمون أيما وجد في آثار طيبة ، ولما كان مؤمنا بأن لنعام كله إلهها واحد فقد راح بمحو أسماء الآلهة حيثما وحدها ، وراح يشرذم كهنة آمون ويصادر أموالهم التي تزوها من الشعب باسم آلهة ما أنزل الله بها من سلطان .

وبس إحتاتون لإنهية الحديد مدينة « إختاتون » لتكون عاصمة لملكه ، وراح الشعراء يطمعون قصائد تمجيد أتون ، وارتفعت الأصوات بالابتهالات لقرص الشمس رمز الإله الواحد :

ما أكثر أعمالك وأجلها !

إنها على الناس خافية .

يأتيا الإله الأحد ،

من لا يوجد معه إله آخر ،

نقد خلقت الأرض حسب مشيئتك ،

وحينا كنت وحيدا لا شيء إلا أنت ،

حنقت الناس وجميع الماشية والعزلا ،

وجميع ما على الأرض ،

مما يمشي على رجله ،

وما في عليين مما يطير بأجنحته ،
 وفي الأقطار العالية سورية ،
 وكوش وأرض مصر ،
 فأبلك تضع كل إنسان في موضعه ،
 وتمدهم بحاجاتهم ،
 وكل إنسان لديه رزقه ،
 وأيامه معدودة ،
 والألسنة في الكلام مختلفة ،
 وكذلك تختلف أشكالهم وألوانهم ،
 لأنك تخلق الأجانب مختلفين .

ولم يذكر إخناتون أوزير ومحكمته ولا أخته إيزيس ولا ابنه حور ، ولم يعترف برع ولا بتاح ولا بالآلهة الكثيرة التي عبدها المصريون ، كان يدعو إلى إله واحد كما دعا من قبله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى ، وقد قال هؤلاء الرسل : إن المؤمنين يحسون الله في قلوبهم ، وقال إخناتون لإلهه : إلك لا تزال في قلبي . ولكن دعوة إخناتون كانت ردة إذا قيس بملة إبراهيم ، فقد دعا إبراهيم ومن جاء بعده من دريته من الرسل إلى عبادة إله واحد فوق الطبيعة ، فجاء إخناتون وجسد الفكرة المجردة وورم إلى الله بقرص الشمس ، فكانت دعوته نكسة بين دعوات التوحيد التي سبقتها . ولم يخلد كهنة آمون للدعة بل راحوا يقاومون حركة إخناتون في ضراوة ويتموه بالمروق ، ويوسعون الأرض إذاعة أن هيئة مصر ضاعت في سورية ، وأن إمبراطورية تحتضن الثالث وأمنحتب الثالث قد أخذ طلبها يتقلص ، وأن الوهن دب في البلاد ، وراحوا يحرضون الخازين الحانقين على الثورة بعد أن كسدت تجارة بيع « فطائر الشعائر » التي كانت تقدم على

مذابح الآلهة بعد أن قوص الدين الحديد الآفة وشعائهم .

وراحوا ينفخون في نار حقد الصاع الدين كانوا يعيشون على صنع تماثيل إريس وأزريرس وهور وبتاح وأيس والآلهة الأخرى ، وأخذوا ينفخون السموم في صدور الكتاب الدين كانوا يحترفون كتابة الأدعية من كتاب الموتى ذلك الكتاب الذى لعه إخناتون ، وراحوا يزعجون بين سواد الشعب بتدكيرهم بأيام آمون المحبذة أيام أن أيدهم بنصره فطردوا الهكسوس وفتحوا ما فتحوا من بلاد أعدائهم .

وأمسى إخناتون غارقاً في بحر من التدمير ، وبديل كهنة آمون الأموال لشن الحرب على ذلك المارق الذى كان في أحياتون يتعمى بمجد إلهه ولا يمتشق الحسام في وجه من ثاروا عليه في سورية ، فقد كان داعية سلام يحلم بأن يدمع الناس في أحوة عالمية في ظل رب العالمين .

واشتدت الثورة على إخناتون وقاد الكهنة ثورة الشعب على الدين الجديد ، حتى إذا ما ذهب إخناتون وحاء بعده توت عنخ آتون أرغمه الكهنة على أن يمحوا اسم آتون من الوجود وأن يصبح اسمه توت عنخ آمون . فاستجاب لهم فعدت عادة آمون واشتد نفوذ كهنته وصار إخناتون محرم أحياتون .

وطوى الزمن عصر إخناتون وذهب حيل وحاء حيل حديد من بنى إسماعيل في تجارة قومهم . وكانوا من البط من نسل نابت بن إسماعيل ممن نزلوا حول البحر الميت يستخرجون الأسلفت وإن كانوا يرقبون فرصته ليستشروا في الأرض المحاورة ، فساحوا في أرض مصر ومدوا أبصارهم إلى تماثيل الآلهة فرأوها تماثيل دقيقة الصنع مميزة الملامح بها لمسات فية تستهوى الأنفذة وتسرى الناظرين . أين من هذه التماثيل الحجارة البركانية الخشنة التى يطوفون بها ؟ وما عاد بنو إسماعيل من مصر إلى أرض النبط حتى كانوا يحملون تماثيل امرأة

جميلة ، وسرعان ما عادت إلى أذهانهم أساطير العرب قبل أن يدعو إبراهيم إلى عبادة الله ، عبادة الإيل . كان العرب قبل أن يعرفوا التوحيد يعبدون الشمس والقمر والسجود في بابل وفي سبأ وفي اليمن ، وكانوا يؤمنون بأن القمر هو رب الأرباب وأن الشمس هي روحه وأم الآلهة ، وأن عشتار أو عشتري ابنتهما أو ابهما حسب اعتقاد كل قبيلة ، فلما جلب النبط تمثال امرأة عادوا إلى أساطير الأولين ، إلههم يعبدون « الإيل » رب الأرباب فليكن تمثال المرأة الذي جلبه روح الإيل كما كانت الشمس روحا للقمر ، وأطلقوا عليها الإيلات أى زوجة الإيل ، وصارت رمزا للشمس .

وعاد النبط من أبناء نابت بن إسماعيل إلى عبادة الكواكب كما كان يعدها العرب قبل أن يبعث الله حدهم الخليل هدى وبورا للعالمين ، وتطور الاسم من الإيلات إلى المليلات ثم اللات ، وذاعت عبادتها في قبائل بني إسماعيل الأخرى التي خرجت من مكة لتتفصح في الأرض ولتعمل على نشر دين الله ، وصارت اللات أشهر معبودات بني إسماعيل .

نسى نبي إسماعيل ما كانوا يدعون إليه من قبل وكانوا أول من غير دين الآباء : إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب بعد بني إسرائيل في مصر قبل أن يبعث الله إليهم موسى ليعيدهم إلى دين الله ، وشاعت فيهم بدعة جلب الأصنام من البلاد التي يطوفون بها للتجارة ، وحبوا الله أندادا بعد أن كانوا يعبدون الله وحده لا شريك له .

وجلب النبط من مصر فيما جلبوا تمثال إيريس ووضعوه في معابدهم وسجدوا له ، وأطلقوا عليه العزيزة وجعلوها رمزا للكوكب الصباح . ولما كان العرب يميلون إلى تفخيم آلهتهم فقد أطلقوا عليها العزى وجعلوها بنتا من بنات الله ، وسرعان ما انتشرت عبادة العزى في قبائل بني إسماعيل الممتدة من طور سنين إلى أرض البطح إلى دومة الجندل .

ولما كان مما يسر الرجال أن يحملوا تمثال النساء فقد حملوا تمثال امرأة وجاءوا به إلى أرض السط ، وقد كان من الميسور أن تصبح تلك المرأة بنتا من بنات الله فله البنات وهم البيوت ، ولكن عرف بنو إسماعيل من البلاد التي جابوها التي تعكف على عبادة الأصنام أن للموت إليها وللحط إليها ، فجعلوا تلك المرأة للحظ والمسايا ، وأطلق عليها التبط « منوتن » ، التي صارت فيما بعد ماة .

وصارت اللات والعزى ومناة من الأسرة الإلهية الفرانيق السعلی ، وصارت شفاعتهن ترنجی . أعرايم اللات والعزى . وماة الثالثة الأخرى . ألكم المذكور له الأشي . تلك إذا قسمة ضيرى . إن هي إلا أسماء سميتوها أنهم وآباؤكم ما أمرل الله بها من سلطان ، إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس .

اتخذ بنو إسرائيل العبرية — لغة الكنعانيين — لغة لهم ، وأقاموا في أورشليم خيمة الرب ووضعوا فيها التابوت فيه سكنة من ربهم وبقيّة مما ترك آل موسى وآل هارون .

وكان حلم بنى إسرائيل أن يقيموا مكان خيمة الرب بيتا مطهرا كذلك البيت العتيق الذى أقام قواعده إبراهيم وإسماعيل في وادى مكة ، ولكن الكنعانيين كانوا يشنون عليهم الحرب بين وقت وآخر ولم يتركوهم في سلام أبداً ، فقد كانت الأرض للكنعانيين وكان بنو إسرائيل وافدين يريدون أن يشتبوا سلطانهم في فلسطين .

ولما طال على بنى إسرائيل الأمد وقست قلوبهم نسوا الله الواحد القهار وعبدوا ما يعبد الكنعانيون ، عدوا بعلا وعشتارا وآلهة الوثنيين الأخرى وغرقت خيمة الرب في الدنس ، فقد اتخذ الكاهن على خدمة الخيمة تجارة لحمع الأموال ، ووقف أبناؤه يبايل لتحصيل اللذات ، فكابوا بترصدون الفتيات الإسرائيليات الحميلات ليصاجعهن قبل الدحول للعبادة والاستغفار ، وكان على يعلم مما يأتيه أبناؤه فلا يزرهم ولا ينههم فقد نفشت الفاحشة في بنى إسرائيل تفشيها في معابد عشتار .

وكان يعيش في تلك الخيمة شمویل ذلك الغلام الهابط من نسل النوة ، وقد وهب حياته لعبادة الله فكان يدعوهم بقلب سليم ، ولولا ذلك الغلام المبارك لأنزل الله غضبه على الخيمة الفارقة في الدنس والمسكرات .

وفي ذات ليلة دخل شمویل لينام إلى جنب الشيخ على ، وفيما هو عارق

في نومه بلغ سمعه صوت أشبه بصوت الشيخ يدعوه :

— شمويل .. شمويل .

فهب الغلام فرعا إلى الشيخ فقال :

— يا أبتاه دعوتني ؟

فغظر الشيخ إلى الغلام في إنكار ثم قال له :

— يا بني ارجع فثم .

فرجع شمويل فنام وإذا بصوت أشبه بصوت الشيخ يدعوه :

— شمويل .. شمويل .

فهب الغلام فرعا إلى الشيخ فقال :

— يا أبتاه دعوتني ؟

فقال له الشيخ وهو نائم :

— ارجع فثم فإن دعوتك الثالثة فلا تجبى .

فرجع شمويل وما إن داعبه النوم حتى سمع صوتا أشبه بصوت الشيخ

يدعوه :

— شمويل .. شمويل . قم !

فقام ونظر وهو يعجب ، كانت الخيمة غارقة في نور يده القلب ويريح

النفس ويجعل الروح تهيم لتسبح في ذلك النور الذي يملأ الخواص بالسكينة

والأمن ، وإذا بوحى يلقي إليه :

— اذهب إلى قومك فبمعهم رسالة ربك ، فإن الله قد بعثك فيهم نبيا .

وأوحى الله إليه ما أوحى ، وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء

حجاب .

وفي الصباح قال عالي لشمويل :

— ماذا حدث البارحة ؟

فقال شمويل :

— أوحى إلى أن الله سيزل غضبه عليك وعلى بيتك حراء سكونك على ما يفعله أناؤك من المنكرات .

فأطرق الشيخ مليا ثم قال :

— أتوب إلى الله وأقرب له قربانا .

— لن يقبل منك .

فقال على في استسلام :

— هو الله يفعل ما يشاء .

وصار شمويل نبيا لى إسرائيل يدعوهم إلى عبادة الله وحده وهدم السيثات ، فكانوا يصغون إلى دعوته ويعجبون ، فهو يتكلم كما كان يتكلم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى ، ولكهم ما كانوا يعمنون بما يقول فقد أعرتهم الدنيا وصاروا عبيد البدن .

وتأهب الكنعانيون أهل فلسطين لقتال بنى إسرائيل ، وتأهب بنو إسرائيل لقتالهم ودارت الحرب بين الفريقين ، فانهزم بنو إسرائيل وقتل منهم حق كثير ، فاجتمع شيوخهم يفكرون فيما حاق بهم فأرجعوا سب تحلى الله عنهم إلى أنهم خرجوا للقاء أعدائهم دون أن يأخذوا معهم التابوت المبارك الذى وضعوا فيه بعض الألواح المقدسة التى نزلت على موسى ، وبقيّة مما ترك آل موسى وآل هارون .

إنهم ما جاعوا أعداءهم ومعهم التابوت إلا أيدهم الله نصر من عنده ، فبعثوا الرجال ليحضروهم ليبدل خوفهم أما ويقلب الهزيمة نصرا ، وما إن رأوا التابوت حتى دبت الحماسة فى صدورهم فهتفوا مستبشرين ، فتجاوب المناف فى أرجاء المكان وصلك آذان الكنعانيين فأشاع الخوف فدهم وهرل الرعب فى قلوبهم لما علموا أن بنى إسرائيل أحضروا التابوت الذى به

ينتصرون .

وقام رجل من الكنعانيين يحمسه ويحضهم على القتال فقال :
— يا قوم لقد جاءكم أعداؤكم بالهزم لقتالكم ، فإذا أصابكم الوهن
فستهرمون وتصبحون عبيدا لبي إسرائيل بعد أن كانوا عبيدا لكم ، فحاربوا
عن سائلكم وأبائكم وأعراضكم .

وهجم الكنعانيون على الأعداء وقد كثروا عن أنيابهم فهر بنو إسرائيل
ممروعين ، فقد كانت قلوبهم حواء وما كانت هتافاتهم المدوية للثابوت إلا
صيحات حواء أطلقتها الحناجر لتذهب في الهواء . وما البصر إلا من عند الله
العزیز الحكيم .

وتساقط سو إسرائيل قتلى تحت سيوف الكنعانيين ونجا بجلده من أطلق
ساقبه للريح ، وسقط الثابوت عبيدة باردة في أيدي الأعداء ، واستمر الهاربون
في جريهم حتى ابتعدوا عن ميدان الطعن والرمال .

ودخل رجل المدينة ممزق الثياب يحنو على رأسه الشراب وفي وجهه هلع
واضطراب ، فاجفل الناس إليه يسألونه :

— ماذا وراءك ؟

فقال وهو يتنمت كأنما يعدو حلقه مارد جبار :

— الهزيمة والانكسار .

فارتجت المدينة بالصياح وبلغت الأصوات مسماع عالي فقال :

— ماذا جرى ؟

— هزمتنا هزيمة منكرة .

— وماذا فعل الناس ؟

— قتل منهم الآلاف .

— وأبناي ؟

— قتلوا جميعا .

— والتابوت ؟

— أخذه الأعداء .

وبان في وجه الشيخ القهر الشديد وعلاه عبوس ومال إلى الوراء في ضيق موقع على رأسه ودقت عقه أمام حيمة الرب التي حلت من التابوت ، وفي نفس المكان الذي كان يضطجع فيه أبناؤه مع فتيات إسرائيل الجميلات الوافدات للعبادة والاستغفار !

ومرت السنون وشمويل يدعو بني إسرائيل إلى الله ، وفي ذات يوم جمعهم وقال لهم :

— توبوا إلى الله وأخلصوا له وانزعوا من عبادة بعل وعشتار والآلهة الأخرى التي لا تملك لكم نفعا ولا ضرا ، واعبدوه وحده يخلصكم من أعدائكم ويصركم عليهم . إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي يصركم من بعده ؟ وعلى الله فليتوكل المؤمنون .

فقالوا له :

— تبنا إلى الله وأنبنا .

فأمرهم أن يصوموا ذلك اليوم تطهيرا لأنفسهم وتقربا إلى الله ليؤيدهم بنصر من عنده ، ونشب القتال بين بني إسرائيل وبين الكنعانيين أهل فلسطين فانتصر بنو إسرائيل بعد أن طهرهم شمويل من رجسهم وبث فيهم روح التضحية والإقدام ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض فدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرون الله من يصره ، إن الله لقوى عزيز .

وأمسى شمويل شيخا واجتمع شيوخ بني إسرائيل به وقالوا له :

— يا شمويل أصبحت شيخا وقد جشاك لتدعو ربك ليجعل علينا ملكا

يحكما ويجمعنا حوله ككل شعوب الأرض ، ويقودنا لقاتل في سبيل الله .
فقال لهم شمويل :

— إن ذهبت تركتكم لله وهو خير راع لكم .

— يا نبي الله إنا نعلم ذلك ، ولكننا نريد ملكا يلم شملنا وملتف حوله .
فقال لهم شمويل ليردهم عن رأيهم :

— أتعلمون ماذا يفعل الملك فيكم ؟ يأخذ أبناءكم ليركصوا أمام مراكه ،
ويجعل لنفسه آلاف الخدم والعبيد ليحرثوا أرضه ويحصدوا حصاده ، ويأخذ
بساتكم سراري وحطايا ، ويستولي على أجود أراضيكم يمنحها عبيده ،
ويسحر عبيدكم وجواريكم ليعملوا في أرضه ، وستصبحون جميعا عبيدا له ،
وستضرعون إلى الله أن يخلصكم منه ويومها لن يسمع الله دعاءكم .

— يا نبي الله إنا نعلم كل ذلك ونقبله ، فكل ما نبعيه أن يكون علينا ملك
يجمع كمتنا ويقودنا لقاتل أعدائنا الذين أدلوا .

فقال لهم شمويل :

— هل عسيه إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ؟

فقالوا :

— وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبائنا .

وراح شمويل يصلي لله ، للإيل الذي نسب إليه كما نسب إليه من قبل
إسماعيل وإسرائيل ، وحر ساجدا يدعوهم أن يحجب رعبه قومه . وفيما هو في
سجوده أوحى الله إليه أنه سيجعل طالوت ملكا عليهم ، فخرج شمويل إلى
قومه وقال :

— يا قوم إن الله استجاب لدعائنا وسيبعث ملكا .

فقالوا له في لهفة :

— من هو ؟

— طالوت .

— طالوت ١٩

وانبعثت من القوم أصوات استنكار ، فقد كان طالوت رجلا فقيرا وقد صار جنو إسرائيل عبيد المال ، قالوا :

— أئى يكون له الحك عليا ونحن أحق بالملك منه ، ولم يؤت سعة من

المال ؟

فقال شمویل :

— إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والحكم ، والله يؤت ملكه

من يشاء والله واسع عليم .

— وما أدرا ما أن الله اختار طالوت ليكون ملكا عليا ؟

— إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل

موسى وآل هارون تحمله الملائكة . إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين .

وتحققت آية الله فإذا بهم يجدون التابوت أمامهم ، ففرحوا وهتفوا بحياة

أول ملك في إسرائيل .

وجمع طالوت بنى إسرائيل حوله وراح بقودهم من نصر إلى نصر ،

ودارت معارك بينه وبين العماليق فقد كان العرب يعيرون على مملكة إسرائيل

بعد أن بعدت الشقة بين أبناء إسماعيل وأبناء إسحاق ويعقوب ، وبعد أن عيد

حملة النسخة الروحية العظيمة الأوثان في قبائل أبناء نابت وقيدار ودوما ومسا

واخوانهم وفي أرض إسرائيل .

وفي ذات يوم دخل شمویل على طالوت فألفاه شائخا متكبرا قد عره الملك

فراح يحاكى الملوك في تكبرهم ، فقال له شمویل :

— أصبحت ملك إسرائيل يوم كنت متواضعا في نفسك ، فما الذى عرك

لتعصى أوامر الله ؟

فقال طالوت :

— سأنتصرع إلى الله أن يغفر لي خطيأتي .

وأراد شمويل أن يصرف فأمسك طالوت بيديه فتمرق ، فقال
شمويل :

— يمزق الله مملكة بني إسرائيل عنك .

— قد أخطأت . والآن فأكرمني أمام شيوخ شعبي وأمام الله وأرجع معي
وسوف أسجد لله أو أدعوه إن يغفر ذنبي .

وسجد شمويل وطالوت لله ملتصقين غمراهما ، وبعد أن تمت الصلاة دخل
طالوت قصره وكلمات شمويل ترن في أذنيه : « يمزق الله مملكة بني إسرائيل
عنك » فأحس انقباضا ، فماذا لو استجاب الله دعاءه بيه ؟ إنه كان فقيرا
فأكرمه الله فصار مكيًا وقد ألفت عيشة الملوك ، وإيه لما يحز في نفسه أن تزول
عنه أبهة الملك والسلطان .

وظل طالوت قلقا حريبا ، فلما دخل عليه علمانه أنكروه وقالوا :

— روح عن نفسك يا مولانا .

— إن الأفكار السود تعث في .

— ابعث إلى رجل يحسن الضرب على العود يبدد من حولك هذه الكآبة .

فقال أحد الغلمان :

— إني أعرف عالما يرعى الغنم ويحسن الضرب على العود ، إذا غنى

أصغى الكون وخشعت القلوب ، فصوته عذب لا يحاكيه صوت في
الوجود .

فقال طالوت :

— عني بهذا الغلام .

فحرح العبيد يبحثون عن داود حتى إذا عثروا عليه عادوا به إلى الملك ،

وراح طالوت ينظر إليه فارتاح إلى مظهره ، كان أشقر جميلا وكانت عيناه زرقاوين وفي وجهه صفاء يعكس صفاء نفسه ، وكان قصيرا بيد أنه لم يكن قميئا .

وأخذ داود يضرب على العود ، وما انتعث الأنغام حتى أحس طالوت كأعما السحر يسرى في الهواء ، وشعر بالضيق يخلو عن صدره وبالنشوة تمشي في أوصاله . إنها نشوة من تهم روحه لتتصل بروح الروح وتضيء جوانحه بسور النور . وارتفع صوت داود العذب الحنون يمجّد الله ، ولا عرو فقد كان داود سيطرا من الأسباط ، كان من نسل يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن :

— يا رب ما أعظم اسمك في الأرض !

ويا لروعة جلالك فوق السماء !

الأطفال والرضع يسبحون بحمدك .

وطيور السماء تقدس لك .

والقمر والنجوم صنع بميتك .

يا رب ! ما أعمد اسمك في الأرض !

وأحس طالوت تواضعا بعشاء فخر ساجدا لله وقد غشيت راحة وطمانينة وأمن .

وكان على بنى إسرائيل أن يتأهبوا للقتال فجاء طالوت وقال لهم :

— إن الله مبتليكم بنهر ، فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني ، إلا من اغترف غرفة بيده .

إن الله مبتليهم بهر ليعرف قائدهم المطيعين ممن لا يضعفون إلى الأوامر ولا

يعترفون بالنظام ، فلا خير في جيش يعصى فيه الجنود أوامر قائدهم ولا

يحترمون النظام ، فالنظام سند الروح المعنوية وسبيل النصر وإعلاء كلمة الله .

وخرج إخوة داود مع الجيش وبقي داود يرعى غنم أبيه ويقلب وجهه في ملكوت السموات والأرض فتفتح آيات الله بصوته وترهف نغمه وتطلق روحه رهافة مححة في رحاب خالق الكون وواهب الحياة . إن في السموات والأرض آيات للمؤمنين ، وفي خلقكم وما يث من دابة آيات لقوم يوقنون . واحتلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من ررر فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون .

وسار جيش سى إسرائيل حتى إذا وصلوا إلى النهر راح الرجال يشربون منه وعصوا أمر طالوت إلا قليلا منهم ، فأمر طالوت من عصوه أن يغمسوا أرجلهم فلا حير في جنود لا يطيعون ما يصدر إليهم من أوامر دون تفكير .

وعبر طالوت والذين معه النهر وانطلقوا حتى أصبحوا أمام جيش جالوت حاكم الكنعانيين ، فلما رأوا جيش جالوت الخرار مشى الرعب في أوصافهم فقالوا :

— لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده .

فقال الحمود الذين يظنون أنهم ملاقوا الله :

— كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين .

وأصبح جيش طالوت أمام جيش جالوت وحها لوجه ، فدعا المؤمنون ربهم قالوا :

— ربنا أفرع علينا صبرا وثبت أقدامنا وأصبرنا على القوم الكافرين .

وبدأت الماوشات بين الحيشين فكان الرجال يفرحون للرجال يتحالدون ويتبارزون ، وخرج من بين الصموف جالوت وكان طويلا جدا في وجهه صرامة يبعث مظهره الرعب في القلوب ويزلزل الأرض تحت أقدام الأبطال الصناديد .

ووقف يتألق في رهو تحت أشعة الشمس وكان على رأسه حوزة من نحاس

تتألق فتنبعث منها أشعة تشيع في صفوف بني إسرائيل رعباً شديداً . وكان يحيل لبني إسرائيل أن درعه النحاسية حصص مبيع ، وكان في يده رمح هائل تتراءى على سنانة المون ، وصاح في صوت يقصف كالرعد .

— يا طالوت لم يقتل قومي قومك ؟ أخرج لقتالي أو أخرج لي من شئت من جنودك ، فإن قتلتك كان الملك لي وإن قتلتني كان الملك لك .

وساد في ميدان القتال سكون رهيب ولف الخوف معسكر بني إسرائيل ، فما كان أحد منهم يجرؤ على أن يفكر في التقدم لقتال ذلك الخمار الرهيب ، وصاح طالوت في جنوده :

— من يخرج لقتال جالوت ؟

فلم يخرج أحد فما كان أحد ليرمي نفسه في أحضان الموت عن طواعية . وتقدم جالوت صوب صفوف بني إسرائيل فتأخروا مرعوبين فضحك جالوت وجلجلت ضحكاته لتنزل الرعب في قلوبهم ، فانبعثت الهتافات من صفوف جنوده وتطايرت عبارات الزرابة والاستحفاف بمن يرعمون أنهم جنود رب السموات والأرض .

ومرت الأيام وجالوت يبرر كل يوم بين الصفوف يدعو الرجال للنزاع فلا يجرؤ أحد على أن يخرج له . فحز ذلك في نفس طالوت ، وأراد أن يشجع الرجال على الخروج لقتال ذلك الطاغية الذي يسخر منهم كل يوم ، فصاح في جنوده .

— من يقتل جالوت كرمته وزوجته ابنتي وجعلت بيت أبيه حراً في إسرائيل .

فلم يفر ذلك الوعد أحداً من بني إسرائيل فقد كانوا على يقين من أن من يخرج لقتال جالوت يزف إلى الموت قبل أن يرف إلى ابنة طالوت . وانقصت أربعون يوماً والحرب دائرة وجالوت يخرج كل يوم بين

الصفوف يتألق في الشمس ، ويصيح بالرجال الصناديد أن يخرجوا لقتاله فلا يخرج أحد على الخروج ، فكان يسخرهم وكانت سحرته مريرة تحز في نفس ملكهم طالوت .

وفي ذات يوم ترك داود عمه وذهب ليرى إخوته المخاربين ويقدم لهم الطعام ، فبلغ ساحة القتال فوجد الحيشين اصطفا للنزال وخرج جالوت بين الصفوف وراح يصيح في زرية واعتداد :
— أما من أحد يريد أن يقاتلني ؟

فانكمش به إسرائيل ولم يتقدم منهم أحد ، فأحس داود دماؤه تثور في عروقه وتتدفق حارة إلى رأسه ، فما بال هؤلاء الرجال يحجمون عن قتال ذلك الرجل ؟ وغضب داود لله فقد رأى المؤمنين يحافون رأس الكفر ولا ينجسونه من الله الذي يحاربون في سبيله ، فاطلق داود بين الصفوف كهاصفة مزحمة غاضبة وصاح :
— أنا أقاتلك .

فهرع إخوة داود إليه وصاحوا به :

— أجمنون أنت ؟ إنه جالوت .

فقال داود في إيمان :

— إن من هو أقوى من جالوت يؤيدني .

— عد إلى غمك يا داود إنك تقدم على الانتحار .

وتقدم طالوت منه وقال له :

— إنك غلام وهو رجل حرب .

— دعني يا مولاي أقتله إن الله معي .

ونكس طالوت داود ثيابه وحمل على رأسه حودة من نحاس ، وألبسه درعا

وقلده سيفا وقال له :

— اذهب والله يرعاك .

وهم داود بالسير ولكنه لم يقدر ، فزرعها عن نفسه وقال لطالوت :
— إني أجيء استعمال المقلاع فما صوبته إلى شيء إلا أصبته .

وتقدم داود ولم يكن في يده إلا هراوة ومقلاع ، وتقدم جالوت وفي يده
حرابته التي طالما انتصر بها على أعدائه وكان رأسها يزن ستمائة شاقل من
الحديد ، وقد غطى جسمه بالزرد الكامل من خوذة ودرع خفيف ودرع
صغير ودرعى الساقين وقد امتلأ عرورا ، فما يحسب أن هاك سلاحا في أيدي
أعدائه من بني إسرائيل بقادر على أن ينفذ إليه .

ونظر جالوت إلى داود الذي تقدم لقتاله دون درع وقال له :

— يا فتى ارجع فإنى لا أريد أن أقتلك .

فقال داود في حزم :

— لا ، بل أنا مصمم على أن أقتلك .

ضحك جالوت في سخرية ولكن سرعان ما ماتت سحرته فقد ألقى الله
في قلبه الرعب من ذلك العتي الأعزل ، وأخذ الريب جالوت كل مأخذ
وصاح :

— هل أنا كلب حتى تأتي إلى هراوة ؟

أنكون استهانة ذلك الفتى خطة محكمة ؟ ترى ماذا يكمن في جراب
الراعى الشاب ؟ أملك سلاحا سريا يفوق حربته ودرعه ؟ فالفور معقود لم
يملك أحدث سلاح . كان سلاح جالوت أمضى سلاح حتى هذه الساعة
وقد حقق له ذلك السلاح كل نصر . ترى أيصمد ذلك الفتى الأعزل الذي
لا يملك إلا هراوته لضربة من رأس حربته الذي يزن ستمائة شاقل من
الحديد ؟!

وساد المسكرين هدوء واشربت الأعناق وشخصت الأبصار ، وسار

جالوت إلى داود الأعزل ليضربه صربة تقصى عليه فأخرج داود من جرابه حجرا ووضعه في مقلاعه . ثم أدار داود المقلاع وأرسل الحجر فأصاب به عين جالوت فسقط فحلب داود إليه وقعد على صدره وحر رأسه فاسعنت أصوات الهلع من صفوف الفلسطينيين وأصوات التهليل من صفوف بني إسرائيل .

قتل داود جالوت فرلزل ذلك قلوب الكنعانيين فما دار يحدوهم أن علاما يحدن ملكهم الحار العتيد ، وبعت ذلك الحماسة في صدور بني إسرائيل فشددوا على أعدائهم الكبر وأعملوا فيه القتل حتى فروا من أمامهم مهرومين .

وعاد طالوت مستصرا فخرج بنو إسرائيل لاستقباله ، وراحت الإسرائيليات يرقصن ويعين فرحات مستبشرات بنصر الله وأخذن يشدن أن الملك صرب أعداءه وأن داود استحق أن يتروح ربوات إله الملك العظيم . فاستشعر صالوت بعض الكدر فما كان داود إلا راعيا يرعى الغنم لا ينيق أن يباهر الملك ، وبسى طالوت أنه كان سقاء قبل أن يختاره الله ملكا لبني إسرائيل .

كان داود متواضعا في نفسه عظيما عبد الله فلم يلتمس أن ينعمه ذلك وعده ويروحه استه ، فما خرج لقتال جالوت طمعا في ربوات ولكنه تقدم فقتله إرضاء لإله إسرائيل .

وعين طالوت داود قائدا لخيوشه فكان لا يخرج إلى غزوة ولا عاد منها مستصرا ، واشتهر داود وعلا ذكره ولكن لم يملكه العزور ، كان يصلى لله ويصوم ويعتكف أياما ليتصد ، فقد كان يريد أن يكون عبد الله كآبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب .

وأحب الشعب داود ورأى ملك أن يباهره فبعث إليه من يقول له :

— إن الملك يوافق على أن يعطيك ابنته ميراث لو طبتها روجة لك .
فقال داود في صدق :

— ومن أنا حتى أصاهر الملك ؟

وتزوجت ابنة الملك الكبرى من رجل آخر ، واستمر داود في عرواته ،
وكان دحوله وحروجه أمام الشعب فأصبح محط آمال بني إسرائيل . وشغفت
ميكال ابنة الملك به حبا فأرسلت إلى أبيها من يذكر له أن ميكال ابنة تهي
داود ولا تطيق العيش بعيدة عنه فبعث طالوت إليه الرسل يقولون له :
— إن الملك يحبك ويقدرك وهو يرى أن يزوجك ابنته ميكال إظهارا
لإعجابه بك ومكافأة لك على الوفاء والإخلاص .

فقال داود :

— ومن أنا حتى أصاهر الملك ؟

— أنت قائده انظمر من يسير النصر في ركابه ، أنت طالع السعد في
مملكته .

— إني رجل فقير ونيس من الهين على رجل مثلي أن يصاهر الملوك

— أنت رجل حرب قدير وممثلك توطد العروش .

واستمر الرسل في إقناع داود بقبول الزواج من ميكال التي تحبه حتى
اقتنع ، وتم الزواج ففرحت ابنة الملك العاشقة ، وراد داود بتلك المصاهرة
عديرا ورفعة في أعين بني إسرائيل .

وراد حب الشعب لداود وتعبق به كل من في القصر حتى أهل بيت
الملك ، فأحسن طالوت عبدة وراحت تلك العبدة ترداد على الأيام حتى فكر
في قتل داود .

وفي ذات يوم أقصى إلى يوناثان ابنه وولى عهده أنه سيقتل داود لينهي على
الملك في أسرته فقد أصبح داود خطرا على العرش ، فقلوب الشعب تلتف

حواله والرمس حليفه فإذا ترك حيا قلن يحول بيته وبين الملك حائل .
كان يونانان يحب داود وكان يؤمن بصلاحه وتقواه فهرع إليه وقال له :
— أئني ينتمس الليلة قتلك فاهرب من وجهه إلى الخلاء واحتبئ ، حتى إذا
ما أصبح الصباح خرجت أنا وأئني إلى قرب محبتك وتحدثنا عنك فتسمع ما
يلور يسا من حديث .

وهرب داود من وجه طالوت ، فلما جاء الصباح خرج طالوت وابنه
وأقلا حتى وقفا بالقرب من نخب داود وقال يونانان :

— ليت مولاي الملك لا يخطئ في حق عبده داود ، فداود لم يخطئ في
حقك فهو يبذل مصارى جهده إرضاء لك . لقد شهر نفسه سيفا في يدك على
أعدائك وأنزل بهم الهزائم وأنت لا ترصى أن تريق دما بريئا . تذكر أن الرب
الذى احتارك ملكا على هذا الشعب يرقب أعمالك ويعرف ما تخفيه في صدرك .
فأطرق طالوت قليلا وقد أحس بدما على ما فكر فيه فقال :
— أقسم ألا أمد يدي إلى داود بأدى ما حيت .

وعاد طالوت وانه إلى القصر يتسامران ، وخرج داود من مكعبه وانطلق
إلى الملك فقابلته الملك باشا مرحيا .

وخرج داود لقتال الكنعانيين فضرهم وانتصر عليهم وعاد إلى بني إسرائيل
مظفرا فاستقبلوه استقبالا فحما رائعا ، وبلغت مسامع طالوت هتافات
الحماهير فتحركت العيرة في صدره وراحت تعديه وتقصيه

وجلس داود يوما إلى الملك يشحبه بصوته اخون ، كان داود يمجده الله
واندموع نسيل على خديه فقد كان يرتجف من خشية الله . وادكر عبدا داود
دا الأيد إنه أواب . إنا سحرنا الجمال معه يسبحر بالعشي والإشراق . والطير
محشورة كل له أواب .

لم يكن طالوت يصع إلى الصوت العجيب الذى ينفث السحر بل كان

يصغى إلى شيطانه الذى يوسوس له أن يقتل من سلبه حب شعله ، فرفع الرمح وطعن به داود ولكنه أخطأه ، فنهض داود وهر من وجهه .

وهرب داود إلى بيته وذهب إلى ميكال يقص عليها خبره ، فقالت له :
— إني أعرف أئى ، اهرب بنفسك الليلة لأنه سيبحث في أثرك من يقتلك .
وهم داود بالخروج فقالت له ميكال :

— لا تخرج من الباب فعيده أئى يرصدونك ويرقبون خروجك ليقتنوك ،
تعال .

وساعدته على الخروج من فتحة في الحائط فاطلق هاربا من الموت الذى
يربص عند الباب .

ووضعت ميكال في فراش زوجها تمثالا وغطته بغطائه لتخدع الرجال
الواقفين بالباب يترصدون داود .

وأرسلت الشمس أشعتها الأولى فسمعت ميكال طرقا على الباب فذهبت
لتجد عبيد أبيها ، فلما انفرج الباب قالت للرسل الذين بحث بهم الملك :
— ماذا تبغون ؟

— مولانا يطلب داود .

— إن زوجى مريض .

وعاد الرسل إلى الملك فأمرهم أن يأتوا إليه بـداود من فراشه ، وقفل الرسل
عائدين وما دخلوا حجرة داود حتى وجدوا التمثال في استقبالهم .

واشتد غضب طالوت وصاح بابهته :

— لماذا أطلقت عدوى حتى فر من يدي ؟

فانبرت الزوجة المحبة تدافع عن زوجها ، ولكن دعاعها لم يذهب الغضب
عن الملك فبعث رسله ينقبون عن داود .

وحاء إليه رسله يخبرونه مكانه فخرج إليه في حنوده ، وما إن وصل إلى

حيث كان حتى وقف ببطر لا يجرؤ على أن يتقدم خطوة واحدة . فقد كان داود والبي شمویل یصلیان فی خشوع وقد عمر المكان نور إلهی وطافت به نفحات ربانية تملأ القلوب رقة ومحبة وإيمانا وتسليما . وأحس طالوت كأَن فیض البور قد غسل فؤاده مما فيه من حقد فتقدم إلى حيث كان شمویل وداود وهو مسحور ، وفي مثل لمح البصر تذكر بعمة الله عليه إذ جعله منكاً على شعبه بعد أن كان سقاء محلج ثيابه وحر ساجدا لله رب العالمين یصلی له ويدعوه في ذلة وانكسار .

وسرعان ما عاد طالوت إلى ما كان فيه وعاد إلى حقه على داود وراح یتمس الفرص لقتله ، وقابل داود يوثاناً ولی العهد وقال :

— ماذا جئت حتى یتمس أبوك طلبی ؟

— ساعلك الله إن أئی قد عفا عنك .

— إني أحس النسر یحيط بی من كل مكان .

— إن أئی لا یعمل شیئاً إلا أخبرنی به ، فلو كان بنوی قنك لحدثنی عن

ذلك .

— لقد علم أبوك حلك لی فأخفی عنك عزمه .

— وماذا ترى ؟

— غداً أول الشهر وعلی أن أشارك الملك في مجلسه في الولیمة التي یعدها

كل شهر ، ولكی أرى أن أتخلف عن هذه الولیمة ، فإذا سأل أبوك عني فقل

له إن داود استأذنني في الذهاب إلى بیت لحم ليقدم قرباناً إلى الرب ، فإذا قال

الملك : « حساً » كان ذلك دلیل الرضا والسلام ، أما إذا عصب وثار كان

ذلك آية على ما یضمر لی من شر .

واتفقا على أن یحتس داود حتى یكتشف یوثاناً حبیبة نفس أبیه ویغیره مما

یضمر له ، فقال داود لصديقه :

— أحشى إذا حثت إلى أن يبعث الملك رحاله في أثرك يتعقونك ليهتدوا إلى مكاني .

— فماذا نفعل ؟

— والله لا أدري .

— أخرج مع غلام من علماني فإذا كان الملك راضيا عنك فسأرمي سهامى وأمر الغلام أن يلتقط السهام القريبة منه ، أما إذا كان الملك حاقدا عليك فأمر علمانى أن يلتقط السهام البعيدة عنه .

وانطلق داود يختبئ وذهب يوناثان التقى إلى القصر . وواى ميعاد الوجبة فجلس الملك في صدرها وجلس كل واحد في مكانه وبقي مقعد داود حاليا ومر اليوم الأول ولم يقل الملك شيئا . وجاء اليوم الثانى وجلس كل في مكانه وبقي مقعد داود حاليا فقال الملك :

— أين داود ؟ عاب اليوم وعاب أمس .

فقال يوناثان :

— اتهمس داود منى أن أسمح له بالذهاب إلى بيت لحم ليقدم إلى الرب قربانا ، وسألتنى أن يذهب ليرى إخوته فأذنت له .

فغضب طالوت غضبا شديدا وصاح بابه :

— يا أحمق ألا ترى أنه ما دام داود يمشى على وجه الأرض فليس تترجع يوما على عرشك . ابعث من يأتى به لأقتله .

— كيف تقتله ولم يفعل ما يوجب القتل ؟ حرام أن تهدر دما بريئا !

— إني أقتله من أجلك .

— لا أرضى أن تسفك الدماء باسمى .

— عزيز على أن أرى الملك يفلت من بين أصابعك وأنا أنظر لا أفعل شيئا .

— أين ذهبت حكمتك ؟! أسيت أن الله يعطى الملك من يشاء ؟!

— حكمتي تهبب لي أن أقتله ، إذا تربع على العرش فس يتركك قد —
الأرض يوما . سبقتك ويقتل أسرتك جميعا . فما كان الملك حديد أن يترك
أحدا دون دبح من أسرة من سقه ، إن سأقتله لأحييكم جميعا .
فقال يوناثان وهو يغادر المكان :
— لن أسمع بذلك ما دام في عرق يهضر .
وانقضت الليلة وبرعت الشمس تشر أشعتها على الكون ونخرج يوناثان
يحمل قوسه وسهامه ومعه علام صغير ، وما إن بلغ مكان اختفاء داود حتى تناول
القوس ووضع فيه السهام وأطلقها بعيدا وصاح بعلامه :
— التقط السهام التي تحاورتك ، أسرع ، اركض ، لا تقف .
وفهمها داود فخرج على حذر وانطلق وهو يترقب فإذ ملك حاقدا عليه يريد
اعتياله . لقد أصبح طريد القايون فراح يحث الخطا هاربا بحياته .

أصبح داود طريد القانون ، إنه عرضة للمقبض عليه وتعيد القتل فيه في أية لحظة ، ومن يبدى له الصداقة يعرض نفسه للمهالك . واستمر في فراره حتى وصل إلى نوب مدينة الكهان ودخل على أخيك الكاهن ، فاضطرب الكاهن لما رأى داود دخل عليه وحيدا فما اعتاد أن يراه إلا في جنده وأهنته ، وأوجس حيفة فقال له في ريب :

— لماذا أنت وحدك ؟

فقال داود في همس كأنما يفيض إلى الكاهن بسر :

— أمرني الملك أمرا وأوصاني ألا أعلم به أحد ، لذلك خرجت وحدي حتى لا يعطن أحد إلى خروجي .

وتلفت داود ثم قال :

— أيمكنك أن تمدني بطعام ؟

— ليس عندي إلا الخبز المقدس .

وقدم له الخبز فلما تناوله منه قال :

— أيمكنك أن تمدني بسلاح لأنني خرجت على عجل دون سيف أو رمح ؟

فقال كاهن نوب :

— ليس عندي إلا سيف حالوت الذي قتلته ، فإن رأيت أن تأخذه

فحده .

— على به ، إنه سيف بتار .

وخرج داود لينضم إلى أهله وما در أن أحد خدام طالوت كان في المعد

يسترق السمع ويعد عليه حر كانه وسكاته .

وتقاطر الرجال على داود حتى اشتد ساعده واحتفى بالخيال ، فلما بلغ طائوت خروج الرجال إلى غريمه وقف في رحاله وقال لهم :
— ما لقلوبكم قد تعيرت على ؟ وما بالكم تحفون عني أن ابني قد تعاقد مع داود ؟ وما بال أخذتكم قد تحجرت ؟ أيمنحكم داود جميعا حقولا وكروما ويصحبكم رؤساء على الجند ؟ ماذا فعل لكم داود حتى أصحبت قلوبكم معه ؟

فتقدم الخادم الذي رآه في المعبد وقال في هدوء :

— رأيت داود في بوب يتحدث مع أحيالك ، وقد أعطاه الكاهن مئونة وسيف جالوت .

فبعث الملك من يحضر له أحيالك وجميع أهل بيته ، فلما مثلوا أمامه قال الملك للكاهن في غضب :

— ما الذي جعلك تتآمر على وتتحالف مع عدوى ؟

— حاشاي أن أفعل ذلك يا مولاي .

— مسح داود طعاما وأعطيته سيفا ونمحته ببركاتك .

— إني أعرف داود أكثر رعاياك إخلاصا لك ! إنه روح ابنتك .

— إنه عدوى .

— ما كنت أعرف يا مولاي شيئا من ذلك .

ولم يصنع طائوت إليه وقال في عصب :

— فلتمت أنت وأهل بيتك .

وصاح طائوت في خدمه :

— اقتلوا هؤلاء الذين تآمروا على الملك مع داود .

ووقف الخدم مشدوهين فما كانوا يظنون أن يقتل طائوت رهان الرب ،

وفطن طالوت إلى تردهم فصاح فيهم :

— اقتلوهم .

ولكن أحدا من الخدم لم يتقدم ، فصاح في الخادم الذي أفضى سر داود :

— اقتلهم أنت .

وتقدم الرجل يقتل أحبالك وأهل بيته . ولم يشف ذلك الدم المسفوك
غليل الملك فبعث جنوده إلى نوب مدينة الرهبان ليضربوا أهلها بالسيف ،
فسقط الرجال والنساء والأطفال صرعى ولم يبح إلا علام انطلق بحبر داود بما
حل بنوب مدينة الرهبان .

وقل أن يعمل داود شيئا تراسى إليه أن الفلسطينيين أغاروا على قبيلة الواقعة
على الحدود بين أرض إسرائيل والفلسطينيين ، فأمر رجاله أن يتأهبوا
للخروج للقتال فقال له رجاله :

— إنا ها هنا خائفون نترقب ، نخشى أن يهبط علينا ضالوت وجنوده ،
فكيف تريد أن نذهب إلى قتال الجنارين ؟

فقال داود لرجالته :

— سخرج للقتال وسنتصر على أعداء إسرائيل .

فقال الرجال في اضطراب :

— كيف تغادر الحصون لنذهب إلى مدينة لها أبواب وأسوار ؟

— أوحى إلّى أننا منتصرون .

وخرج داود وضرب أعداءه وساق أمامه العائم والأسلاب ، وسبع
طالوت أن داود ورجاله الثائرين دخلوا فعيلة فأيقن أنهم وقعوا في يده مما
أيسر أن يحاصروهم في مدينة ذات أسوار وأبواب ، ولكنه ما إن بلغ فعيلة حتى
ألهم داود ورجاله قد حرحوا بها هاربين .

كان داود ورجاله يسكنون الكهوف ففي ذات يوم خرج طالوت في ثلاثة

آلاف رحل يطلب داود ، واستمر في تنفيه حتى بلغ الكهوف وأحسن التعب
يمشي في أوصاله ، فدخل إلى كهف وبام .

وكان داود ورحاله في ذلك الكهف فلما رأوا طالوت نائما قالوا لداود :
— هذا هو طالوت قد ساقه الله إليك فقم فاقتله .

فقال داود في إحلاص :

— حاش أن أقتل رجلا اختاره الله ملكا لبني إسرائيل .

وهم الرجال بالانقضاض على ملكهم فقال لهم راجرا :

— حذار أن يمسه أحدكم بسوء .

وسار داود على حذر حتى إذا اقترب من طالوت العارق في سباته قطع
طرف حته ، ثم عاد إلى مكانه ينتظر استيقاظ الملك . وقام طالوت من رقاذه
وانطلق صوب باب الكهف ، وما إن خرج منه حتى مس أذنيه صوت
يناديه :

— مولاي .

— هذا صوت داود ، أنت داود ؟

— نعم أنا داود يا مولاي ، لماذا تلقى السمع إلى من يوسوسون لك أسي
عدوك ، وأنسى أريد لك الأذى ؟ انظر إلى طرف جبتك ، لقد قطعته وأنت
نائم لأدلك على ولائي ، فما كنت أقتل ملكا اختاره الله ، إنى أتركك وأفوض
أمرى إلى الله ، إن الله بصير بالعاد .

فانهمرت دموع طالوت وقال :

— أنت أبر مني يا داود ، ظفرت بي وعفوت . إنى أسأت إليك يا ولدي
وقتلته رهبان المدير دون ذنب . سأتهل إلى الله وأدعوه عليه أن يعمر لي ذبي .
ووقع في قلب طالوت التوبة وأقبل على البكاء ، وكان كل ليلة يرح
وينادي :

— أريد عالما عابدا يعلمنى كيف أتوب إلى الله !!

فقال له قائل :

— هل تدري ما مثلك ؟ إن مثلك مثل ملك نزل قرية فغربت الشمس وصاح ديث فطير منه فقال : لا تتركوا في القرية ديكا إلا ذبحتموه . ونفذوا أمره وعندما أراد أن ينام قال : إذا صاح الديك فأيقظونا حتى ندلج . فقالوا له : وهل تركت ديكا يسمع صوته ؟ وأنت هل تركت عالما في الأرض تسأله هل لك من توبة ؟

وخرحت جمحافل الفلسطينيين لقتال إسرائيل وتأهب طالوت وجنوده للحرب ، ودارت المعركة رهية قاسية وأخذ طالوت يقاتل في حرارة ليكهر عن ذنبه فقد كان متأهبا للاستشهاد لعل الله يغفر له دماء الرهبان الركية التي سألت كالأنهار في نوب .

واخلعت قلوب بنى إسرائيل أمام هجوم الفلسطينيين الرهيب فولوا مدبرين ، وثبت طالوت وأبناؤه للقتال ، وراح يونانان يحارب في قوة وبأس يذب عن أبيه :

— وسقط يونانان صريعا فأحس طالوت كأن خناجر تمزق فؤاده ، وسقط أبناؤه حوله يخبطون في دمائهم فراح يش كوحش جريح ، وأصابه سهم في عنقه فأرداه .

وجاء الكنعانيون يسلبون القتلى فوجدوا طالوت صريعا فحروا رأسه ونزعوا سلاحه وراحوا يطوفون بالرأس في الأسواق وهم يتصايحون فرحا ، وفي ذلك الوقت كان رجل من بنى إسرائيل يفر مرعوبا كأنما يقتعى أثره الشياطين ..

وأقل الرجل وقد شق ثيابه وراح يحشو التراب على رأسه فهرع داود إليه وقال :

— من أين أنت أت ؟

— من عسكر إسرائيل .

— كيف خلقتهم ؟

— فر الناس من المعركة مهرومين ، وقد سقط الرجال قلى ، وصرع
طالوت وابنه يوناثان .

وشعر داود بالحزن يعتصره وفاضت في نفسه مشاعر الحب للملك ولابنه
يوناثان الصديق ، فراح يندبهما في صوت حزين :

— مجدك يا إسرائيل صريع على شوايخك .

كيف سقط الجبابرة ؟!

لا تذكروا هذا النبأ في جت .

ولا تديعوه في شوارع أشكلون ،

لئلا تفرح الفلسطينيين ،

لئلا تشمت بنات الأجلاف .

يا جبال جليوع ،

لا تدعى الطل ولا المطر يتساقط عليك ،

ولا المراعي تثبت على سفوحك ،

لأن هناك ألقى مجن الجبابرة ،

مجن طالوت دون أن يمسح بالدهن المقدس .

إن الحببيين طالوت ويوناثان لم يفترقا في حياتهما ،

وها هو ذا الموت يجمع بينهما .

كانا أحف من السور وأشد من الليوث .

يا بنات إسرائيل ابكين على طالوت بالدمع الهتون ،

طالوت الذي دثر كس في الدياح ،

وجعلكن ترفلن في ثياب موشاة بالذهب .

كيف سقط الجبابرة في وسط المعصعة ؟

يا يوناثان ، إن خوفي عليك عميق يا يوناثان !
كنت لي حبيباً .

وكان حبك لي عجباً !

كيف سقط الجبابرة .

وتكسرت أدوات القتال ؟

ونصب ابن طالوت ملكاً على إسرائيل ، ومرت السنون وداود في حبرون
يحكم عشيرته ويقضى بين الناس ويتلقى وحى السماء ، ويمضى بهاره ولبه
يتعبد لله رب آياته إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب . ويحتد في عبادته .
وربك أعظم من في السموات والأرض ، ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض
وآتيناه داود زبوراً .

وفي ذات يوم جاء الناعى يعى إليه ابن طالوت فعلم داود أن موعد تنصيبه
ملكاً على إسرائيل قد حان . وسرعان ما جاء أكابر بني إسرائيل إليه يدعونه
ليكون ملكاً على كل الأرض ، ونودى بالسلى الكريم ملكاً على إسرائيل ، وما
كانت حبرون لا تصلح لتكون عاصمة للمملكة كلها حرح داود وروجاته
ورجاله وجوده وانطلقوا إلى حصن أورشليم .

وقسم داود الدهر ثلاثة أيام : يوماً يقضى فيه بين الناس ، ويوماً يحلوه فيه
 لعبادة ربه ، ويوماً يحلوه فيه لنسائه .

وجاء يوم عبادته ودخل محرابه بمحمد الله بصوته الذى تخشع له الأهددة
والطيور والوحوش في العاب ، وجاء رجلاً يتلمسان مقابله فقال لهما
الحراس :

— إنه لا يستطيع أن يقابلكما اليوم لأنه في يوم عبادته .

فانطلق الرحلان إلى السور وتسلفاه ودخلا على داود وهو عارق في عبادته ، فما شعر إلا وهما حالسان بين يديه فخاف مهما فقالا له :
— لا تخف ، حصمان يعي بعضا على بعض فاحكم بينا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط .
قال لهما :

— قصا علي قصتكما .
— إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة ، وقد قهرنى وأخذ نعجتى وضمها إلى نعاجه .
كان داود يتلفت في خوف فقال دون أن يسأل الخصم الآخر :
— لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ، وإن كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الدين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم .
— يا داود ما هكذا يكون القضاء ، حكمت قبل أن تسمع طرفي الخصومة .

فنظر داود فلم ير شيئا فعرف أنهما ملكان أرسلا ليفهما . وظن داود أناه فاستغفر ربه وحر راكما وأتاب . فعفوا له ذلك وإن له عبدنا لرلقى وحسن مأب .

يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب .

وكان العماليق يعيرون على إسرائيل على الدوام فلم تقطع إغارتهم عليها منذ أن خرجوا من مصر . لقد طرد الهكسوس من وادى النيل وبقي نون إسرائيل للذل والهوان حتى خرج هم موسى إلى التيه ، ثم قادهم تاه يوشع بن نون لينزلوا أرض فلسطين .

كان العماليق يمتنون بنى إسرائيل فبعد أن محوهم الحماية أيام سلطانهم على مصر لم يحفظوا لهم هذا الصنيع بل انضموا إلى المصريين وتخلوا عنهم ، فلما صار ملك بنى إسرائيل إلى داود خرج في جيش جرار لقتال العماليق . ودارت الحرب بين الجانبين حتى انكسر العماليق وانسحبوا إلى قلب الجريزة ، فاقتفى داود أثرهم حتى دخل يثرب . وراح علماء بنى إسرائيل يتلفتون ، إنها أرض دات غل فلعلها تكون مهجر ذلك النبي الذى بشر به موسى ، وعادت إلى أذهانهم تلك الآيات التى أوحى الله بها إلى عبده كليم الله : « أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامى فى فمه ، فأكلمهم بكل ما أوصيته به » .

إن الله سيتلأأ من فاران ، من الأرض المقدسة التى أنزل إبراهيم بها هاجر وإسماعيل ، ربنا إني أسكنت من ذرىنى بواد غير ذى ررع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون .

ونزل بعض أحبار بنى إسرائيل فى يثرب ينتظرون ذلك الرسول النبى الأسمى الذى سيعت فى الأمم لا فى بنى إسرائيل . الذى يجدوه مكتوبا عندهم فى التوراة .

كانت إسرائيل في دروة مجدها ، فبى الله داود يحكم بين الناس بالحق ويحاول أن يذيب أساطير إسرائيل الاثنى عشر في أمة واحدة موحدة ، وأن يقضى على العصبية القبلية بعد أن هرم أعداء بنى إسرائيل .

وكان داود على علم بيت الله المحرم الذى كرم الله به بنى إسماعيل ، وكان يقدسه وينظر إليه نظرة إجلال ويتمنى أن يكون لبنى إسرائيل بيت مقدس في أورشليم عوضا عن خيمة الرب التى شدت من جلود البقر ، ولكن استغراقه في العادة شغله عن أن يبنى الهيكل أو يقيم القواعد من البيت .

وررق داود بسليمان ومرت السون فكبر داود وشاح ، وفي ذات يوم جلس للناس يحكم بينهم وكان سليمان حاصرا فجاء خصمان قال أحدهما : — إن غم هذا الرجل دخلت حقلى وأكلت ما فيه من الزرع .

فسأل داود صاحب الغنم :

— هل فعلت غنمك هذا ؟

— نعم .

— يأخذ صاحب الحقل هذه الغنم مقابل ررعه الذى فسد .

كان سليمان في الثانية عشرة من عمره فالتفت إلى أبيه وقال :

— غير هذا يا نبى الله .

— ماذا ترى يا سليمان ؟

— يأخذ صاحب الغنم الحقل ليصلحه ، ويأخذ صاحب الحقل الغنم

لينتفع بلبنها ونتاجها ، حتى إذا عاد الحقل كما كان أخذ صاحب الحقل حقله

وأخذ صاحب الغنم غنمه .

ومهللت أسارى داود لحكمة ابنه وقصى عما قال ، ولما انقضى مجلسه ودخل إلى أهله وأقفلت روجه إليه أخبرها أنه سيصيب ابنها سليمان ملكاً من بعده .

وطس أدونيا س داود أنه وارث العرش بعده ، فجهز عجلات وهرساناً ورحالاً يجرهم أمامه ، ورأى أن أباه شاخ ولم يعد يصلح للملك فعزم على أن يتأدى بنفسه ملكاً على إسرائيل ، فأعد وليمة فاخرة دعا إليها جميع إخوته ما عدا سليمان ودعا خدام الملك ليبياعوه بالملك في ذلك الحفل .

ودخل حكيم من حكماء القصر على أم سليمان وقال لها :

— دعا أدونيا إخوته إلى وليمة لينصب نفسه ملكاً على إسرائيل دون أن يعلم داود . ادخلى إلى داود الآن وقل له : أما وعدتني أن يكون سليمان ملكاً من بعدك ؟ فما الذى جعل أدونيا يطلب الملك لنفسه ؟ وفيما أنت تحدثين الملك أدخل أنا لأشد أزرك .

ودخلت أم سليمان على داود وقالت له :

— وعدتني أن يخلقك ابني سليمان على عرشك ، ولكن ها هو ذا أدونيا يذبح الديائح ويمد الموائد ويدعو جميع إخوته ليبياعوه بالملك دون علمك ، فماذا أنت فاعل ؟

ودخل حكيم القصر وقال :

— أنت أمرت أن يكون أدونيا ملكاً من بعدك ؟

فقال داود :

— ادع لى رجالى .

ودخل رجال داود المخلصون فقال لهم :

— أركبوا سليمان على بغلتي وانمحووا في الأبواق واهتفوا : بحيا الملك

سليمان ، لقد نصتته ملكا على إسرائيل .
وركب سليمان بغلة داود ونمخ في الأبواق ، فجاء الناس من كل فج عميق
يهتفون بحياة الملك الجديد .

وصكت المتاعف آذان من دعاهم أدويا إلى النولمة التي جهرها لينادي
بفسه ملكا على إسرائيل فارتعدت فرائصهم وانتشر الخوف في جوارحهم
فتمرقوا دعرا ، ودبت الرهبة في قلب أدونيا وحشى أن يفتك سليمان به فمر
إلى حيمة الرب وقال :

— لن أرح حتى يأتيني الأمان من أخى .
وأمه سليمان فوجد عليه يعرض ولاءه ، وترجع سليمان على عرش أبيه فخر
داود ساجدا في فراشه وقال :

— لك الحمد يارب على ما أوليتى من نعم ، إنهى اعمر لي عجزى لأن
يأتى قصر عن أن يقصص عما يحيش به صدرى . لك الحمد يارب إذ وهبت
لي اليوم من يحلس على عرشى وعيناي تبصران .

وراح سليمان يقبع أسباط بني إسرائيل بسد الشقاق وهجر الحروب وبدل
الجهود في الصناعة والتجارة ، فأشأ صلات ودية مع حيرام ملك صور ،
وشجع التجار الفينيقيين على أن يسروا قوافلهم إلى أورشليم . فاردهرت
عمليات استبدال مصوغات صور وصيدا بعلات إسرائيل الزراعية .

ووطد أواصر الصداقة مع قائل بني إسماعيل التي اشترت على طريق
القوافل ، ومع العرب الذين التفوا حول البيت المحرم ، وراح يستخرج من
حريرة العرب الذهب والحجارة الكريمة .

وآس سليمان بعدم جدوى الحروب إذ كان رجل سلام وإن كان على
استعداد لامتناع الحسام ، فتزوج ابنة فرعون مصر ليقوم السلام مكان
الصدام بين مملكته ومملكة المصريين .

وراح يحاول أن يقضى على النزعة الانفصالية بين قبائل الأسباط الاثنتى عشرة وأن يؤلف منها شعبا واحدا ، ولكنه أخفق فقد كانت النعرة القومية متأصلة فيهم ، وكانت كل قبيلة تعتقد أنها أشرف مما عداها من القبائل وإن كانوا جميعا يتسبون ليعقوب ، وإن كان البشر كلهم لآدم وآدم من تراب ! وخرجت البعثات لاستخراج المعادن ولاستيراد العاج والقردة والطواويس لتباع للأثرياء المحدثين بأثمان باهظة ، واحتكر تجارة الحيوط والخيول والمركبات ، وفرض الزكاة على الأغنياء والقادريين ، وكان يعشر القوافل المارة بفلسطين ، فتكدست الأموال في بيت المال وامتلأت أورشليم بالفضة وكادت تكون في عداد الحجارة والحصى .

واستولت على لبه فكرة إقامة هيكل الله في أورشليم بعد أن ضرب في قلب صحراء حريرة العرب وحج أول بيت وضع للناس ، فعزم على إقامة بيت الله ، وما فكر في أن ينافس البيت العتيق أو الكعبة المقدسة بل أراد أن يجمع خيام الرب التي انتشرت في قبائل الأسباط الاثنتى عشرة في هيكل واحد ليوحد قبلة بنى إسرائيل كما توحدت قبلة بنى إسماعيل .

وجمع سليمان ذوى الثراء من أهل المدن وأعلى عن عزمه على تشييد هيكل لله فذهب الأغنياء يتبرعون ، وجاء الصناع من كل أنحاء بنى إسرائيل ليكون لهم شرف العمل في بيت الله .

واستمر العمل في بناء الهيكل سبع سنين ، ثم واصل مهرة العمال الذين جاءوا من صيدا وصور العمل ثلاثة عشر عاما لناء الصرح ليكون مقرا للملك سليمان الحكيم .

وصار الهيكل مركزا روحيا لى إسرائيل وعاصمة لملكهم فنشأت الوحدة السياسية ، وراح الدين يردد أصداء التاريخ والسياسة ، وعاد الناس لعبادة الله وحده رب إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وموسى وداود ،

وبدوا عبادة العجل والحية وبعل وتموز وعشتار وآله الوثنيين في بابل وسورية ومصر .

وفي ذلك الوقت كان الناس في البس في ضحك كبير يتنفسون في حذر ويتلفتون في ذعر ويتهايمسون في خوف ، فقد هجرت الطمائية سبياً بعد أن سادها الطغيان ونزل بها الرعب والفرع ، فزلة لسان أو إشارة امتعاض أو غمغمة استياء كافية لإطاحة الرعوس ، فالدى استلب الملك من ملكهم طاغية قَدْ قلبه من الصخر . كان قاسيا لا يعرف الرحمة فأذاق الشعب صوف العذاب وسقاه الدل وجرعه الهوان ، إبه يبع في الدماء ولوغا وتستريح نفسه لأنات الألم وتأوهات الشقاء .

وحيم على سباً سحائب داكمة من الدل والخنوع ، وأحست بلقيس ما يقاسي الناس من كرب بعد موت أبيها فتألمت وراذ أسأها على مر الأيام فانقلب حقدا على الطاغية العشوم ، فما كان الشعب الوديع يستحق كل ذلك الاضطهاد .

أطرقت مهمومة تفكر فيما تفعله لذلك الشعب الذي رماه سوء حظه حاكم مستبد ظالم لا يطاق ، فاتمعت في رأسها فكرة فينت العزم على إبعادها لعلها ترجح الناس من ذلك الطاغية الجائر ، وتعيد إلى القلوب الطمائية وإلى سباً العظيمة الأمن والاستقرار

ترينت وأرخت شعرها السبط الناعم الأسود فتهدل رائعا ، ونحلت بأفجر اللآء وأكرم المعادن ، وأبررت الفتنة فكانت آية من آيات الحسن والجمال ، ثم انطلقت إلى قصر الطاغية تسمى العقول وتلعب بالأفئدة وتأخذ بالآباب . ودخلت على الملك فلان القلب القاسي فحقق حقائق ورنأ إليها في حان وانفرجت شفتاه عن ابتسامة كشفت عن إعجابه واعتائه ؛ ودنت منه فأجلسها إلى جواره وأقبل عليها يحدثها في اشتياق فحدثته في لين ونظرت إليه

في دلال فهفت نفسه إليها ، وما فارقت حتى كان أسير وجهها المشرق وعينها الناعمة وقدها المياس .

وترادفت زيارتها للملك فهام بها حبا ، فكان إذا حلا بنفسه يشاعله طيفها فتلوح له في حاذيبتها وفتتها فيخفق قلبه ويطلق ليستعيد حديثها فيحس سعادة ، كان حديثها يدغدع حواسه وطلعتها تزلزل كيانه ونظرة منها تغمره بالنشوة ، فعزم على أن يتزوجها لتشاركه ملكه وتملأ قصره أنسا وسرورا . وأوفد إليها رسله فاستحابت لطلبه ، وأقيمت في سبأ الأفراح وتأهب القصر لاستقبال بلقيس الأميرة الجميلة ابنة الملك الراحل المحبوب

ووفدت بلقيس في ثياب العرس فكانت أروع من الرهر وأندى من العجر وأحلى من الربيع ، مهرع إليها الملك وفي صدره لفة وفي عيبيه حب وانطلقا إلى صدر المكان لتجري المراسيم .

وانقضت الحملات فنهض الزوجان إلى عرفتهما وانصرف المدعوون وساد القصر هدوء ، وراى الملك إلى بلقيس الجميلة فتحركت مشاعره وهم بالدور بها ، فقدمت إليه كأس خمر فتجرعها فانتشت روحه ، واقترب منها فقدمت له كأسا أخرى فعبها ، وراحت تقدم له الكؤوس حتى سكر فرحب إليها وهو محمور وفتح ذراعيه ليضم إلى صدره عروسه الحسنة ، فأقلت إليه واستلت من صدرها خنجرأ أغمدته في صدره ، فارتمى على سريريه غارقا في دماثة يعاى سكرات الموت ويلفظ آحر الأنفاس .

وسارت بلقيس في ردهات القصر ثابتة المخطو حتى إذا بلغت العرش ألقت أعوانها يرصدون قدومها في قلق ، فألقت إليهم برأس الطاعية واتجهت إلى سرير الملك وجلست شاحخة ، فاطلق أعوانها حقافا ليرفوا إلى الشعب النبأ العظيم ، بأ تخليص سبأ من سلطان الجور واعتلاء بلقيس عرش البلاد . وذهبت بلقيس إلى معبد الموقاة إله القمر وقدمت القرابين ، ثم انطلقت إلى

معد ذات حميم إلهة الشمس وسجدت لها شكراً أن أيدتها ومكتها من الطاغية الذى قتل أباه واستبد بالشعب .

ومرت سبع سنين وبلقيس تحكم شعبها من قصرها فى صرواح ، تبعث قوافل الطيب واللبان إلى إسرائيل وسورية ومصر وتعود تلك القوافل بخيرات البلاد ، وكانت بلقيس وشعبها يعبدون القمر والشمس وعشتار فقد كانوا قوما يعبدون الحجوم والكواكب ككل العرب الذين لم يعتنقوا ملة إبراهيم أو الذين ارتدوا عن دين التوحيد .

ولقد أتيا داود وسليمان علما وقالوا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عاده المؤمنين . وورث سليمان داود وقال :

— يا أيها الناس علما مطلق الطير وأوتينا من كل شيء ، إن هذا هو الفضل المبين .

وحشر لسليمان جموده من الجن والإنس والطير فهم يورعون . حتى إذا أتوا على واد الثمل قالت غلة :

— يا أيها الثمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمكم سليمان وحنوده وهم لا يشعرون .

فبسم ضاحكا من قولها وقال .

— رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين .

وتفقد الطير فقال :

— ما لى لا أرى الهدهد أم كان من الغائين . لأعذبه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين .

فمكث غير بعيد فقال :

— أحطت بما لم تحط به وحنتك من سبأ نبأ يقين . إني وجدت امرأة

تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم. وجنتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون . ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون . الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم .

قال :

— سنظر أصدقت أم كنت من الكاذبين . اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون .

قالت :

— يا أيها الملأ إني ألقي إلى كتاب كريم . إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا على وأتوى مسلمين .

قالت :

— يا أيها الملأ أفتوى فى أمرى . ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون .

قالوا :

— نحن أولو قوة وأولو بأس شديد ، والأمرك إليك فانظري ماذا تأمرين .

قالت :

— إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، وكذلك يفعلون . وإنى مرسل إليهم بهدية فناظرة مم يرجع المرسلون .

فلما جاءوا سليمان قال :

— أئمدونن مال فما آتانى الله خير مما آتاكم ، بل أنتم بهديتكم تفرحون . ارجع إليهم فلنأتينهم بجمود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون .

قال :

— يا أيها الملأ أيبكم يأتى بعرشها قبل أن يأتوى مسلمين ؟

قال عفريت من الجن :

— أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوى أمين .
قال الذى عنده علم من الكتاب :

— أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ..
فلما رآه مستقرا عنده قال :

— هذا من فضل ربي ليبلوني لأشكر أم أكفر ، ومن شكر فإنما يشكر
لنفسه ومن كفر فإن ربي غنى كريم .
قال :

— مكروا لها عرشها ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون .
فلما جاءت قيل :
— أهكذا عرشك ؟

قالت :

— كأنه هو .

وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين . وصدها ما كانت تعبد من دون الله
إنها كانت من قوم كافرين . قيل لها :

— ادخلي الصرح .

فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقها ، قال :

— إنه صرح ممرد من قوارير .

قالت :

— رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين .
ولقد آتينا داود منا فضلا ، يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد . أن
اعمل سابعات وقطر في السرد واعملوا صالحا إني بما تعملون حبير .
ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من
يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير .

يعملون له ما يشاء من محاريب وتمائيل وحفان كالحواب وقدور راسيات ،
اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور . فلما قضيا عليه الموت ما
دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل مسأته ، فبما حرتبت الخن أن لو كانوا
يعلمون العيب ما لثوا فى العذاب المهين .

انقضت أيام داود وسليمان وكانا من سبط يهوذا ، فعنت هذه المرحلة
 العدة سبط يهوذا فتملكهم الغرور واعتبروا ذلك السمو الروحي الذي بلغته
 مملكة إسرائيل في عهد داود وسليمان امتيازاً منحه الله لهم وحدهم دون سائر
 الشر ، فزعموا أن اليهود من كان جدهم يهوذا بن يعقوب هم شعب الله
 المختار ، أما أبناء الأسباط الأحد عشر الآخر فهم كالأنعم سواء بسواء .

زعموا أن النعمة الموروثة لليهود وحدهم فعبثوا ذواتهم وإن حسبوا أنهم
 يعدون الله رب الناس ، مثل الناس جميعاً ، لا فرق عنده بين من جاعوا من
 سبط يهوذا أو من سبط لاوى أو من سبط إسماعيل ، فهو رب العالمين . قل إن
 كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمسوا الموت إن كنتم
 صادقين . ولن يتموه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين .

وصارت سماحة دين إبراهيم تعصاً مقبلاً ، وأصبح إليه الناس إليه
 إسرائيل ، بل إليه اليهود وحدهم ثم صار إسرائيل نفسه . فقد راحوا يقولون
 في صلاتهم : اسمع يا إسرائيل ! وقد انحرف بهم ذلك الغرور إلى العقم الفكري
 بعد أن ورثوا مع أبناء إسماعيل النفحة الروحية العظيمة وكثر الوجود ،
 وانقسمت مملكة إسرائيل إلى مملكتي يهوذا وإسرائيل ، وعكف أحبار اليهود
 على التوراة يفسرونها على هواهم في تنطع وتعصب وضيق أمق فأفسدوا توراة
 الله ، مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا نفس
 مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين .

وقبل أن تنقسم مملكة إسرائيل إلى مملكتي يهوذا وإسرائيل كانت مملكة

آشور تتكون في شمال العراق . فقد كان هناك شعب مقاتل يعبد آشور الإله العظيم من يحكم الآلهة جميعا ، وقد وحد شلمنصر الأول دولة آشور قبل أن يستولى بنو إسرائيل على أرض كنعان ، ووسع تفلت فلاصر الأول هذه الدولة الناشئة قبل أن يصبح طالوت ملكا . وبعد أن مات سليمان وانقسمت دولة إسرائيل صار آشور ناصر بال الثاني ملكا يحكم بابل وآشور من قصره في عاصمة ملكه نينوى .

فأصبح آشور أبا الآلهة وسيد الأقطار وسين العاقل سيد التاج المجدد في فخاره ، شماش قاضى السماء والأرض الذى يمحى العدو ويساعد العدالة . صار آشور كل شيء في حياة الآشوريين لا يفعل شيء إلا باسمه ، ولا يدور القتال وتشب المعارك وتذل البلاد إلا لمجده ، ما من ملك من ملوك آشور إلا يقدم عقب عودته من القتال تقريرا عما كان من الخسائر التى تكبدها العدو إرضاء لآشور البطل الذى يحط الأشرار وينصر المؤمنين !

كانت آشور تعترف اعترافا صريحا بأن الحكم هو تأميم القوة ، أن تكون الحيوش وموارد الدولة في قبضة الحاكم يوجهها حيث يشاء آشور ، فشب الشعب الآشورى شعبا مقاتلا استغل عبقريته في تطوير فن الحرب ، فنظم فرق المركبات والفرسان والمشاة والمهندسين الذين يقوضون أبنية أعداء آشور ، وطوروا آلات الحصار وعرفوا أهمية الانقضاض السريع على الأعداء ، وتقدمت عندهم صناعة الحديد فآلَسُوا الجلود حللا حديدية ساذجة .

وكانت أبواب المدينة وأبواب القصر الآشورى في حراسة ثيران مجعدة ها رعوس آدمية من البازلت الأسود ، فقد كان الثور المجمع في آشور روحا حيرا تحرم أبواب المدينة المقدسة وقصر الملك الذى وهب روحه لإلهه خالق الناس ، وكانت الأجنحة رمزا للمسارعة الإله لفعل الخيرات .

وما كان في قصور ملوك آشور ما يوحى بالخبر فالخدران مريئة بصور
المعارك الحربية والاحتفالات التي تجري عقب أن يكتب آشور النصر لشعبه
على أعدائه . إنها ماضر بشعة تفيض بالوحشية : سهام تنطير لتستقر في
القلوب ، ويطون تيقر ويسور تقض من السماء تنهش جثث القتلى .



سار الملك شلمنصر الثالث في ردهات القصر على رأسه التاج على هيئة
مخروط ناقص تعلوه شوكة يربطه شريط تدلى أضرافه على كتفيه ، وكان الملك
يرتدى قميصا متركشا له أهداب ويتعل عللا لا يغطي إلا عقيه وفي أذنيه
حلقات كبيرة ويتقلد عقودا من التمام ويلف فوق ساعديه أساور وتتدلى من
منطقته أساور وسيوف .

وانطلق إلى المعبد وحر ساجدا لآشور وكان له إله حرب تسليح بقوس
وسدد سهمه إلى قرص منح ، وكانت زوجته بعليث ، عشتر الآشورية إلى
حواره ، وهي محاربة كذلك وبطلة قتال لا تبقى ولا تنذر على أحد من أعداء
آشور .

كانت بعليث تحمل جعبتي سهام إحداهما على الكتف اليمى والأخرى على
الكتف اليسرى ، وفي إحدى يديها قوس واستلت باليد الأخرى سيفاً
مرهفامندرة بالويل والثور لأعداء آشور . وانتشرت عن يمين وشمال آشور
وبعليث ثنائيل سين وشماش وأدد وبعل ومردوخ والآلهة الأخرى .

وأنتم شلمنصر صلاحه وذهب ليستوى على عرشه ، فكان أول ما فعله أن
راح يقرأ في إعجاب ما سجله سلمه تحلات بلاسر الأول على أسطوانة من
أسطوانات قاعة العرش :

— إن آشور والآلهة العظام الدين جعلوا ملكي عظيما مسحوني القوة
والنفوذ وأمروني أن أمد حدود أراضيهم ، وقد وضعوا في يدي أسلحتهم

القوية التي تعصف بأعدائهم .

لقد هزمت الأراضي والجمال والمدن والأمراء أعداء آشور وأحضعت بلادهم ، وحاربت بشجاعة ستين ملكا وانتصرت عليهم نصرا مؤررا ، ولم يكن هناك من هو كفاء في المعركة .

وانتقل شلمنصر الثالث إلى أسطوانة أخرى وراح يقرأ ما سحبه ملك آخر من أسلافه فاشتغعت في نفسه الرغبة في العزو والقتال وعربدت في جناته شهوة أن يسحل أعماله المحيدة في سبيل آشور على أسطوانة من أسطوانات قصره ، وراح يحلم بذلك اليوم الذي يقدم فيه إلى إلهه تقريره عن عزواته في سورية وفي أرض الفراعين .

وجلس على عرشه وراح يحري وراء خياله فرأى نفسه على رأس جيشه في عربة القتال والصور تحلق فوقه ، يظأ قدميه قبائل بني إسماعيل يفتك برجالهم ويسبي نساءهم ويبيع الجنوده أن يهبوا بخارن علاهم .

تهللت أساريه واتمعت في عينه القسوة ، فيا ويل بني إسماعيل يوم يقص عنهم انقضااض الصواعق المزمجرة ، ويا ويل دمشق وملكها ، ويا ويل بني إسرائيل فمن يكتفى بتمزيقهم وتشتيت شملهم بل سياسر آهتهم ويلقى بها تحت أقدام آشور .

واستولى عليه الانفعال فراح ينمق الكلمات التي سروعها تقريره إلى مولاه بيا فوراه المبين يوم يصهره آشور على أعدائه :

— آشور السيد العظيم .

من له الحكم على الآلهة جميعا .

من يعطى التاج والصولجان .

من يثبت دعائم الملكية .

عشتار الأولى بين الآلهة .

سيدة الصراع من نحوص أعف المعارك فتكلل بالنصر .
 يأتها الآلهة العظام ، يا من تحكمون السماء والأرض .
 يا من عظمت ملكية شلمنصر الأمير المحبوب ، من نه الحظوة في قلوبكم .
 البطل الرائع الذي اصطفيتموه وتوجتموه ورسمتم إلى الأبد مصيره
 الملكي .

لقد جاء اليوم الذي سطع بوره وقصى بتأييدكم على أعداء آشور .
 قتلت بسمي حمسين من المحاربين ، وألقيت في النار ثلاثمائة أسير ،
 واستوليت على حرائر الذهب والفضة ، وسقت أمانى إلى معابدكم المقدسة
 الإبل والماشية والغنم والعبيد .

وبترت أيدي كثير من أعدائكم ، وجذعت آثاف آحرين ، وصلمت
 آدامهم وفقات عيوسهم وأجبطت أعمالهم وتركت مدنهم طعمة لليران .
 وشخص بصره إلى السماء وقال :

— أي آشور العظيم ، سأفعل ما أوحيت لي . سأفعل ما لم يفعله ملك من
 قبلي حتى ترضى ، فلا تحزني وانصرفي على أعداء آشور .

واستولت على ليه فكرة عرو قائل الإسماعيلين والقضاء على ملك دمشق
 وملك بني إسرائيل ، وامتدت أحلامه فأخذ يهكر في الاستيلاء على مصر ،
 وأنه ليوم من أعظم أيام التاريخ يوم يتصر آشور على اللات إلهة العرب ويهودا
 إله بني إسرائيل وآمون إله المصريين ، وحاء شهر تموز شهر تجمع الحيوش كما
 كتب ذلك إله العلم الآشوري على عباده فقد مر من عليهم القتال في ذلك
 الشهر ، فعث شلمنصر إلى العرافين وطلب منهم أن يستشيروا الآلهة في حملته
 على بني إسماعيل والسوريين .

وعكف العرافون على أمعاء الدنايح ينظرون فيها ليروا ما سجل آشور في
 لوح القدر بعد أن اعتسبوا وأطلقوا المحور وقدموا القرابين ، ونام بعضهم

بعد أن اجتهدوا في صلواتهم وابتلوا إلى الآلهة أن تلقى في صدورهم رغباتهم في الأحلام ، وسهر آخرون يبطرون في السحوم .

وجاء العرافون إلى شلمنصر وقد تهللوا باللبا العظيم وقالوا :

— إن السيد الكريم آشور الميجل يأمر مولانا بالخروج ، فسر على بركة آشور .

وجاء « التورتان » وهو أكبر موظفي البلاط ، وجاء كبار القواد إلى حيث جلس الملك يرسم خطط الغزو ، وراحوا يقرعون تقارير العيون المسنة في سورية في أمل ، فقد كانت التقارير جميعها متفائلة تؤكد نجاح الحملة وانتصار آشور .

وتأهب الجيش للخروج من نينوى وكان جيشا من أحدث الخيوش ، كان المشاة مزودين بمعاول من البرونز ومسلحين بالأقواس والرماح وعطيت صدورهم بالدروع وهي قشور بحارية مروحية الشكل تلبس فوق الدثار ، وعلى رؤوسهم خوذات مخروطية تتدلى منها صفائح جانبية لحماية الأذنين . أما حملة الأقواس فقد علقوا الجعب على ظهورهم وتألفت أعينهم بالبريق كأنهم الصقور .

وجاءت عربات القتال وأحدث مكان الصدارة من الجيش ، وكانت العربية صندوقا فوق عجلتين ضخمتين عاليتين . وفي مؤخرة الجيش كانت الإبل تحمل المؤن والماء .

وهاج الجنود وماجوا وارتفعت ضحكاتهم وبداءاتهم ونجاوبت الساحة بأصواتهم ، وسرعان ما سرى همس في الجيش ، الملك .. الملك ، فاستقرت الألسنة وحبت الأنفاس .

وجاء الملك في عربته ووقف خلفه جديان يحملان علمين ، وكان معه في العربة أحد الحصيان ليقود العربية إذا رأى الملك أن يستريح . وجاء القواد في

عرباتهم حلف انك صفا صفا ، وراحت السور نحوم فوق رأس الملك
وجيشه وكانت سورا مدربة تهش حث الحرجى والقتلى ، وكان عبثها
بالحث أشد فتكا من الرماح والسهام والسيوف
وبصح في الصور فابطلق جيش آشور كجراد منتشر على رأسه شلمنصر
الثالث إلى أرض نبي إسماعيل وأرض سورية ومملكة إسرائيل التي انقسمت إلى
مملكتي إسرائيل ويهوذا ، لتكون كلمة آشور هي العليا ولتذل آلهة العرب
والكعابين والآراميين والعموريين وبني إسرائيل ، ذلك هو الخرى العظيم .

قابل حنذب ملك العرب الشماليين رسول بهدد الثاني منك دمشق وألقى إليه سمعه . لقد جاء الرسول يدعو ليدخل في حلف الأحلامو حلف الرفاق ، لوقف توسع الآشوريين الطامعين في المنطقة ، فسرعان ما استجاب للدعوة فقد كانت ممالك بني إسماعيل التي تكومت بين بادية العراق والظور تمت الآشوريين أشد المقت لما اشتهر عنهم من القسوة وغلط القلوب .

كانت العلاقات طيبة بين بني إسماعيل في الشمال وبين حوراهم ، فالصلات متوسطة بينهم وبين الآراميين وبين بني إسرائيل ، ولكن البغضاء تملأ أقدنهم لآشور فكانوا على استعداد ليمدوا أيديهم لكل ماوى هؤلاء المستبدين .

كان بنو إسماعيل يتعشقون الحرية وكانو يعضلون أن يجودوا بدمائهم على أن يخضعوا لسلطان دولة من الدول أو لطاغية مفتون ، ولما كانت أطماع الآشوريين تهدد حريتهم فقد رحب جندب بدعوة بهدد ودخل في حلف الأخلامو وهو مستريح الضمير .

واضيق رسول بهدد إلى أورشليم وقابل آخاب ملك إسرائيل بعد أن خرج من هيكل سليمان يتلمت ، فقد صلى آحاب صلاة حارة لأنه يهوذا ، بيد أن السكية لم ترل قبه والطمأنينة لم تعرف طريقها إلى نفسه بل ذهب شعاعا فقد كان مشغول البال حائرا قنقا .

ودعا رسول بهدد آحاب إلى الدحول في حلف الرفاق فلم يسارع آحاب لاستجابة الدعوة ، فقد كانت العداوة على أشدها بين الآراميين وبني إسرائيل

مند أن قامت الحروب بين الدولتين واستولى داود على دمشق إلى حين .
 وراح آحاب يفكر في العماليق وكان يعرف مقتهم لدولة إسرائيل ، فقد
 غزوا مملكة إسرائيل في عهد داود وتغلغلوا فيها حتى وضعوا أيديهم على
 عسلاوح . فإن كان داود يحج في أن يعطرد العماليق بعد ذلك من أرض إسرائيل
 ويتعقبهم حتى يثرب فقد دالت مملكة داود وأنه سيمان وانقسمت إسرائيل
 إلى مملكتي إسرائيل ويهوذا وصار بنو إسرائيل يخشون أن يتخطفهم الناس ،
 فكل من حولهم من الشعوب يرون أنهم وافدون على البلاد وأهم اعتصوا
 الأرض من الكعابين . وراد في مقت الناس لهم تلك الدعوة التي اعتنقها من
 حاءوا من سبط يهوذا بعد أن صار الملك في داود وسليمان وكانا من ذلك
 المرع ، بأنهم وحدهم الناس ومن عداهم أميون محرومون من رحمة الله !
 وفكر في ملك حماه حكام المدن الحقيقية ، فرأى أنهم يرجون جميعا بدعوة
 من ملك دمشق ليصدوا نيار الآشوريين ، واهتدى إلى أنه لن يستطيع أن
 يتحلف عن تلبية هذه الدعوة وإن كتب له النصر على الآشوريين .

كان جيش شلمنصر قد خرج من بينوى يحمل معه إله آشور ، وهو في
 طريقه إليهم ولا قبل لهم به إذا لم يتحدوا ، فاستجاب آحاب لدعوة رسول
 بهدد ومد يده إلى المتربصين به وبدولته ، فمن يدري بمادا تحرى المقادير يوم
 يلتقي جيش اتحاد الرفاق بجيش الآشوريين .

ونجح بهدد في تكوير اتحاد الأخلامو من اثني عشر ملكا . وراح كل
 ملك يبحث نحوده إلى الميدان بين الجيش ستين ألف مقاتل ، وبعث جدب
 ملك العرب بألف حمل عبيها رجال لكأهم الرماح يطل من نصالها المنون
 وسار بهدد على رأس جيش من الآراميين والفيسقيين وبنى إسماعيل وبنى
 إسرائيل وقد جمع الخطر المشترك بين الأعداء وإن ظلت قلوبهم متافرة ،
 واطلق جيش الرفاق إلى حلب يرقب جيش الآشوريين

وحاءت العيون تسيء أن شلمصير يتقدم حيشه في عربته الخريبة وأنه يطوى
إليهم الأرض طيباً ، فخرج سهدد للملاقاته وتراءى الجمعان عد قرقرار شمالى
حلب ، فصبح عسكر آشور بالدعاء لإلههم :

— أيها الإله الأعظم آشور !

يا أيها الإله العطوف ،

يارب الأرباب وحالق السماء !

يا من محلت مردوح السلطة منذ الأبد ،

يا من خلقت البشر ،

يا من أمرتنا أن نخضع الشعوب لسلطانك .

فهيبنا لطاعتك لخرج إلى القتال في سيلتك .

لحمد سلطانك على الشعوب ،

فايدنا يا آشور بنصرك .

وأظهرنا على أعدائك أيها العطوف .

وفزع جنود اتحاد الأحلامو إلى السماء فراحوا يصلون ، وكان كل شعب
منهم يبتهل إلى إلهه ويدعوه أن ينصرهم على أعدائه وأعدائهم ، فراح بنو
إسماعيل يسألون « الإيل » إله إبراهيم وإسماعيل أن يحصيهم الأعيان فقد كانوا
يؤمنون بالله وبأنه وحده خالق الكون والمنصرف في عاده ، فإن كانوا قد
حملوا معهم أصنام اللات والعزى ومناة ، فما عبدوهم إلا ليقرّبوهم إلى الله
زلفى .

وارتفعت أصوات بنى إسماعيل :

— ياربنا ، يارعوف يارحيم !

يا من خلق الخلق .

يا من تعلم ما نسر وما نعلن ،

يا من لا يحب المستكبرين ،

انصرنا على القوم الظالمين .

وانتهوا من الأبتغال فارتفعت أصواتهم بالتلبية :

— ليك اللهم لييك ! لبيك وسعديك ! ما أحبا إليك .

وراح بنو إسرائيل يستنصرون إلههم يهوذا على عدوهم وارتفعت

أصواتهم بالصلاة :

— السمع يا إسرائيل !

وراح الآراميون والميسقيون يتهنون إلى نعل إله الحرب ، من حاكمه

الناس ظلما وقتلوه فقام من بين الأموات ليكون إلها في السماء ، وطمقوا

يدعونه لينصرهم على أعدائهم .

ودارت معركة رهيبة في قرقار ، انطلق شلمصر في عربته الحربية ليشق

صفوف جيش الاتحاد وطار فرسانه خلعه ، وإذا بالعرب من بنى إسماعيل

الدين كانوا على ظهور إلههم يخرجون لصد ذلك الهجوم ، وتراشق الجانبان

بالسهام والبال ، وشد الآراميون والفيتقيون والإسرائيليون أزر بنى إسماعيل

وحمل وطيس القتال وارتفعت الصرخات والأناث وانتشرت على أرض

المعركة جثث الآشوريين والعرب من إسماعيليين وآراميين وميسقيين

وإسرائيليين ، وانقضت السور تبقر البطون وتنهش الخث .

وشد الأخلامو على الآشوريين واستبسلاوا في المضال واستات جنود

آخاب في القتال ، فقد كانوا أكثر المقاتلين خوفا من انتصار الآشوريين

كان العربون إذا انتصروا على عدوهم يضربون رقاب الرجال ويسبون

النساء والأطفال ويأخذون الأموال ويسوقون الأنعام إلى هيكل سليمان ،

كانوا غلاط الأكاد بيد أنهم كانوا يعلمون أن الآشوريين أشد منهم قسوة ،

فلا عرو أن كانوا يرتحفون خشية أن تدور الدائرة عليهم وأن يحملوا إلى بنوى

للذل والعذاب .

واشد القتال واحتلقت الحيول باجماع والتحم المشاة وتصارعت السيوف وعاصت الخناجر في القلوب ومزقت الصدور وعاثت السور في الحث وتكسرت السवाल على السवाल وثار القمع كالجبال ثم استشر كالسحاب ، فاحتمت في جوفه أنات الحرحى ودماء القتلى وصرخات المفروعين وكر الفرسان وانقلاب عربات القتال وصيحات القواد أن شدوا فقد لاح النصر يا رجال !

واجلت المعركة دون أن يظهر فريق على فريق وإن كان شلمصير يعرب في لاسحاب ليلعق جراحه ، وإن كان جود اتحاد الوفاق يتمنون أن يرفع الآشوريون أيديهم عنهم وأن تقف المعركة التي طحتهم ، فقد نال منهم القتل والتعب والكلال .

وانسحب شلمصير وفي قلبه عداء مرير لحنديب وبني إسماعيل وحقد هائل على آحاب وإسرائيل ومقت شديد لبهدد الذي جمع الأحلامو ليقاوموا رعة آشور العظيم ، وانطلق إلى بىوى وهو يتميز غيظا ليقدم تقريره عن الحرب التي دارت بينه وبين اتحاد الرفاق إلى إلهه الذي أمره أن يشن هذه الحرب الصروس ، وراح يواسى نفسه بأنه سيعود لقتال الأحلامو وسيحملهم أسرى إلى بىوى ليذبحهم تحت أقدام آشور العطوف .

وعاد حنديب والدين معه من بىى إسماعيل إلى ممالكهم وقد علموا أن العداوة باتت سافرة بينهم وبين آشور . وأن الأيام تسمىهم كفاحا مريرا قاسيا إذا أرادوا أن يحافظوا على حرياتهم ، وإذا رغبوا في أن يكون لممالكهم وجود في الحياة .

أراد شلمنصر الثالث أن يقلد حده شلمنصر الأول ، فيصيد الممالك كما كان يصيد الأسود ، وأن يبدل مردوخ وبعل واللات وآمون لآشور العظيم ، ولكنه تكبد حسائر فادحة في الأرواح وفي عدة القتال وعاد يجر أذيال الإحفاق وإن قتل في وقعة واحدة ستة عشر ألفاً من السوريين ، وحرص الحرية على المملوكين يؤدونها عن يد وهم صاعرون .

كان تدمير الشعب والحيش في بيوى قد تحاور الخمس ، وبدأ أن الخطر استحصل فقام إليه تملت فلاصر الثالث بالثورة عليه فانتزع الملك منه ، ولما كانت سمورامات أم الملك ذات نفوذ قوى في البلاط فقد راحت تحكم دولة آشور .

ولم يكن من اليسير على الشعب أن يخضع لامرأة فراح رحاها يوهمون الشعب أن سمورامات من سل لاآفة ، إنها نصف إلهة ونصف ملكة وأنها تحكم شعبها بذلك الحق الإلهي ، فصدق الناس ما ندره رحا لنقصر والكهنة في صدورهم وأسلسوا لها قيادهم .

وراحت الأساطير تسبح حول سمورامات أنها فائدة بسلة ومهندسة بارعة وحاكمة محكمة مدبرة ، فصدق الناس كل ما قيل لهم ولا عرو همي من سبل مقدس طاهر قادر على ما لا يطيقه البشر .

وماتت سمورامات ذات الطبعيتين اللاهوتية والباسوتية بعد ثلاث سنوات من حكمها ولم يمت ما يسبح خوفاً من أساطير ، بل نقلت أسطورتها قوافل التجارة مع ما نقلت من آفة واستقرت في اليونان لتصبح سمورامات أسطورة

سميراميس اليونانية .

وصار الملك تغلت فلاصر الثالث الحاكم باسم آشور العظيم في مملكة آشور ، فراح يجمع الجيوش ليخضع لإلهه العطوف آلهة الممالك المجاورة ، وكان يطمع في إخضاع سورية وإسرائيل ومملكة يهوذا التي تكونت في السامرة بعد أن انقسمت إسرائيل إلى مملكتين متنافستين متنازعين بالألقاب . يأبى الدين آمنوا لا يسحرقوم من قوم عسى أن يكونوا حرامهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن حرامهم ولا تلمروا أنفسكم ولا تنازروا بالألقاب بشئ الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون .

وراح بنو إسماعيل يتحصنون في موقعهم في طريق الجيوش ، فالظالمون في مصر من الآشوريين والظالمون في بلاد ما بين النهرين من المصريين لا بد أن يعصوا العرب الشماليين لسلطانهم ليتقدموا في أمان ويحققوا أطماعهم ، دون أن يحشوا وثبة هؤلاء العرب الذين يتعشقون الحرية ويشنون العارة على الفرق الضاربة في الصحراء ليسلبوا الجلود ويغنموا الجيوش .

ولم يكن إخضاع بني إسماعيل أمرا ميسورا فهم يعرفون الدروب في الصحراء الواسعة والمسالك التي تيسر لهم الفرار دون أن يجروا أحد على اقتفاء آثارهم خشية الموت عطشا ، فقد كان لبني إسماعيل آبار سرية يعلمون أماكنها ولا يعرف أعداؤهم عنها شيئا .

وكان لبني إسماعيل أطماع ككل القبائل التي أثرت من التجارة . كانوا يرصدون الأحداث الدائرة حوهم ويتربصون ضيعا من الممالك القوية القريبة منهم ليشوا عليها ويترعوا السلطان منها ، وكان لهم في قبائل العماليق أسوة حسنة إذ رعوا في سورية وفي دلتا النيل ، فلما دب الضعف في الحكام وآسوا منهم خورا وثبوا على الملك في سورية ومصر فانترعوا الحكم وأسسوا مملكة الهكسوس .

وكانت قبيلة قيدار أقرب قبائل الإسماعيليين إلى آشور وقد أسلمت قيادها لكاهنة القبيلة ، فاجتمع الرجال وانطلقوا إلى زبية ملكة القيداريين وكاهنتهم وراحوا يسألونها الرأي في الجيوش التي تجتمع في بينوى لتنتقل نحو العرب لا تبقى ولا تذر .

كانت ربيبة في دومة الجندل تصوم النهار وتصلي الليل وتنظر في المجوم في أكباد الذبائح في المعجر تقرأ فيها مستقبل قومها كما كان يفعل كهنة بابل على عهد إبراهيم الخليل ، فكان الرجال يلقون إليها سمعهم ولا يرمون أمرا إلا إذا أشارت به وباركته وأكدت أن ما تنطق به إنما هو من وحى الآلهة .

كان بو قيدار على دين إبراهيم وقد خرجوا من مكة لينشروا دين الله ، فلما طار عليهم الأمد وقست قلوبهم راحت أساطير الشعوب التي اختلطوا بها تؤثر فيهم فلم يبق من دين إبراهيم إلا ذلك الإيمان الذي يبدره الله في أفئدة الناس ، فجعلوا الله شركاء وروجات وبسات وأصبحوا في ضلال مبين .

وكانت زبية تمقت الآشوريين وتعمل في الخفاء على تقويض ملكهم ، فكانت تبعث البعوث من دومة الجندل إلى بابل لشراء الدقيق والثياب وما تحتاج إليه من مواد . فكان رجالها يسلكون النادية يدرسون طبيعتها ومواقع حصونها ، فقد كانت زبية تحلم بذلك اليوم الذي تثب فيه على آشور وتقضي على ظلمها .

وكان رجالها يحوسون خلال الأسواق بالنهار ويحتمعون تحت جمع الظلام يذوى الرأي والسلطان من أهل بابل يحرضونهم على الثورة ويؤكدون هم استعدادهم للوقوف إلى جانبهم وإمدادهم بالرجال والفرسان والعنادر ليعيدوا إلى بابل مجدها التليد .

ولم تكن قبيلة مسا بعيدة عن فلسطين ، كانت تعيش في منطقة يقع فيها السلاح فكان عليها أن تتأهب للدفاع عن كياها ، فوضع رجالها أيديهم على

مقايض سيفهم وجعاب سهامهم فالعدوان يطل من العيون .
وكانت قبائل بنى إسماعيل الأخرى في المنطقة التي تعيش على فوهة
بركان ، فما أن انسحب شلمنصر من قرقار حتى دب الخلاف فيمن أسسوا
اتحاد الرفاق وعادت أطماع بنهد تطل برأسها .

ذهب بنهد إلى معبد إله هدد في منيج يحيط به رجال الدولة والكهان
ورجال الدين وكان معدا فحما يضارع هيكل سيمان ، وأطلق البحور
وارتفعت أصوات المرتلين والمترلات وقدمت القرابين ودخل بنهد وكبير
الكلية إلى قدس الأقداس ، وخر ساجدا لإلهه ولم يرفع رأسه وراح يعاهد ربه
على القضاء على إسرائيل والاستيلاء على هيكلهم المقدس .

وخرج بنهد ليحارب من زعموا أنهم شعب الله المختار ، فاحتاح أراضي
إسرائيل وأحصع مملكة يهودا وساح في السامرة وأرغم ملكهم على أن يدفع له
الجزية واطلق حتى بلغ سهل فلسطين الساحل ثم اتجه جنوبا حتى صم شرق
الأردن إلى أراضيه .

وسيطر بنهد على طرق التجارة بين بلاد ما بين النهرين والساحل ومصر
وبلاد العرب وبات على حواشي ملكه قبائل مسا وقيدار وبات وقبائل بني
إسماعيل الأخرى التي تعيش على التجارة ، فكان على هذه القبائل أن تهادن
ملك دمشق أو تخوض المعارك لتحرر شرايين حياتها من سيطرة بنهد .

كانت قبيلة بابت لا تزال في مواضعها على ساحل البحر الميت تستخرج
الأسفلت وقد عرفت بالبط ، وكانت تتطلع إلى ساحل الحاس في أرض
سدوم ، بل إلى « سلع » عاصمة الأدوميين الحصينة في وادي موسى .

كان موقع « سلع » حصينا وكان السط يحلمون بأن تصح عاصمة
ملكهم يوما ما . كان يحرس مداخلها جلال عاليان لا يسمحان إلا بمرور
فارس واحد أو اثنين على الأكثر ، فما أيسر حمايتها من هجوم الأعداء ، ويمر

بين الجبلين وادى موسى ثم يفرج على شكل مروحة تحيط بها الجبال الشاهقة ،
وتنتهى من الناحية العربية بممر آخر أكثر ضيقا من مدخلها ، وعند رأس
الوادى نبع غزير يمد ذلك الحصص الطبيعى بالحياة .

وكانت قبيلة مساترقب الأحداث الجارية فى المنطقة فى حذر وقد تأهت
للدفاع عن حريتها ، وكانت قبيلة أدثيل فى سياء فى عدة القتال فبهدد لم
يهاجمها ولكن من يدري ماذا يكون غدا ؟

كان شيخها أدبئيل الذى سمى باسم جده العظيم أدبئيل بن إسماعيل قوى
الشكيمة مقاتلا من خيرة العرسان ، وكان ذا آمال عريضة يطمح فى أن يمد
سلطانه على الأراضى المتاخمة لسياء ، وكانت دلتا النيل تتحائل له وتغريه
بأن يشب وثبته وأن يخوض غمار المخاطرة

كانت قاتل بسى إسماعيل قوية ولكن اقسام الوحدة العممية للحياة
السياسية قعد بهم عن أن يخرجوا إلى نظام الأمم . أحبوا مجتمعاتهم الجديدة
ودانوا بالولاء الروحى لمكة ، ولكن صلتهم بالنسب الروحى لما طال عليهم الأمد
أصابها الوهن وراحت كل قبيلة تتخذ لها آلهة وتجعل لها حرما كحرم مكة
المقدس ، فعطلوا سير التاريخ وصار عديهم أن يترشوا حتى يشتد ساعد قبيلة
منهم وتقوى وتنتشر وتصح تلك القبائل المعترية بعصبيتها فى أمة واحدة .

كانت دعوة إبراهيم عالمية فإذا بأحفاده يتعضون لوثن السيادة القومية
ويشركون برب العالمين أربانا محليين ، فتعالى الله عما يشركون .

وكان قفت فلاصر يرقب الأحداث فى سورية ليشب عليها بحبوشه
ويخضعها لآشور ، وما كان يريد أن يرتكب ذلك الخطأ الذى تردى فيه
شلمصير يوم قاد جيوشه إلى دمشق ثم قفل راجعا دون أن يقضى على أعدائه
ويجمل أمتهم ليلقى بهم تحت أقدام آشور .

بحج ينهدد أيام شلمصير فى أن يجمع الملوك فى اتحاد الرفاق ، فلما انتهت

الحرب في فرقار دون أن يظهر فريق على فريق لم يترث بنهد بل قام يحارب رفاق الأمس ويخضعهم لسلطانه حتى يعطوا الحزبة عن يد وهم صاعرون .
فصم بهدد عرى الاتحاد وخذ التحالف وحاص غمار حروب مع رفاق الأمس فأوهى حيشه وحطم جيوش إسرائيل ويهودا وأتاح الفرصة لتفلت فلاصر ليحقق أحلامه ، إنه سوف يزحف برجاله وفرسانه لقتال جيوش مشخنة بالجراح .

وحاءت عيون قيذار إلى ريبة ملكة قيذار وكاهنها التي تتصل بالسماء وقالوا لها :

— إن تفلت فلاصر جمع جموعه وعما قليل يخرج من نيسوى ليبدأ بمعجلاته وفرسانه أرض القبيلة في طريقه إلى سورية .

واعترلت زبية القبيلة ودخلت خلوتها وراحت تصلى لإلهها وتستخيرها وتظفر في المحوم وفي أحشاء الذبائح لتقرأ ما يحسه القدر لقبيلتها إذا شبت الحرب بينها وبين الآشوريين .

وخرجت على قومها بأسرة الوجه كاسفة السال وقالت :

— لا قلل لنا بتفلت فلاصر وجنوده .

وتعلقت أعين الرجال بها وقالوا :

— وبم تشبهين ؟

— أن تدفعوا الحرية .

وحدثت همهمة استياء بين شباب القبيلة المتحمسين وندرت منهم بوادر العصيان فهم يفضلون الموت على أن يفقدوا حريتهم ، فقالت لهم زبية مواسية :

— إن تدفعوا لآشور الجزية اليوم ، فتكون نهاية آشور عدا على أيديكم .

غدا ؟ ترى متى يأتي ذلك الغد ؟ وكثر الأخذ والرد والحذب والشد وتمكت زبية من أن تعرض إرادتها على قومها ، فدفعت قبيلة قيذار الجزية لآشور وإن راحت تتحين فرصتها لتطعن قلب آشور القاسى طعنة تدول بعدها دولة أولئك الذين يقوم ملكهم على الحرب حتى تنتشى أرواحهم بسك دماء أعداء آشور .

وسرت عدوى دفع الجزية لتعلت فلاصر إلى سائر قبائل بى إسماعيل اتقاء لشر الآشوريين فدفعوا جميعا ما فرضه عليهم الملك الذى عطت جحافل جيشه أرض الصحراء ، وأنى الشيخ أدبيل أن يخضع لذلك الهوان الذى فتحت أبوابه ربية ملكة قيذار وكاهنتها ، وزحف بجيشه حتى دخل غزة ووقف يرصد ما تتمخض عنه الأحداث فى المنطقة .

وابتلى تعلت فلاصر لقتال بهدد ، والتقى الحيمان بالقرب من دمشق ودارت رحى حرب قاسية بين الجانبين لا هوادة فيها ، فكانت عربات الآشوريين تشق صفوف الآراميين ، وكان فرسانهم يلقون السرعب فى القلوب ، وكان تغلت فلاصر يتوغل فى قلب جيش أعدائه فيثير حماسة جوده ، وراحت السهام تتطاير والرماح تغوص فى القلوب والسيوف تطيح بالرعوس وانقصت النور تنهش جثث الضحايا فتحصع أفئدة الآراميين .

وأرغم جيش بهدد على الاسحاب فدخل دمشق وأغلق أبوابها حلعه . وراح يدافع عن المدينة دفاع اليائس المستميت . واعتلى الجنود الآراميون الأسوار وراحوا يصبون الزيت المغلى على رعوس المهاجمين فاختلطت صيحات الفزع بأناث الخرخى بعجيج المعركة وضجيجها بأوامر القواد للمجود أن يصبروا ويصابروا وأن يشددوا النكير .

وانهمرت سهام الآشوريين على المدافعين عن الأسوار كوابل من الطل ، وتقدمت فرق هدم الأسوار ودك الحصون فى حماية الرماة ، وعملت المعاول

في جدران السور حتي نحمت في أن تقبه فتدفت الجنود من النقب تدفق السيل الجارف ، واشتد القتال حول باب دمشق حتي ظهر الآشوريون على الآراميين ففتحوا الباب فانقضت العجلات منه تشق الصفوف وتشيع الدعر في المدافعين ، واندفع الفرسان كالبيوت وقد أطل من سيوفهم المنون ، ودارت رحى معركة رهبة وزلزلت دمشق زلزالا شديدا .

وراح الآشوريون يدكون الحصون ويسبون النساء ويهدمون الدور ويجرقون البساتين ويصنعون من حجاجم المقاتلين جبالا يزيون بها الأسوار . وما انتهت المعركة حتي كانت الرياض حطاما تترافص على حرائبها ألسة النيران .

وساق تملت فلاصر الأسرى والإبل والماشية والغنم واستولى على ما كان في دمشق من أموال وأحلى سكانها . واطلق إلى مملكة إسرائيل وأحصع أورشليم ، ثم اندفع إلى مملكة يهوذا في الشمال وغطى أرض السامرة بحث اليهود ورواها بدمائهم وحمل ما شاء من الأسرى والنعائم والأموال والنساء . وأصبح نفت فلاصر أمام أدبثيل وجهها لوجه . إنه أول زعيم من زعماء بني إسماعيل يرفض الخضوع وحمل الحرية إلى آشور ، وفكر تملت فلاصر مرات قبل أن يخوض عمار معركة مع دلت الشيخ العربي الذي أتى إلا النزاع ، ترى لو هاجم أدبثيل المتحصن في سياء ألا تهب مصر لسجده دقاعا عن حدودها ؟

كان تملت فلاصر مرهوا بنصره على الآراميين وسى إسرائيل واليهود ، وكان يحلم بالعودة إلى آشور وعلى رأسه أكاليل النصر يسوق الأسرى والنعائم إلى إلهه الرحيم ، وما كان يريد أن يكندر رهوه أو ينلم فحره فرأى أن يصالح أدبثيل ويعيه « قيبو » مندوبا عنه على مقاطعة مصرى ، وحمل تحت تصرفه خمسة وعشرين موضعا من عسقلان حتي حصن القلعة البيضاء مفتاح الطريق

بين سيباء ومصر ، فامتد سلطان أدبئيل من عزة إلى طور سيباء ، ومن دومة الجندل والبادية حتى حدود دمشق .

وانطلق تملت ناصر إلى ميح ليرور معد هدد إله الآراميين إرضاء لمن تبقى من الشعب الذى كومت رعوس مقاتليه كالجمال ، وسبق رحاله وسأؤه مرأ أسرى يضربون فى الأرض مع الغنم والقر والخيل والجمال فى طريقهم إلى آشور ، وما إن دخل المعبد حتى عرفاه من الدهشة فقد كان المعبد رائعا أروع من معابد آشور فى نيسوى ومعابد مردوخ فى بابل ومعابد سين فى أور ، إنه استعمار فحاته من فخامة معابد الفراعين ، وراد فى روعته امتزاج الهندسة المصرية باللمسات الغنية للآراميين .

ودخل تملت فلاحصر قاهر الآراميين والإسرائيليين واليهود إلى المعبد وهو يتلفت . كان تماثال هدد إله الرعد فى كوة بضت بالذهب وإلى جواره تماثال روحه ومن حولهم تماثيل ييل وشمش ورشف وكان يعرف يعل شمين أى رب السموات ، وكان هدد يعرف برامون .

عرفت سورية وما حولها التوحيد منذ أيام إبراهيم الخليل بل منذ إدريس . منذ ذلك الرمن السحيق الذى عرفت فيه مصر الله قبل عصر الأسرات ، وعرفت بلاد ما بين النهرين الله الواحد القهار منذ أن دعا نوح قومه أن يعبدوا الله ما لهم من إله غيره ، فلما طال على الناس الأمد قست قلوبهم واتخذوا أسماء الله الحسى تماثيل كل تماثال يعبر عن صفة من صفاته ، فأشور الرحيم وإيل الله ويعل شمين رب السموات وآمون الباطن وذو الشرى رب البيت ، وتعصبت كل دولة لإلهها وحارت الدول الأخرى لتكون كلمة معبودها هى العليا ، وسى الناس جميعا أنهم يعبدون إلهها واحدا وإن تعددت أسماءه وأنه رب العالمين .

وأمر تفلت فلاصر أن تؤخذ أبعاد معبد هدد وأن يبنى مثله في أورشليم لينافس هيكل سليمان . وبعد فيه آشور ، ثم انطلق بما حمل من نفائس وأموال وآهة وأسرى إلى نينوى .

وخرج شعب آشور لاستقبال البطل المظفر ، وغصت طرقات الموكب بالناس وقد تهلت أسارىهم بالفرح الفياض ، وانطلقت المهنات من الحاجر فقد كانت احتفالات النصر أروع ما يهز مشاعر الآشوريين ، وسار الأسرى رمرا إلى الساحة الواسعة وراح الكتبة يحصون الرؤوس والغنائم ليأخذ الملك نصيبه منها ويحمل إلى الكهنة ورجال الدين نصيب آشور .!

وجلس تفلت فلاصر وحوله رجال القصر وكبار ضباط الجيش والكهنة ورجال الدين ، وجيء بالأسرى وزعماء العموريين وشيوخ بني إسرائيل وأكابر اليهود ووضعوا على الخوازيق ، ثم جاء الجلادون بمديهم الطويلة وراحوا يسلخون الأسرى وهم أحياء ثم يعطون الحدران بجلودهم بين صيحات المرح وتهليلات الشوة المعريدة في الصدور ، فقد فاضت غبطة الشعب لأن آشور مكنهم من أعدائهم ففعلوا ما فعلوه إرضاء لآشور العطوف ! آشور الرحيم !

كان بنو إسماعيل يمتنون الآشوريين أشد المقت ، فإن كانت ربيعة أشارت بدفع الجزية لهم اتقاء لشرورهم ، وإن كانت قبيلة مسا رضيت أن تطأ راسها إلى حين ، وإن كان النبط أحفاد بابت بن إسماعيل رجبوا بملك آشور وقبلوا أن يتزل بينهم ، وإن كان الشيخ أدبيل من كان زعيما لقبيلة أدبيل قبل أن يكون « قيو » لتفلت فلاصر ، إلا أن قلوبهم كانت تنطوى على الحقد الشديد لآشور تلك الدولة التي قامت على التعذيب والتنكيل وسفك دماء الأبرياء وقتل الرجال وسلخ جلودهم وهم أحياء واستحياء النساء .

ضاق شمس ملكة عريى وكاهنتها بقبضة آشور الحديدية ، فحشت بالقسم الذى أقسمته لشماس إله العدل ، فقد أقسمت ألا تتعرض للآشوريين بأذى . إلا أنها راحت تغير على أطراف آشور لتسال من هيتها وتطمع أعداءها فيها .

وانتمخت أوداج نفث فلاصر غيظا لما بلغه أن الملكة شمس كاهنة قبيلة عريى حشت فى قسمها العظيم وأبت أن تؤدى الجزية للإله العطوف . إن ما فعلته شمس شوه جلال الاحتفالات التى أقامها ابتهاجا بانتصار إلهه آشور على آلهة بنى إسرائيل والآراميين وكل الشعوب التى دحرها وأرغمها على أن تحر ساحدة تحت أقدام إلهه العظيم .

إنه أشعل النيران فى المدن ليصعد دحانها بخورا لإلهه العطوف ، وأطاح بالرعوس وكومها أهراما تقربا إلى إلهه آشور ، وسلخ أعداءه وهم أحياء ونشر جلودهم على جدران مدينته لعل ربه يرضى ، فجاءت شمس لتدس كل أعماله الباهرة التى ما قام بها إلا بأمر ربه العظيم .

وأحس رغبة طاغية فى إشباع غضبه فلن تمداً نفسه قبل أن يسوى قبيلة عريى وملكها بالأرض وأن يضع رعوس زعمائها يربوع وحاطر وخباب وممر على أنقاض حصونها ، وأن يتوج حراب جيشه برعوس العرب الذين تمردوا على سلطان آشور ، وأن ينسف مملكة شمس نسفا .

وجاء شهر تموز ذلك الشهر الذى كتب سيد العلم الإله ه نى إيجى أزاج ه فى لوح قدره أنه فصل تجمع الحيوش ، عظهر الملك وذهب إلى معبد

آشور يقدم القرابين ويأجى إلهه :

« إلى خارج محاربة شمس وقبيلتها لأنها منعت جزيتها وهداياها عن الإله آشور .

إلى سادتهم ليخضعوا لمولاي آشور .

وسأقتل رجالهم وأسبى نساءهم وأيتم أطفالهم وأحمل أموالهم وأسوق مواشيهم لإرضاء لمولاي آشور .

أى آشور العظوف ، سأحمل كاهنتهم شمس التى حانت عهدك لتحر ساجدة تحت أقدامك يا مولاي » .

وحر تفلت فلاصر ساجدا ثم قام وانسحب من المعبد مضطط الرأس يرجع القهقري دون أن يولى طهره لمعبوده .

وبعث الملك يستدعى « التورتان » القائد الأعلى لجيشه ، فلما مثل بين يديه أمره أن يحمر جيشا لقتال شمس وقبيلتها عريبي وأن يمد مشاته معاول برورية ليدكوا بها الصخور والحصون .

وعلمت شمس أن تفلت فلاصر يتأهب لغزوها فاستدعت يربوع وحاطر وخباب وغمر رعماء القبيلة وقالت لهم :

— إلى لا أحب أن أقطع أمرا دونكم أتم رعوس القوم وسادتهم ، إن ملك آشور يتأهب لقتالنا فأشعروا على بالرأى .

— الرأى رأيك ، إسا لا تتصل بالسماء وإنما وصعماك على رعوسا لما بينك وبين السماء من أسباب ، قولى لنا ماذا ينبغي لنا العيب ؟

فأطرقت همس وقالت :

— لا يرال نعم آشور طاهرا ، إن دار القتال بيننا وبينهم مستكون العنة لهم .

— الحكمة تقضى أن نحمل الجزية إلى الملك قبل أن يدهمنا عرباته وخيله

ورجله .

فقال شمس :

— سيطلب منكم أن تجددوا العهد لشماش وأن تسجدوا لآشور .
— سنجدد العهد وسنحر ساحدين وسيظل ما في القلب في القلب ، فلن
تعرف نفوسنا الراحة قبل أن نزيل دولة الظلم من الأرض .
وخرج يربوع وحباب وتمر وحاطر من عريبي يحملون الحزبة والهدايا ،
واطلقوا إلى نينوى ليقدموا لتفلت فلاصر الولاء والخضوع وإن أغلقوا
صدورهم على ما فيها من مقت شديد .

وطلب بنو إسماعيل المثول بين يدي الملك فتأهب لاستقبالهم في قاعة عرشه
، بعد أن أمر أن توضع بها تماثيل آلهة الشعوب المهرومة التي حننها معه أسيرة
إلى نينوى لتكون لهم عبرة ولتسرل الرهبة في نفوسهم .

ودخل بنو إسماعيل على الملك وقدموا له الجزية وما حملوه من هدايا ،
فأجلسهم معه ليروا ما أعد لهم وقد تعمد أن يكون مجلسهم بحيث يروا تماثيل
الآلهة التي دامت لآشور بالخضوع .

ورأى بنو إسماعيل تمثال هدد إله الرعد وإله الآراميين وقد كتب عليه أنه
صار عبدا لآشور ، ورأوا العجل الذي صاغه بنو إسرائيل ليعبدوه بعد أن سوا
ديس آبائهم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ، ورأوا تماثيل العجل وآلهة
القبائل التي دحرها الآشوريون ، فلم ترتجف أثدتهم رعبا بل رادهم ذلك
كراهية ومقتا لآشور .

وقام الملك ليبلغ إلهه العطوف أن الملكة شمس بعثت زعماء قبيلتها يحملون
إليه الجزية ، وأنهم جاءوا صاعرين يعلنون له خضوعهم وولاءهم . وخرج
يربوع وخاطر وتمر وحباب من نينوى ، وما خلفوا أبراجها العالية خلفهم
حتى تعاهدوا على مناوأة آشور وشق عصا الطاعة وليكن ما يكون .

وهلك تفلت فلاصر واعتلى عرش آشور من بعده سرجون الثانى فى الوقت الذى ضاقت فيه الملكة شمس وشعبها بذل الخضوع للأجسى الدخيل ، وبمندوبه السامى الذى عينه تفلت فلاصر فى بلاطها ، وتلك التقارير التى كان يبعث بها ذلك « القبيو » إلى الحاكم الآشورى العام فى سورية .

كان بنو إسماعيل يتطلعون إلى الحرية ، فإن كانت آشور فرضت عليهم الجزية بسلطانها فإنهم لن يستكبروا لذلك الظلم إلى الأبد ، فما إن بلغهم هلاك تفلت فلاصر حتى ثاروا على الحكم الآشورى وطرّدوا المندوب السامى من أراضهم وامتنعوا عن دفع الجزية .

وثارت حماء على حكم سرجون . وجمع ملكها جيشا لجبا وانطلق به إلى قرقر لقتال الآشوريين بعد أن حث بقسم الولاء الذى أقسمه لرب آشور ، وثارت دمشق وإسرائيل والسامرة ، واتفق هنو أمير غزة مع فرعون مصر على أن يثور هنو فى وجه الآشوريين وعلى أن يمده فرعون بالعون والمساعدة والجنود .

ووجد سرجون فى مستهل حكمه ثورة مشوبة فى الأقاليم التى خضعت لآشور يفديها فرعون مصر . لقد شق عصا الطاعة بنو إسماعيل وبنو إسرائيل وبنو يهوذا والآراميون والفينيقيون ، وراح سرجون يفكر فى هذه الثورات العارمة فاهتدى إلى أن خير ما يفعل هو أن يستغل الموقف أحسن استغلال ، وأن يتصرف تصرف السياسى الحاذق وأن يتعدى عن النزق والتهور دون تبصر فى عواقب الأمور .

فلو أن هؤلاء الثائرين وجدوا من يجمعهم فى اتحاد كاتحاد الأخلامو الذى وقف فى وجهه شلمنصر لتعقدت الأمور وصار من الصعب ضرب كل هذه الشعوب . إنه يعلم علم اليقين أن مملكة إسرائيل ومملكة يهوذا مملكتان محاطتان بكرامية من حولهما من الشعوب ، فلو أنه هادن تلك الشعوب إلى حين ووثب

على إسرائيل ويهوذا فلن تحرك الأقاليم الأخرى ساكنة ، بل قد تبارك حملته
وتغض الطرف عن فظائع الآشوريين .

وحارب سرجون ملك دمشق وهزمه ، وحاصر عاصمة مملكة إسرائيل
ثلاث سنين ، ولما تم له فتحها أطاح بالرعوس وكومها جبالا عالية ، وسلخ
جلود الزعماء وهم أحياء وأضرم النيران في الدور ودك المعقل والحصون ،
وطرد سكان العاصمة إلى حدود ميديا ، وأخرج السامريين من أراضيهم .
قصي سرجون على إسرائيل وأخضع الفينيقيين وهزم هنو أمير غزة ،
وأضرم النيران في القرى والمحصولات ، وفتح مخازن الغلال لجوده ، وأباح
لهم المدن المهزومة يصنعون فيها ما يشاءون .

واطلق بجنده إلى شمس وقبيلتها التي حشت في قسمها مرتين وثارَت على
آشور مرتين وقد عزم على أن يلقن هؤلاء العرب درسا لي يسوه .
وعلى مقربة من مؤاب دارت معركة رهية بين جنود آشور والعرب
المدافعين عن حريتهم ، كان العرب على ظهور إبلهم يهجمون على عربات
الآشوريين كالليوث ، وكان سرجون في عربته يطلق كالسهم في صفوف
العرب ويعدو فرسانه عن يمينه وعن شماله ليقتلوا هجومه ويصوبوا رماحهم
إلى قلوب الشاردين والمدبرين .

وتبادل الطرفان الكر والفر وأطلقت السهام وتطايرت لنستقر في الصدور
وفي الظهور ، ووقفت شمس بين رجالها تحرضهم بأفضل ما فيهم وتذكرهم بما
سيحقيق بهم من ذل وعار إذا دارت عليهم الدوائر وحلت بهم الهزيمة .
وراح يربوع وخاطر وتمر وخباب يقاتلون قتال من يعرف ما سيزل بهم
من عذاب إذا انتصر عليهم سرجون ، فسيحملهم إلى نينوى ليضعهم فوق
الخوازيق أو يسلخهم وهم أحياء بين تهليل شعبه المنحون .

واضطر سرجون أن ينزل من عربته وأن يحارب على قدميه ، وعقر جمل

خباب وقتل خاطر واشتد وطيس القتال وراحت النصور تبعث نجث الضحايا ولم يظهر فريق على فريق .

وصاح صائح من العرب :

— اقتلوا سرجون . اقتلوا الملعون .

وحمل رجال القبيلة حملة رجل واحد وكان هدفهم الملك الآشوري بيد أن جنوده التعموا حوله ، والتحم الجيشان واشتبكوا بالأيدى واستخدمت الخناجر والسيوف ، وانجلى المعركة عن هزيمة العرب فقتل سرجون من قتل ودمر ما دمر ، وأشبع غضبه بأن فرض على شمس جزية ثقيلة ، وساق شباب القبيلة ونفاهم إلى السامرة من أرض فلسطين عقابا ونكالا .

وعاد سرجون إلى آشور بعد أن هزم الآراميين وأحرق دمشق وصب حام غضبه على إسرائيل وأسره هنو ودك مدينة رفح وسواها بالأرض وفرض سلطانه على بنى إسماعيل وترك في كل مكان أهراما من جماجم ضحاياهم . ودخلت عربات الآشوريين نيبوى تنهادى ، وهتف الشعب بسرجون ، وراح الكتاب يعدون رعوس الأسرى ، وعزف الموسيقيون على القيثارة أهزيج النصر ، ورفعت تمائيل الآلهة الذين لطمخوا بذل الهرمة فانطلقت حناجر الآشوريين بهتافات النشوة التى ماجت فى الصدور .

كان الحمالون يحملون الإله هدد الإله الرعد والإله بعل وبعل شمين رب السموات وأصنام العرب من بنى إسماعيل ، وتقدم ضباط الملك صفاء وأيديهم معقودة احتراماً وخلعهم قائد شاب يسوق الأسرى ، وعلى رأس موكب النصر هو أمير غزة وقد أوثقوه بحبل يقوده محارب يجذبه من شعره بين وقت وآخر ، ويدعاه دفعا إذا وقف يلتقط أنفاسه .

وظهرت الغنائم وكانت أواني من كل لون وصحافا وقدورا وأبواقا وسبائك من ذهب وفضة وأقمشة من حرير دمشق ، وزوجات الملوك

والأمراء اللائي وقعن في الأسر وبناتهم وأولادهم ، وما إن رأى الشعب كنه هذه الأسلاب حتى تعالت هتافاته وأدارت رأسه بشوة النصر .
وأرسل سرجون إلى إلهه آشور نصيبه في الغنائم ، وحمل إلى خزائن القصر ما أفاء آشور عليه ، ثم دخل سرجون ليقدم إلى ربه العطوف تقريره عن حملته :

« آشور السيد العظيم !
من يحكم الآلهة جميعا ،
من يمنح الصولجان والتاج ،
من يوطد أركان الملكية ،
أبو الآلهة وسيد الأقطار » .

وبعد أن سرد ألقابه وألقاب ربه وفصل تاريخ حملته راح يؤكد لإلهه العطوف ما فعله بالشعوب التي لم تشهد أن آشور رب الأرباب وإله الآلهة جميعا :

« من كل اثنين قتلت واحدا ، وأقمت حدارا أمام البوابات العظيمة بالندية ، وأمرت بسلح زعماء المتمردين وغطيت ذلك الجدار بخلودهم ، ووأدت بعض هؤلاء في بناء الحدار كما صلبت البعض الآخر ، وأمرت بسلح عدد كبير منهم وغطيت الحدار بجلودهم » .

وفي الوقت الذي كان سرجون يتغنى فيه بأبجاده وأبجاده إلهه آشور كان السفراء يمشون بين قبيلة قيدار والنبط وقبائل بني إسماعيل الأخرى ليحتلوا ويتعاهدوا على القصاء على آشور وعدواها .

كان حزقيا ملك يهوذا يرتجف فرقا من ملك آشور ، ففى كل عام كلما جاء ثموز شهر تجمع الجيوش ، تخرج حملة من نيبوى وتهاجم مدن يهودا وتضرم الميران فيها وتطبخ برعوس رجالها وتسمى نساءها وتبيح خيراتنا لجنود آشور .

وكان هوشع بن أهلة ملك إسرائيل يبعث سفراءه إلى فرعون مصر يطلب منه أن يمدّه بعبريات حربية وفرسان وجنود لكسر شوكة آشور ، وكان فرعون يعدّه خيرا ولكن القلاقل الداخلية فى وادى النيل كانت تضطر ملك مصر أن يحبس الجنود فى البلاد وأن يمدّ حلفاءه بمعونات يسيرة عاجزة عن أن يكون لها أثر فعال فى تقرير المصير .

نسى بنو إسرائيل الله فأنساهم أنفسهم وسلط عليهم من يسومهم سوء العذاب بعد أن هجروا دين آبائهم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وعبدوا العجل الذى سبكوه بأيديهم ، وسجدوا للنجوم السماء وعبدوا آلهة الأميين .

كانوا يتهنون على الشعوب بأن الله هداهم إليه دون البشرية جمعاء ، فبنو إسرائيل فى جانب والأمم جميعا فى جانب ، وجعلوا الخير كله فى بنى إسرائيل وما كان حظ الأمم إلا الضعة والموان ، وإذا بهم يتردّون فيما تردت فيه الأمم فعبدوا الأجرام والأوثان والأصنام .

وراح أشعيا النبى يحبب مملكة يهوذا يحطم الأصنام ويخوف اليهود غضب الله ويحذرهم أن يكون مصيرهم مثل مصير ملوم أرض لوط ويدعوهم إلى

ملة إبراهيم حيفا وما كان من المشركين .

وراح يقول لليهود :

— أيدىكم ملطحة بالدماء .. شاعت الفاحشة فيكم .. تأكلون في بطونكم أموال اليتامى .. تحبون الرشوة حبا جما .. رؤساؤكم لصوص .

وراح الله يوحى إليه من أنباء الغيب ، وأشعيا يحدث القوم بما يلقى في صدره من الوحي :

— يكون في آخر الأيام جبل بيت الرب ثابتا في رأس الجبال ، ويرتفع فوق التلال ، وتجري إليه نهج ، كل الأمم .

واستمر الله يوحى إليه من أنباء العيب وأشعيا يعلن ما يوحى إليه علام العيوب ، كان وحي بابل ينبئ بزوال آشور ، ووحى دمشق ينبئ بخراب عاصمة الآراميين ، ووحى مصر ينبئ بالحرب بين المصريين والآشوريين ، أما وحي بلاد العرب فكان ينبئ عن الرسول النبى الأمى الذى يخرج من الأمم لا من بنى إسرائيل :

— ووحى من جهة بلاد العرب ، فى الوعر فى بلاد العرب تبيتين يا قوافل الددانيين .. هاتوا ماء لملاقة العطشان يا سكان أرض تيماء . وافوا الهارب المهاجر ، بحظه ، فإبهم من أمام السيوف قد هربوا ، من أمام السيف المسلول ، ومن أمام القوس المشدودة ، ومن أمام شدة الحرب .

واستمر أشعيا فى إذاعة ما يوحى إليه علام الغيوب :

— هو ذا عبدى الذى أعضده ، مختارى الذى سرت به نفسى وصعدت روحى عليه فيخرج الحق للأمم ، ولا يصيح ولا يسمع فى الشارع صوته ، قضية مرضوضة لا تقصف ، وقيلة حامدة لا تطفأ ، إلى الأمان يخرج الحق ، لا يكل ولا يكسر حتى يضع الحق فى الأرض وتنتظر الجزائر شريعته .

أوحى إليه أن مختار الله من بلاد العرب وأنه سيخرج من دياره فرارا من

الاضطهاد ، ولكن من أى بلاد العرب سيخرج ذلك المهاجر في سبيل الله ؟
ولم يسكت الوحى عن ذلك ، إنه يقول صراحة إنه من قيدار وبابت ، من
نسل إسماعيل عليه السلام ، ويحدد المدينة التى سيشرق منها نور الله ^(١) :
— هكذا يقول الرب خالق السموات وناشرها .

يا سط الأرض وساطحها ،

معطى الشعب عليها نسمة ، والساكين فيها روحا ،
أنا الرب قد دعوتك بالبر ، فأمسك بيدك وأحفظك وأجعلك عهدا
لشعب ونورا للأمم .

تفتح عيون العمى وتخرج من الحبس المأسورين في بيت السجى الخالسين
في الظلمة .

أنا الرب ، هذا اسمى ومجدى لأعطيه لآخر ، ولا تسبيحى للمحوتات ،
هو ذا الأوليات قد أتت ، والحديثات أنا أخبر بها ، قبل أن تثبت أعلمكم بها .
غنوا للرب أغنية جديدة ، تسبيحة من أقصى الأرض .

أيها المتحدرون في البحر ومائه ، والخزائر وسكانها ، اترفع البرية ومدنها
صوتها ، والديار التى سكها قيدار ، لترنم سالع من رعوس الجبال ، ليبتفوا

(١) قال وهب بن ميه (في حديث طويل) إن الله تعالى أوحى إلى موسى من أنبياء بني
إسرائيل يقال له أشعيا : أن قم في قومك بني إسرائيل فإلى مطلق لسانك يوحى ، وأبعث
أميا من الأميين ، أبعثه ليس يخط ولا عليص ولا أصحاب في الأسواق ، لو يمر إلى جب
سراح لم يضعفه من سكبته ، ولو يمشى على انقصب لم يسمع من تحت قدميه . أبعثه
ميشرا وديرا ، لا يقول الحما ، أفتح به أعيا كمها وآداما صما وقلوبا عمدا ، أسدده لكل
أمر جميل ، وأهب له كل خلق كريم ، وأجعل السكينة لباسه ، والبر شعاره ، والنقوى
ضميره ، والحكمة منطقته ، والصدق والوفاء طبيعته ، والعمو والمعروف حلمه ، والحق
شريعته ، والعدل سيرته ، وأهدى إمامه ، والإسلام ملته وأحمد اسمه .

ليعطوا الرب مجدا ، ويخبروا بتسيحه في الجزائر .
الرب كالجار يخرج ، كرحل حروب ينهض غبرته ، يهتف ويصرخ
ويقوى على أعدائه .

قومي استنري لأنه جاء نورك ، ومجد الرب أشرق عليك ، لأنه هاهي
الظلمة تغطي الأرض والظلام الدامس الأمم .
أما عليك فيشرق الرب ومجده عليك يرى ، تسير الأمم في نورك والملوك
في ضياء إشرافك .

ارفعى عينك حواليك وانظري قد اجتمعوا كلهم ، جاعوا إليك يأتي
بوك من بعيد ، وتحمل بكاتك على الأيدي

حيثد نظرين وتيرين ، ويخفق قلبك ويتسع ،
لأنه تتحول إليك ثروة البحر ، ويأتى إليك عى الأمم وتعطيك كثرة حمال
بكران مديان وعيفه كلها تأتي ومن شا تحمل ذهباً ولبانا وتبشر بتسايع
الرب .

كل غنم قيذار تجمع إليك .

كباش نبايوت « نابت » تحمدك .

تصعد إليك مقبولة على مديحي وأزير بيت جمالي .

وكما كانت عادة ملوك آشور هاجم سنحاريب جميع مدن يهوذا ، وسقط
حرقيا ملك يهوذا أسيراً في أيدي الآشوريين فحملة الجيش المظفر إلى آشور .
ودخل الجيش نينوى وعزفت الموسيقى وراح الكتاب يحصون رعوس
الأسرى ، وجلس سنحاريب على عرشه ينظر إلى حزقيا الملك الأسير وقد
اتجمعت عيناه سرورا ورفرت على شفثيه شماتة الشامتين .

وحىء بحرقيا ووقف ذليلاً أمام سنحاريب ، وتعالى هتافات الشعب
المتنصر ، وبدأ الحلابدون يسلخون اليهود أحياء ، ورأى حزقيا ما رأى

فخارت قواه وقال في توسل لسحاريب :

— قد أخطأت ومهما تضع على من جزية أحملها إليك .

فقال ملك آشور :

— ثلاثمائة وزنة من الفضة وثلاثون وزنة من الذهب .

ودفع حزقيا جميع الفضة التي كانت في بيت الرب وفي خزائن بيت الملك ولم يصل الذهب الذي كان في خزائنه إلى ثلاثين وزنة ، فراح حزقيا يقشر رقائق الذهب عن أبواب هيكل أورشليم هيكل الرب لينقذ جلده .

ومرت سنون وعاد حزقيا بمكر في رمض دفع الجزية لآشور ، فبعث سحاريب و التورتان و القائد الأعلى للجيش إلى السامرة في جيش عظيم ، وراح رجال آشور يتحدثون رسل حزقيا على الملأ :

— على من اتكلت يا ملك أورشليم ؟ على فرعون مصر ! إن فرعون مصر أضعف من أن يتجدد حلفاءه .

ثم قالوا للناس الذين تجمعوا على أسوار أورشليم :

— اسمعوا كلام الملك العظيم سحاريب ملك آشور ، يقول لكم : لا يفركم حزقيا فإنه أعجز من أن يخلصكم من يدي ، ولا ينجدكم حزقيا بقوله إن الرب قادر على أن ينقذكم مني وإنه قادر على ألا تسقط مدينتكم في يدي ، هل أنقذت آلهة الأمم عبادهم من يدي ؟ من آلهة الأرض أنقذ أرضه من سلطاني حتى ينقذ إلهكم أورشليم من أن تسقط فريسة في قبضتي !

يقول لكم ملك آشور : اعقدوا معي صلحا حتى آتي لأخذكم إلى أرض كأرضكم ، أرض حنطة وخمر ، أرض خبز وكروم ، أرض زيتون وعسل ، واحبوا ولا تموتوا .

وبلغ حزقيا ما قاله رسل سحاريب لشعبه فمزق ثيابه وبعث رسالة إلى أشعيا النبي يلتمس عون .

ودخل أشعيا المحراب وصلى لله وأطال الابتهال والسجود ، وهذا كل شيء
وعقب المكان بأريج طيب ، وبدأ أن الأرض تتلقى وحى السماء ، ثم رفع أشعيا
رأسه وقال لرجل حزقيا :

— قولوا السيد كم لا ترجف فرقا مما سمعت ، إن الله سينتقم من منحاريب
لتطاوله على ذاته العلية ، وسيرديه بسيفه في أرضه ليكون عرة للعالمين .

اجتمع في دومة الجندل ملوك بني إسماعيل يتشاورون ، فقد استقبل
 خزائيل ملك قيدار تلخانو ملكة عريبي وكاهنتها وملك النبط وزعماء القبائل
 العربية في قصره ، وحضرت الاجتماع الأميرة الشابة تابوه بنت تلخانو ، فلما
 تم عقد الأمراء الإسماعيليين قالت الملكة تلخانو :
 — نظرت في الهجوم رأيته أن ملك آشور في أفول ، هبعت إلى خزائيل
 ليدعو لهذا الاجتماع .

فقال خزائيل :

— إن سحاريب ظاهر على كل الملوك ، ما خاض معركة إلا كتب له
 النصر .

وقالت تلخانو في ثقة :

— رأيته في المنام كأن عاصفة هوجاء اجتاحت آشور فألقت ثيرانها
 المجنحة على جنوبها وكبتها على وجوهها ، ثم ما لبثت تلك الثيران أن تطايرت
 في الهواء . ولما انقشعت العاصفة رأيته سحاريب يسبح في بركة من الدماء .

فقال قائل في خوف :

— لعله يسبح في دماننا .

فقال تلخانو :

— كان جثة هامدة .

وقال خزائيل ملك قيدار :

— ثارت بابل على سحاريب لتتخلص من حكم الآشوريين .

فقال تلحانو :

— لهذا دعوت لعقد اجتماعنا هذا .

— وماذا تريد ؟

— أن نخرج بجيوشنا لتأييد بابل في ثورتها ، ونضرب آشور معا الضربة القاضية .

فقال صوت الخوف :

— وإن انتصر سنحاريب ؟

فقال تلحانو في ثقة :

— ستكون نهاية آشور على أيدينا نحن بى إسماعيل .

كان نفوذ الملكة تلحانو واسعا يمتد من دومة الجندل إلى حدود بابل ، فما أيسر إمداد الثائرين في بابل بالمقاتلين العرب من البادية ، ولم يكتف زعماء العرب بتشجيع ثورة بابل وتأييدها بجيوشهم بل رأوا أن يهاجموا المقاطعات الآشورية في الشام وفلسطين ، ولم يعرف ذلك الرأي تلحانو فقامت :
— إن مهاجمة المقاطعات الآشورية في الشام توهين لقوانا وتشتيت لجيوشنا .

فقال خزائيل :

— إنه تأمين لظهورنا ، إلى أخشى إذا سرنا إلى بابل وانشغلنا بقتال آشور أن تزحف حاميات المقاطعات الآشورية في سورية وتطعننا من الخلف .
ووافق الحاضرون على رأى خزائيل ملك قيدار ولم يستمعوا إلى ما أشارت به تلحانو ، واحتير خزائيل قائدا للجيوش العرب .

واحتتمعت الجيوش تحت إمرته فصار إلى أرض عريبي ثم تقدم في البادية حتى دخل بابل وانضم بجيوشه إلى جيوش البابليين لقتال سنحاريب ، وبعث السرايا لمناوشة المقاطعات الآشورية في سورية ليشغل حكامها عن الخروج

لتأييد ملكهم .

وراح كل جيش يحمل تماثيل آلهته لتؤيده في حربه ولتنتصر على آلهة أعدائه ، فقد كان القتال قتال آلهة ، أما الجيوش فما كانت تتحرك إلا بوحى من آلهتهم لتمد سلطانها على أعدائها من الشعوب .

كان جيش آشور يحمل تماثيل آلهتهم آشور وعشترو وأونو وأدادو وكان جيش بابل يحمل تماثيل مردوخ وسين وشماس وعشتار ، وكان جيش العرب يحمل تماثيل اللات ، ودارت الحرب وانطلقت العجلات تحترق بوابة عشتار وتدور حول المعابد والأبراج ، واشتد الطعن والنزال وراح كل جيش يدافع عن آلهته ، وجاءت الإمدادات من آشور ومن البادية على السواء .

اختلطت العجلات بالفرسان ، وشدت الأقواس وأطلقت السهام والنال ، وأشاعت الإبل الفوضى في صفوف المشاة ، وارتفعت الصيحات وسالت الدماء ، وهرشت جثث القتلى الأرض وزلزلت بابل زلزالا شديدا . وانجابت المعركة عن انهزام البابليين وحلفائهم العرب واستتصار سنحاريب ، فانسحب خزائيل وجيشه وترك أهل بابل لمصيرهم المحتوم .

أخذ سنحاريب بضع زعماء الثوار على الخواريق ، ويضرب الرقاب ويزين أسوار بابل بالرعوس ويصنع منها أعلام البصر ، ويسلخ الرجال أحياء ويحرق الدور وينهب المعابد ويترك كل ما تقع عليه يده قاعا صفصفا ، ثم يسوق الأسرى من أصنام الآلهة والساء والعالم إلى نينوى ليشارك شعبه في احتفالات النصر المبين .

وفي طريق عودة الجيش العربي قامت مشادة بين تلحانو وخرائيل قالت تلحانو وهي غاضبة :

— كنت أنت سبب الهزيمة ، فلو استمعت لصحى لكنا الآن في طريقا إلى نينوى ، ولكلك تشيت برأيك وبعثت الجيوش لمساواة المقاطعات

الآشورية في سورية فأضعفت جيوشنا ، ولم تحز نصرا واحدا على تلك المقاطعات .

— لو لم أفعل لكنا نساق الآن أسرى إلى نينوى .

فقالت تلخانو في يأس :

— إذا كنا أفلتنا اليوم من الأسر فسنساق إلى نينوى غدا .

فقال خزائيل في حدة :

— عشتار أقرب إليهم من هنا .

— سيسلحونك ويلصقون جلدك بحدار سور نينوى .

فقال خزائيل :

— هيهات .

— وإن فعلوا ؟

— وما يضير الشاة سلحها بعد ذبحها .

وانفصل حلفاء الأمس وقد دب بينهم الشقاق ، ولكن قلوبهم اتحدت على

بغض آشور .

وعادت تلخانو إلى عريبي تنتظر قضاء سنحاريب ، تزد في أعوار نفسها

سحرية خزائيل بها : « أين وحى السماء الذى حدثنا به ؟ إن آشور لم تهزم

ولم تسبغ حثة سنحاريب الهامدة في بركة من دمه ، إنه خاض بعجلاته في

دمائنا . لو أنصف شعبك لقتل كاهنته الكاذبة » .

وأعد خزائيل السم ليحصن حومة الجدل عاصمة الفيديارين تأهباً

للحرب التى ستشب بينه وبين سنحاريب ، هما كان ملك آشور ليسكت

على انضمامه إلى ثوار بابل ومحاربة آشور وإعلانه على الملأ كراهيته لحكومة

البرابرة .

وقفل سنحاريب عائداً إلى نينوى مزهواً بصره يسوق الأسرى والعنائم

والأموال إلى معبد آشور وإلى خزائن قصره ، وقامت احتفالات النصر بما فيها من إراقة دماء وصلب وسلخ ، ثم استراح إلى زوجه زاكوتو وكانت امرأة داهية فراحت تغريه بأن يولى ابنها أسارحدون من بعده ليكون لها الكسمة في البلاط الآشورى ، فما كان أسارحدون يعصى لأمه أمرا .

وتأهب سنحاريب لقتال العرب فأيام آشور كلها قتال ، وعلى الرغم مما كان بين تنحانو وخزائيل من شقاق فقد اضطرها الخطر المشترك إلى أن يتحدا وأن يخرجوا ليدافعا عن حريتهما . وسار سنحاريب من بابل إلى النادية وإذا بجيش العرب يستقبله في الصحراء وإذا بمعركة طاحنة تدور في الفضاء ، وانقضت نسور السماء تعبت بالحث بعد أن اسحب حزائيل وتنحانو وابنتها تابوه ليتحصنوا في حصن دومة الخندل .

وتقدم سنحاريب إلى معقل أعدائه الذين ملأوا أيدي المساعدة لكل من ثاروا عليه ، إلى الذين بدت البعضاء من أهواهم وما تحفى صدورهم أكبر ، إلى بنى إسماعيل أشد الشعوب بغضا لآشور .

وبلغ سنحاريب دومة الخندل فألقى العرب قد تحصنوا في المدينة واعتلوا أسوارها يلقون على عربات آشور وألا من الحجارة والمشاعل والسهام المشتعلة .

وأمر سنحاريب أن تنقدم الدبابات وهى عربات أقيمت عليها أعمدة غطيت بأسقف لتحشى المهاجمين من الحجارة التى تلقى من فوق الأسوار ، فراحت الدبابات ترحف حتى دنت من سور المدينة ، فأمر حزائيل رحاله أن يصبوا على الآشوريين الزيت المغلى .

وارتفعت صرخات الفرع وهوت الأجساد تتلوى على الأرض وتقهقرت الدبابات ، ولكن سنحاريب أمر جنوده أن يشدوا على الأعداء ليقوصوا الحصن فعادت الدبابات تستأنف الهجوم ، وراح العرب يلقون الحطاطيف

ليترعوا أسقف الدبابات حتى ينكشف الجنود لوابل الحجارة والسهم المشتعلة والزيت المغلي .

ونجحت دبابات آشور في أن توطن مراكزها بالقرب من السور فراح المهاجمون يقوضونه بمعاولهم البرونزية ، ونجحوا في أن ينقبوه في أكثر من موضع فتدقق الحود من الثقوب كالجرذان ، ودارت معركة رهية بين العرب والآشوريين بالقرب من باب الحصن استخدمت فيها الرماح والخناجر والمعاول البرونزية ، ونجح الآشوريون في فتح الباب فانطلقت العربات كالسهم وانقضت على المدافعين كالصاعقة ، فكثر الطعن والزال والكر والفر وارتفع صهيل الخيل وصليل السيوف .

وصاح خزائيل في خيرة جنوده احملوا حملة رجل واحد ، شدوا يما رجال .

وانطلقوا يساقون الريح ويهزون الرماح وهمحوا في عصف وصدق وإصرار فإذا بصغوف الآشوريين تخرج ، فاحتل خزائيل ومن معه هذه الفرصة وأفلتوا من الحصار الذي ضرب عليهم وفروا إلى الصحراء .

واشتد الحق سنحاريب فقد كانت أمنيته أن يقبض على عدوه اللدود فيضعه في قفص ويحمله أسيرا إلى بيوى ليطوف به على شعبه ليشمى عليه ويروى ظمأه إلى الدماء ، ولكن خزائيل نجح في أن يحطم الحصار وأن يلوذ بالصحراء وهو أدري من الآشوريين بدروبها ومسالكها .

واستسلمت تلحانو ملكة عريى لسنحاريب وقبلت أن تدفع ما فرضه عليها من جرية ، ولم يكتف سنحاريب بما قتل وصل من رجال بل أخذ تابوه ابنة تلحانو معه لئلا يترى في بلاط قصره ولتعلم الولاء لآشور

وساق سنحاريب الأسرى والغنائم إلى بيوى وحرّح الشعب بحمى البطل ، واستقلته زوجته راكوتا بالبشر والترحاب وريست له أنه يجلس انه

أسار حدون معه على عرشه في أثناء الاحتفال بالنصر المين .
واستوى سنحاريب على عرشه وقرب إليه ابنه أسار حدون ، فأوغر ذلك
صدرور إخوته فلم يكن أسار حدون أكبر أبناء ملك آشور ولم يكن ولي
عهده .

وعزفت الموسيقى وسار موكب الأسرى من رجال ونساء ، ثم وضع
زعماء قيثار وعريبي ومن لاذبهم من بني إسماعيل على الخوازيق ، وراح
الجلادون يسلخون بمدبهم الطويلة الرجال وهم أحياء بين هتاف الشعب
وتهليله .

وتمت مراسم الاحتفالات وقدم سنحاريب إلى إله آشور تقريراً بما كان
وبعدد الأسرى والغنائم ، وسار في ردهات القصر مرحاً وإذا بأشمن من آبائه
يفاجئانه ويطعمانه في الصميم ويلوذان بالفرار .
سقط سنحاريب يخط في دمه وسكنت حركته إلى الأبد ، وتحققت رؤيا
تلخانو وصدقت نبوءة النبي أشعيا .

استولى أسارحدون على ملك آشور وكان يعرف أن الفضل لأمه زاكوتا في ارتقائه عرش البلاد ، فما كان يرم أمرا دون أن يستشير أم الملك . وعرف حكام الأقاليم أن الحل والربط في يد زاكوتا إن شاءت رفعت وإن شاءت أقصت وإن شاءت سيرت الجيوش للفتك بأعداء آشور وإن شاءت صفحت ، فراح الجميع يخطبون ودها ويعثون إلى أم الملك بالتقارير عن حالة الدويلات التي خصعت لآشور .

وراح أسارحدون وأمه يتشاوران : إن مصر هي رأس المتاعب فهي تقف في وجه التوسع الآشوري وتعرض حكام البلاد التي دانت لآشور على الثورة ، ولا تكفى بالتحريض بل تمدهم بالعناد والحيوش .

وكانت الأسرة الكوشية في مصر أسرة قوية لها مطامع ، وكان ملوكها من ملوك نباتا في شمال السودان وكانوا في الأصل من الكهنة المصريين الذين فروا إلى الجنوب أيام أن هاجمت الجيوش المرتزقة في ليبيا وادى النيل واستولت على ملك مصر . وقد رحف ملوك نباتا من الحبوب وطهروا شمال الوادي من أسرة الجلود المرتزقة التي جاءت من ليبيا وأعادوا لمصر وحدتها ، بل وأخذوا يفكرون في إعادة ما كان لها من نفوذ في جنوب غربى آسيا وعلى الأخص فلسطين .

وراح أسارحدون وأمه زاكوتا يدرسان الأحداث التي وقعت أيام سنحاريب ، فقد انضم العرب إلى ثوار بابل ، واستسلمت تلخانو ملكة عريبي إلى حين ، وحملت ابنتها نابوه إلى البلاط الآشورى لتلقن فيه حب

آشور . ولكن حزائيل ملك قيدر مر إلى الصحراء وقلبه ينبض بالكراهية للآشوريين هل يتورع عن أن يمد يده إلى أعداء آشور .

ومات ملك مصر بعد قتل سحاريب فتودى بأخيه طهرقا بن بعضي ملكا على البلاد ، وإن طهرقا لمن أشد أعداء آشور الألداء فقد خرج أيام ملك أخيه على رأس جيش إلى حدود مصر ليساعد ثورة إسرائيل ، عندما حاصر سحاريب أورشليم واضطر أن يرفع الحصار عنها لما تمشى في جيشه وباء الطاعون .

وراحت زاكوتا تفت في صدر أسارحدون مفت بى إسماعيل وكراهية بنى إسرائيل وعداء المصريين . وكانت تزيى له الاستيلاء على أورشليم وتقويض هيكل سليمان وقاتل المصريين واعتلاء عرش الفراعين ، كل ذلك باسم آشور ، حتى يسيطر الإله العظوف الإله الرحيم على أعدائه ويمد نفوذه على العالمين . ولكن حقيقة هذه الحروب كلها كانت الرغبة في الاستيلاء على طرق التجارة وحمل حيرات بلاد البحر الأبيض وبحر العرب « البحر الأحمر » إلى بنوى . فقد كان القتال منذ عرف البشر الحروب قتالا اقتصاديا وإن أعلى مرة باسم رع وآمون ، ومرة أخرى باسم مردوخ وعشتار ، ومرة ثالثة باسم عشتار وآشور .

وراح أسارحدون يلقي نظرة على تماثيل الآلهة التي حملت دليلا إلى نينوى ، آلهة بابل وآلهة العرب وآلهة بنى إسرائيل وآلهة الآراميين ، وطافت به أمنية أن يأتي ذلك اليوم الذى يحمل فيه إلى آشور آلهة الفراعين .

وجاء كبير رجال القصر والبشر في وجهه وقال :

— حزائيل ملك قيدر جاء يتمس المشول بين يدى مولاي العظيم .

فقال أسارحدون وقد تهبل بالبشر :

— حزائيل هنا فى نينوى ؟

— إنه واقف بباب مولاي !

ولم يستطع أسارحدون أن يكتم ما به من فرح فقال :

— شكرا لآشور ! شكرا للرب العطوف !

وجلس أسارحدون على عرشه وعن يمينه أمه راكوتا وابنه آشور بانيبال وعن يساره تابوه ابنة تلخانو ملكة عريبي وكاهنتها ، الأميرة العربية التي كانت تربي في البلاط الآشوري ويفرس في وجدانها حب آشور .

ودخل خزائيل وابنه يطع ووجوه قومه ، وما إن رأوا أسارحدون حتى خروا له ساجدين ، فانتفخت أوداج ملك آشور غرورا وأمرهم أن يرفعوا رءوسهم وأن يجلسوا إلى جواره .

وأقبل الرجال يحملون هدايا نفيسة أدخلت البهجة على قلب أسارحدون ، فأقبل على خزائيل يرحب به ويرعاه رعاية الصديق للصديق .

وبعد حفلات الترفيه والترحيب ، وبعد أن أزوجت أم الملك الصائح إلى ابها بدأت المفاوضات بين الملكين فأقسم خزائيل يمين الولاء لآشور وقبل أن يسوق كل عام خمسة وستين من الإبل إلى نينوى أكثر مما كان يدفع أيام سنحاريب قبل أن يعلن ثورته على الآشوريين . على أن يعيد ملك آشور إليه آلهته ، وعلى أن يضمن ملك قيدار لابنه يطع من بعده .

وخرج خزائيل من نينوى يحمل تمثال آلهته وهو سعيد بأن خلاصها من أسرها ، بينما ساد شعوب بني إسماعيل وجوم مالت أن انقلب إلى ثورة تتأجج في الصدور . فقد قبل خزائيل ملك قيدار عار النذل ولكن بني إسماعيل لم يرضوه ، هوطدوا الحرم على الثورة على ظلم آشور ، وعلى كل من طأطأ رأسه مهم لآشور فسرت فيه روح المهريمة وقبل الاستسلام المهين .

ووجد خزائيل على دومة الجندل عاصمة ملكه وهو يحمل تمثال الآلهة ، فارتفعت الابتهالات وانفعلت القوس حتى سالت العبرات ، وضحت

جنابات العاصمة بالتهليل ، ولكن ما إن وضعت الآلهة في محاريبها وقرأ الكهنة ما نقش عليها في نينوى حتى ثاروا وحرصوا الشعب على الثورة ، فقد نقش عليها أن آشور رب الأرباب ، ودنست باسم أسارحدون !
وماتت تلخانو ملكة عريبي فأرسل أسارحدون الأميرة تابوه في موكب ملكي لتتربع على عرش العرب بعد أمها ، ولم يرحب الشعب بمقدمها فقد أغلقت قلوبهم دونها فهي ربيبة البيت المالك الآشوري ترعرعت في أحضان أبغض أهل الأرض إلى قلوب العرب ، فأطلت الثورة عظمها في أرض العرب الشماليين .

ومات حرائيل وولى الملك بعده ابنه يطع بتأييد أسارحدون ، ففرض عليه أن يؤدي له عشرة أميان ذهب وألف حجره بيروقي « ومائة قربة مليئة بالمواد العطرية ، أزيد من الخزينة التي كان يدفعها أبوه .

وقام وهب في قيدار نائرا على هذا الخزي ، وراح يحرض الشعب على شق عصا الطاعة على يطع وآشور معا ، ولم يكتف بذلك بل سار إلى مملكة عريبي ينفث في الشعب روح الثورة على تابوه ربيبة آشور وصنيعتها ، ويدعوهم للجهاد المقدس .

ومشى إلى الببط أبناء عمومته واتفق معهم على أن يخلعوا ربة آشور من أعناقهم وأن يعودوا أحرارا كما خلقهم الله . واندلعت الثورة على أسارحدون في ممالك بني إسماعيل من حدود بابل إلى سباء .

وسرت روح الثورة إلى بابل فهبت لتسترد حريتها ، ورأى طهرقا ملك مصر أن الفرصة سانحة لتأليب الميسقيين على حكم الآشوريين فراح يتصل بملوك صور وصيدا لمساواة آشور في ممتلكاتها في سورية ، وخلق المتاعب أمام الحكم الآشوري .

ورأى أسارحدون أن الثورة شبت في أرجاء ملكه تريد أن تنفضه من

أطرافه ، فخرج في جيشه وأحمد ثورة بابل وحرب ودمر وقتل وأطاح
بالرعوس وسلخ الجلود وزين بها الجدران ووضع زعماء الثورة على الخوازيق
ثم قال :

— صعد الآلهة والإلهات الذين كانوا يفتنون بابل إلى السماء ، بينما
خضع من كانوا فيها من البشر للبر والمار والأعلال والقيود .
وبعث أسارحدون جيشاً تحت إمرة القائد الأعلى للجيش الآشوري لمحاربة
بنى إسماعيل الثائرين ، ودارت رحى الحرب بين الفريقين فرححت كفة آشور
وثبت وهب وأبى أن يلوذ بالفرار .

واشتد وطيس القتال ، وشد الآشوريون على وهب وصحبه فأبى وهب
أن يزول من مكانه وظل واقفاً كالطود يمشى إلى أعدائهم مشى الوعول ، يسدد
سهامه إلى محافل الآشوريين التي جعلته هدف هجوماً .

وسقط الرجال صرعى حول وهب وهو كالنيت يدايع عن عربه وعن
حرية شعوب لم تعرف الخنوع ألبتة . وضاعت الحلقة المضروبة حوله
وحول من ثبت معه وكثر فيهم القتل إلى أن وقع وهب وحفنة من الرجال
أسرى في أيدي الآشوريين .

وعاد جنود آشور إلى بيوى بأعلى غنيمة وقعت في أيديهم ، بوهب العرى
الثائر من زين للعرب جميعاً الثورة على آشور ، وعزفت الموسيقى واستوى
أسارحدون على عرشه وجلس إلى جواره أمه زاكوتا التي غرست في قلبه
القسوة على أعداء آشور ، وابه آشور بانيبال أحب أباء أسارحدون إلى قلب
راكوتا لأن قلبه قد من صخر ولأنها تراه أشد قسوة من أبيه ، فهو رجل آشور
المنتظر .

وسار وهب وهو مكبل بالقيود في طرقات بيوى بين هتافات الشعب
العداية ، وقادوه إلى حيث جلس ملك آشور فوضع الأعلال في عنقه وفي

أعماق صحبه فتعالت صيحات الشعب ، وأمر أسارحدون أن يربطوا في قوائم باب قصره .

ولم تهمد ثورة بنى إسماعيل ولم يستكينوا للملوكهم الذين دانوا بالولاء للقوة الفاشية ، ولم يدب اليأس في قلوبهم بل مشيت سفارات الزعماء بين قدار والنبط ومسا وأدبئيل في سيناء .

وهت مدينة صور تحلق المتاعب للآشوريين في المنطقة وأيدها طهرقا ملك مصر في ثورتها ، فبعث أسارحدون الجيوش لإخماد هذه الثورة ، ولكن جيوشه أحفقت في اقتحام أسوار صور الحصينة ، فرأى أسارحدون أن يأتي بنفسه لذلك حصونها ويشيع الخراب في أرجائها .

وجاء أسارحدون فاستعصت عليه المدينة ولم يستطع التغلب عليها وكان لا بد أن يرفع الحصار عنها ، ولكن أيعود إلى ينوى والهرمية في ركابه ؟ فعقد العزم على أن يطلق إلى مصر ليضع حدا لتدخل مصر وإثارة القلاقل في ممتلكاته ، وليتحقق حلمه الذي راوده سنين : أن يحمل إلى يسوى آلهة المصريين أسرى وأن يرغم عبادها على أن يسجدوا لآشور .

وترك مية صور محاصرة وتقدم بجيشه إلى وادي النيل ، واستولى في سيناء على آلاف الجمال لنقل المؤن والمياه ، واستمر في رحفه حتى وصل إلى وادي الطميلات في شرق الدلتا ، وبعد خمسة عشر يوما سقطت في يده منف عاصمة باردة .

ولما عاد أسارحدون من هذه العروة راح يقدم تقريره إلى إلهه آشور عما فعله نصر وبطهرقا ملك مصر فكسب .

« ومن مدينة « اشهورى » حتى مدينة منف مقر الملك ، وهي مسيرة خمسة عشر يوما ، كنت أحارب طهرقا « طرقو » ملك مصر وكوش المعون من جميع الآلهة العظيمة حربا دامية لا هوادة فيها ، وقد أصبته خمس مرات

سنان سهامى وأحدثت فيه جراحا لن يبرأ منها ، ثم حاصرت منف مقره الملكى واستوليت عليها بإحداث النقوب فى أسوارها وكسرها مستخدما سلاح الهجوم ، وحربتها ودككت أسوارها وأحرقتها وحملت روجته الملكية وساء قصره و « أوشانا هورو » ولى عهده وأولاده الآخرين إلى آشور ، واستوليت على ما كان يملكه من ماشية وجياد لا يحصى عد ، ولا يحيط بها حصص .

وطردت جميع الكوشيين من مصر ولم أترك واحدا منهم ليقدم خضوعه ، وفى كل مكان من مصر عينت ملوكا جددًا وحكاما وضاطا ورؤساء للموانى وموظفين ورجالا للإدارة ، وربت قرابين للإله آشور وسادق الآلهة العظيمة الأخرى .

ومرضت عليهم الحرية يقدمونها إلى عن يد وهم صاغرون ، وهأنذا أمر الجناة أن يحصلوها فى عنف دون رحمة أو إمهال ، وأمرت بعمل هذه اللوحة وعليها نقوش باسمى ، وكنت فيها أمتدح قوة ربي آشور وأعمالى العظيمة عندما كنت أحارب العدو وفقا لأوامر ربي آشور الصادقة ، وأقمته لتبقى على مدى الزمان حتى تراها بلاد أعدائى ،

ترى أتقبل مصر الهريمة راضية ؟ ويام بو إسماعيل على الضيم ؟ ونقبل سورية أن ترسف فى أغلال الاستعمار الآشورى ؟ وتحنى بابل رأسها لآشور إلى الأبد ؟

هلتك أسار حدود واعلى آشور بانيبال العرش بتأيد جدته زاكوتا التى رعته
مد كان طفلا وكانت تعده لذلك اليوم العظيم ، يوم تصبح السلطة فى يده
ليحقق الأحلام التى بثتها جدته فى وجدانه ، فقد كانت تحلم بأن تمتد رقعة
آشور لتشمل أرجاء الأرض وتسيطر على العالمين .

هزم ابنها أسار حدون الفراعين وحمل نساء طهرقا وولى عهده ومركانته
الملكية إلى بىوى ، ولكن سقوط منف فى أيدي جنود آشور لا يعنى استباب
الأمر فى مصر للملك آشور ، فالخطر كامس هناك فى الجنوب ، فإن أمراء طيبة
لم يناموا على الصيم وسيثورون على حكم نينوى كما ثاروا على حكم
الهكسوس .

وراح آشور بانيبال بوحي من جدته زاكوتا يتأهب للإطلاق إلى طيبة
ليقضى على الحكم الكامس فيها ، ولكن الأمر لم يكن سهلا فقد كان يخشى إذا
انطلق إلى مصر أن تدلع الثورات فى بابل وممالك بى إسماعيل وصور ، فرأى
قبل أن يغامر بالسير إلى وادى النيل أن يغزو بابل وأن يحضد شوكتها ، وأن يطمأ
بعرباته أرض العرب من بنى إسماعيل ، وأن يفتح حصن صور الذى امتنع على
أبيه .

وانطلق بجيشه إلى بابل فهرم جيشها وعاث فيها فسادا ، ولما كان أقصى
ملوك آشور قلبا فقد أمر بقطع رعوس المهرومين وشق شفاهمهم وقطع
ألسنتهم ، وأمر بإرسال المشوهين إلى نينوى ليرضى شعبه المريض .
ونبعت الكلاب فمرق أوصال بعض الأسرى وألقى بها إليها ، فأقبلت

الكلاب على الأشلاء تنهشها — وأعجبته الفكرة فراح يقطع الأسرى ويلقى بأجسامهم للدناب والخناير وجوارح الطير وفي القنوت ليضعهم الأسماك .
وكان يلتفت إلى من حوله ويقول في ورع :
— ما فعلت هذا إلا إرضاء لقلوب الآلهة !

وأباح سوسة للجنود شهرا ليهبوا ويهبوا ما حولها من أراضي ، واستولى على ثروات ملوك عيلام ووزعها بين معابد آشور وجنوده المتعطشين للدماء .

ونادى الحاكم الآشوري على بابل وأصدر إليه أوامره سبب قور الملوك الأقدمين ورفع عظامهم حرمانا لأرواحهم من الراحة إلى الأبد ، كأنما لم يرو حقه دماء الأحياء التي سالت أنهارا فصب جام غضبه على أحداث الموق .
واندفعت جيوش آشور بانيال غربا نحو فينيقية ، ولبسوا هناك الثياب الأرجوانية التي ابتاعوها من التجار ، ولا عرو فقد اشتهرت هذه الأرض بالصفة الأرجوانية التي كانت تصبغ بها الثياب ، وسميت لذلك أرض كنعان أي الأرجوانية قبل أن يندمج الكنعانيون في الفينيقيين .

وحاصرت جيوش آشور صور وصيدا وييلوس ، وتحصن الفينيقيون في الحصون وألقوا على المهاجمين الحجارة من فوق الأسوار ورموهم بالأسهم المشتعلة والزيت المغلي ، وعلى الرغم من استبسال المدافعين فقد نجح جنود آشور في نقب جدران الحصون معاولهم والتدفق من القنوت إلى داخل الحصون . واشتد القتال وكثر القتل في الجاسين ، وانتهرت الأسوار واستولى الشعب على الرجال ، ففقد صير الفينيقيين فاستسلموا للقتل والتعذيب ، فقطعت الرعوس وريئت بها أسوار الحصون ، وشقت الشفاه وقطعت الألسن وسلح بعض الرجال وهم أحياء ، ووضعت القيود في أيدي الرعاء وفي أعناقهم وسبقوا إلى نبوى زمرا وعرايا ، فأخلوا برددون والأسى يمزق أكبادهم : يا

له من ذل وهوان !!

وغرض آشور بانيبال الخزية عليهم فأرسلت إليه صور وصيدا وبيلوس كميات من الفضة والذهب والرصاص والبرونز ، وخمسة وثلاثين إناء من البرونز ، وملابس من أقمشة زاهية الألوان ، وكمية من العاج ، ودر فيل من البحر الأبيض ، فاعتكف ليسجل نقوش انتصاراته الباهرة وليمجد إلهه آشور الذي مكن له في الأرض ونصره على أعدائه .

وكان أسار حدون قد أيد تنصيب يطع ملكا على قيثار بعد موت خزائيل ، وكان الآشوريون يطعمون في أن يذكر لهم يطع هذا الحميل فيستكين لحكمهم فيأموا جانب أكثر الناس بغضا لآشور . ولكن ما إن هلك أسار حدون وتولى الملك آشور بانيبال حتى صاق يطع بالعودية لآشور ، إبه حر سليل الأحرار من سادات بني إسماعيل لا يقل الصيم ولا يرصى باهوان . لخير له أن يقتل ويسلح جلده وهو حي من أن يعطى بنو قيثار الجرية للآشوريين عن يد وهم صاغرون .

ومشى يطع إلى أساء عمومته ، إلى منك النبط وإلى ابن عمه مالك قمر رعيم قبيلة مسا ، وإلى زعماء قبائل بني إسماعيل الآخرين ، وراح يحرصهم على قتال آشور ، وما أسرع ما استجابوا لدعوته فقد ألقيت عداوة الآشوريين في سويداء قلوب العرب .

وتجهز بنو إسماعيل للقتال وخرجوا الحرب الآشوريين ، وعد أرك شرق تدمر التقى الجمعان : بنو إسماعيل يحملون ألتهم ويتهلون إليها أن تنصرهم على أعدائهم ، والآشوريون يحملون تماثيل ألتهم .

كان بنو إسماعيل يعملون الله وحده ، وقد انتصروا على أعدائهم أيام كانوا بمصرون الله ، أما بعد أن طال عليهم الأمد وقست قلوبهم واتحدوا الأصنام ألهة ليقرنوههم إلى الله زلفى فقد أذاقهم الله العذاب ؛ ذلك بأنهم أعرضوا عن

ذكر ربهم ، فإله يعذب أقواما بأقوام ، تلك سنة الله ولن تجد لسنة الله تدبيرا .
ودارت رحى وأطلت النون من سنان سهامهم وصحائف سيوفهم .
واطلقت السهام من فوق ظهور الحمال كالشهاب ، ونجاوت في جوات
الفضاء صرخات امتزجت بصهيل الخيل وصليل السيوف ، وغطت أرض
المعركة جثث القتلى فحوت نسور السماء فوق ساحة الوعي ثم انقصت
تنش الأجسام وتقر البطون .

ومشى الرجال إلى الرجال وتقارعت السيوف بالسيوف ، وهوت
العاول على الرعوس وارتطمت السهام بالندروع ، واشتكت لأيدي
واحتلط التراب بالعرق ، وبلعت القلوب الحاجر ودهست النفوس شعاع
وأخذت النون تنقف الرجال وتصرع الأنامل .

واكشف العرب فانقص جود آشور على من لم يستطيعوا الفرار من
العسكر وأحدوا بأسرود الآلهة والرجال والنساء ، وقد وقعت نساء يطع
وأمه وزوجه في أيدي الآشوريين .

وتفرق بنو إسماعيل وعاد يطع إلى دومة الخد حصن العرب الحصين ،
ولكنها لم تستطع أن تصمد في وجه عواصف الآشوريين فقد قوا أسوارها
بدباباتهم أكثر من مرة ، وتمكوا من أن يضعوا عليها السلام الطوية على الرعب
من الزيت الملع الذي كان يصب فوقهم صا .

وغضب آشور بابيل غضبا شديدا لأن يطع حيث يقسمه العظيم ابدى
أقسمه لآشور وشماش ، فقد أقسم بالولاء لآلهة الآشوريين وسرعان ما سى
قسمه وراح يعرض العرب ويجمع شملهم لقتال آشور .

إن إلهه العظيم آشور سلاح الآشوريين البتار قد أنزل الغرمة بأعدائه ،
ولكن يطع بما يحده من عذاب آشور ، ولن يرصى إلهه الحطوف قبل أن
يرى يطع بجر أديال الد في نيو

وبعث آشور باييال إلى الثورتان ليتأهب ليدمدن على العرب بذنبهم وأن يسوى ممالكهم بالأرض ، وسمع ملك النبط بعزم ملك آشور فحاف مغبة برول الآشوريين بملكه ، فستطاح الرعوس وتفتضح الساء ويحمل الرجال أسرى إلى بينوى لعذاب الهوان ! فرأى أد حير ما ينتهجه أن يتودد إلى ذلك الملك القاسى الذى إذا دخل قرية أفسدها وجعل أعزة قومها أذلة .

شق يطع عصا الطاعة وأعلن الثورة على آشور وساق الحيوش لقتال غلاظ الأكساد ، فإن حمل يطع أسيرا إلى بينوى سكن غضب آشور باييال وأرضى ذلك غروره وعرور إلهه المتعطش للدماء ، وأخذ ذلك النبط والعرب من الدمار والتخريب .

إبها تصحية ثقيلة على قواد ملك النبط أن يبعث ممن كان بالأمس ملكا على فيدار أسيرا ذليلا إلى يسوى ، أن يخون حليفه ليقبذ نفسه وروحه وأولاده وشعبه من المصير الذى ترنمف منه فرقا أقوى القلوب . إنه بين نارين اشتعلا فى كياه ، أن يضحي بيطع أو يضحي بشعبه بل بقبائل بى إسماعيل كلها . وفى يوم محس مستمر قبض ملك النبط على يطع ، على من لاذ به وطلب الإجاره فأجاره ، وأرسله أسيرا إلى آشور باييال ، وبعث مع رسله الهدايا الفاحرة وخصومه وولاءه للدولة التى بعث الرعب فى قلوب العالمين . وفى قاعة العرش الآشورى استقبل آشور باييال وفد ملك النبط وهو يتهلل فرحا ، وجذب يطع من شعره وقال له :

— حشت بقسمك وثرث على مولاي آشور ، إن مولاي آشور هو سيفنا البتار ، سلاحا الذى انتصرنا به على كل الأعداء ، سترى الآن ماذا يفعل بك مولاي العطوف .

وشرد آشور باييال كأنما يتلقى وحى إلهه ، وساد الصمت الرهيب فى قاعة العرش ، ثم قال الملك :

— لو أمرت بإطاحة رأسك لأرحمك من العذاب ، ولو أمرت بسلخ جلدك وأنت حي فما أهون ذلك العذاب ، ولو وضعتك على الخازوق فستألم لحظات ثم ينتهى كل شيء ، ولو مزقتك إربا إربا وألقيت بها إلى الكلاب لما شئى ذلك غليل مولاي آشور .

أمرنى مولاي آشور أن أضعك فى قفص وأن أعرضك على عباد آشور ليسبوك ويلعنوك ولتعذب فى كل حين .

ووضع يطع ملك قيدار فى قفص ، وحمل القفص وترك عند باب من أبواب بيوى ليتلقى إهانات الشعب الآشورى السقيم .

وراح آشور بانيبال يسجل فى نشوة : « لقد سلخت جلود كل من خرج على من الرعاء وغطيت بجلودهم العمود ، وسمرت بعضهم من وسطهم فى الجدران ، وأعدمت بعضهم حرقا ووضعت بعضهم على الخواريق ، أما الزعماء والضباط الدين ثاروا فقد قطعت أطرافهم » .

وراح يصخر فى لوح آخر بأنه حرق بالنار ثلاثة آلاف أسير ولم يبق على واحد منهم حيا ليتحدده رهينة . ونقش على نقش آخر : « أما أولئك المحاربون الذين أدبوا فى حق آشور واتمروا بالشر على فقد انتزعت ألسنتهم من أفواههم المعادية وأهلكتهم ، ومن بقى منهم على قيد الحياة قدمتهم قرايين جنائرية وألقيت بأشلانهم الممزقة للكلاب والخنازير والذئاب ... وبهذه الأعمال أدمت السرور على قلوب الآلهة العظام » .

وفى البلاط السطى كان ملك النسط يسير مطأطأ الرأس خزيا ، فقد غدر يابى عمه ملك قيدار العظيم ليفر من الرعب الذى كان يحاصره ويستريح ، ولكنه لم يدق طعم الراحة مد أن قبض على يطع وألقى به بين برائن وحش آشور ، إذ الصيحات تبعث من جنبات القصر وتردد :

— خائن .. خائن .. خائن .

ولم تكن أصابع الاتهام تشير إليه من وجدانه محسب ، بل إن أصبح مالك قمر ارتفعت وأشارت إليه وقال بصوت عاضب حاقد :
— خنت ابن عمك يا ملك النبط ، أنت عار بنى إسماعيل ، ولا بد أن تغسل هذا العار .

وسار مالك قمر على رأس رجال قبيلة مسا إلى الأنباط في الأردن ليثأروا ليطع ويمحوا ما حاق بهم من عار الحياة ، وعزا ابن عمه ملك النبط الخائن وأعمل السيف في الرجال الذين لم يثوروا على ملكهم ، على من فسق في حق الحوار وخان وعدر وحارت قواه من شبح العذاب الشديد .
وأسرف مالك قمر في القتل وحمل العمام وساق المواشي ليكون ذلك عنة لكل حوار من بني إسماعيل ، فنار العداوة مشبوبة بينهم وبين الآشوريين ولعنة الآلهة على من يطعنونها قبل أن تلتهم ملك الظالمين .

وابطلق آشور بانيال إلى وادي النيل ورحف من مف إلى طيبة يحرق الأشجار ويئلف الزرع وينهب المواشي ويقتل الرجال ويسبي النساء ، وطال حصاره لطيبة وأخيرا خرت ساجدة تحت قدميه .

وعاد آشور بانيال إلى نينوى ليسجل أعماله فكتب فيما كتب : « وفي ذلك الوقت تقادم عهد الحرم ، مكان الراحة في القصر ... الذي شاده جدي سحاريب ليقم فيه وذلك لضول ما استمتع فيه من بهجة وسرور ، وتداعت جدرانته ، وإذ كنت أنا آشور بانيال الملك العظيم ، الملك القادر ملك العالم ، ملك آشور ... قد نشأت في ذلك الحرم وحفظني فيه آشور وس وشمش ورامان وتابو وعشتار . وأنا ولي للعهد ، وبسطوا على حمايتهم الطيبة وملادهم الرضى ، ولم يعكوا يعثون إلى فيه أنباء سارة عن طعنا بأعدائنا وإذ كانت أحلامي وأنا على سريري في الليل أحلاما سارة كما كانت خيالاتي في الصباح مبهجة حميلة ... فقد قوضت حرباته وأردت أن أوسع رقعته فقوضتها

جميعا ، وبنيت ربوة ولكنى وقفت خائفا أمام مزارات أربابى الآلهة العظام فلم
أعل بهذا الباء كثيرا .

وفى شهر طيب ويوم موات وضعت أساسه فوق تلك الربوة وأقامت البناء
وصببت نيزد السمسم ونيزد العنب على قباء موته ، كما صببتها على حداره
الطينى . ولكى أشيد هذا الحرم كان أهل بلادى ينقلون اللبانات فى عربات
عيلام التى عنمتها مهم بأمر الآلهة ، وسحرت ملوك بلاد العرب الدين
نقضوا الهدنة معى والذين أسرهم فى الحرب ييدى وهم أحياء يحملون
الأسفاط ويلبسون قلانس القعلة ليشيدوا ذلك الحرم ، وكانوا يقضون
نهارهم فى صبح اللسات ويرغمون على العمل فيه فى أثناء عزف الموسيقى .

وشدت بناءه من قواعده حتى سقفه وأنا مغتبط مسرور ، وأنشأت فيه
من الحجرات أكثر مما كان به قبلا ، وجعلت العمل فيه فخما ووضعت فوقه
كتلا طويلة من أشجار الأرز التى تنمو على سرارا ولسان ...

ولما فرغت من أعمال بائه قربت القرابين العظيمة للآلهة أربابى ودشته
وأنا مشرح مغتبط الصدر ودخلته تحت ظلة فحمة .

وبينا كان آشور بانيبال يمشى فى الأرض مرحا كأنما خرق الأرض وبلغ
الجهال طولا ، كان ناحوم نبي بى إسرائيل يعلى على الملأ ما أوحى إليه :
« وحى على نينوى .

يوم نبطش البطشة الكبرى ، والله عزيز ذو انتقام .

وبل لمدينة الدماء ، كلها مملوءة كذبا وحطفا ، لا يزول الاحتراس .

صوت السوط وصوت رعشة البكر وخيل نخب ومركبات تقفز وفرمان
تهض ولهب السيف وبريق الرمح وكثرة جرحى ووغرة قتلى ولا نهاية
للجثث ، يعثرون بجثثهم .

من أجل زى الزانية الحسة الحمال صاحبة السحر الفالسة أما بريهاها ،

وقبائل بسحرها ، هأنذا عليك يقول رب الجود فأكشف أديالك إلى فوق وجهك وأرى الأمم عورتك والممالك خزيك .

وأطرح عليك أوساخا وأهينك وأجعلك عبدة ، وكل من يراك يهرب منك ويقول : حربت نينوى . من يرئى لها ؟ من أين أطلب لك معزين ؟؟
جميع قلاعك أشجار تين بالبواكير ، إذا هرت سقطت في قم الآكلين .
هو ذا شعبك نساء في وسطك ،

تفتح لأعدائك أبواب أرضك ، تأكل النار معاليقك .
تعت رعائك يا ملك آشور ، اضطجعت عظاموك ، تشتت شعبك على الحبال ولا من يجمع .

ليس جبر لانكسارك . جرحك عديم الشفاء . كل الدين يسمعون خبرك
يصفقون بأيديهم عليك لأنه على من لم يمر شرك على الدوام ؟ ! .

وددت أيام آشور بانيال الملك القادر ، ملك العالم ، ملك آشور ، فراح يكتب في آحر لوح من الألواح التي غصت بها مكتته : : لقد فعلت الخير لله والناس ، للموتى والأحياء ، فم إدد أصابني المرض وحل في الشقاء ؟ إني عاجز عن إخماد الفتن في بلدي ، وعن حسم النزاع القائم في أسرتي ، وإن العصائح المزعجة لتصايقني على الدوام ، وأمراض العقل والجسم تطأطئني من إشرافي . هأنذا أقصى آحر أيامي أصرخ من شدة الويل ، يائسا في يوم إله المدينة ، يوم العيد .

إن المية تنشب في أظفارها وتنحدر في نحو آحرتي ، أئدب حظي ليلا ونهارا وأنوح وأعول وأتوجع : : أي إلهي ! هب الرحمة لإسان وإن كان عاقا حتى يرى نورك ! .

وراح يكتب العبارات التي ستوضع على قبره :
• إنك تعلم حق العلم أنك قد ولدت للفناء .

فاطرب وابتهج في الأعياد .
وإذا مت فلن يبقى لك بعدئذ ما يسرك ،
ومن أجل هذا فإني :
وقد حكمت من قبل تينس العظيمة .
لست الآن إلا تراها .
ولكن قد بقيت لي هذه الأشياء التي ابتهجتها
في حياتي : الطعام التي أكلته واللهو الذي استمتعت به .
وملاذ الحرب ومسراتها .
أما ما عدا ذلك من الأشياء التي يراها الناس نعمًا ، فقد تركتها خلفي

ضاق المصريون بالآشوريين الذين عاثوا في البلاد فسادا ، فقصت المعابد
 بالعباد ، وارتفعت الابتهالات إلى آلهة السماء التي خرت ساجدة لآشور ،
 وراح المصريون يناجون آمون :

— يا من خلق كل ما هو موجود ،

ومن عينيه نشأ الإنسان ،

ومن فمه الآلهة !

يا من فطر الأعشاب للماشية ،

وثمار الأشجار للبشر !

يا من نفع الحياة للأسماك في الماء ،

وللطيور تحت قبة السماء !

يا من منح الحياة للفرخ في البيضة ،

وحفظ ابن الدودة حيا !

يا من تررق البعوض والديدان والبراغيث !

يا رازق الجرذان في جحورها !

ابعث فينا الثور القوي الذي يقتل الأعداء ،

الجميل في ميدان القتال .

من ضربته كالشمس ،

من يطوى الخبل من على رقبة الشعب ،

من يمنح نسائم الحرية لمن وقعوا في الأسر :

من ينتقم من عدوك وعدونا شر انتقام .

وقام أمير صالحجر بنفث فيمن حوله روح الثورة على من أهانوا آمون رع ، وراح يجهز عربات القتال ويدرب الرجال ويحرضهم على أن يهبوا نحو ما لحق البلاد من عار ، واستعان بالكهنة ليعلموا الشعب للجهاد لقتال عدو آمون وعدهم .

ورأى القوم في أمير صالحجر الثور القوى الذى أرسله آمون ليضرب به الآشوريين ، فالتفوا حوله وصاروا رهن إشارته ، فلما اطمأن إلى قوته انقض على الحامية الآشورية في طيبة وأنزل بها شر هزيمة وقوص معابد آشور من أساسها .

وأجج انتصار أمير صالحجر على أعدائه وأعداء آمون نار الحماسة في صدور المصريين ، فارت المذن على من فيها من آشور ، واندفع الجيش المصرى المظفر كالإعصار يقتلع معاقل الأعداء حتى دخل أمير صالحجر القصر الملكى في منف وطهره من المعتدين .

وترخ جنود آشور تحت صربات المصريين ، كان الموت يتحفظهم من كل جانب وقد زلزلت الأرض زلزالها وبلغت القلوب الحناجر ، ودب الوهم في نفوس الآشوريين فراحوا يسحبون وهم يلحقون جروحهم حتى انقشع ظلمهم عن وادى النيل ، فوجد أمير صالحجر مصر العليا والدلتا في مملكة واحدة ونادى بنفسه ملكا عليها ، وبذلك أسس الأسرة السادسة والعشرين . واستقلت مصر وبقيت سورية تترزح تحت نير الآشوريين ، ولكن مدينة صور ومدينة صيدا من مدن الفينيقيين ، وملوك النبط وقيدار وقناتل بنى إسماعيل الأحرى ثاروا على حكم الآشوريين وطردهوا مثل البلاط الآشورى من بلادهم .

كان سن شار اشكون ملك آشور قد ورث ملك بابل فيما ورث عن أجداده ، فقد قضى أسلافه على الملكية في بابل وسبوا كل سلطات الإله

مردوخ ومنحوها لآشور العطوف ، وقد ورث فيما ورث كراهية البابيين والفيقيين والآراميين والعرب وبنى إسرائيل ، فما كاد يستقر في عرشه حتى اشتعلت الثورات التي كان يؤججها فراعين مصر ويمدون بالوقود .
وثارت بابل ثورة عارمة لتحطم القيود وتزيج كابوس الآشوريين الحاثم على الصدور ، وهب بنو إسماعيل لنجدة البابليين وللقضاء على العدو المشترك .

وخرجت جيوش قidar والبط ومسا وقبائل الإسماعيليين الأخرى إلى البيداء العاصلة بين بابل وممالكهم ، كانت الصحراء قد أخذت زخرفها واريث : الوار الأصفر يسر الناطرين وسفوح الجبال مستها عصا الربيع السحرية فكسيت بسندس أحضر ، كان الكون في أمي حله يشرح الصدور ، ولكن الكراهية التي كانت في سويداء قلوب بنى إسماعيل للآشوريين أعمت عيوسهم عن كل جمال ، فقد كانوا خارجين للقضاء على الطفيا تهب نسائم الحرية على العالمين .

وبينا كانت جيوش بنى إسماعيل تعد السير لتشد أزر ثورة بابل ، كان حقون نبى بى إسرائيل ينظر إلى فاران ، إلى حيث استقر إسماعيل وأمه هاجر ، إلى مكة ، إلى أرض الخلاص ، وراح يصلى .

— الله جاء من تيمان ، والقدوس من جبل فاران ، سلاه . جلالة عطى السموات ، والأرض امتلأت من تسبيحه ، وكان لمعان كالنور له من يده شعاع ، وهناك استارت قدرته ، قدامه ذهب الرباء وعند رجليه خرجت الحمى .

ودخل بنو إسماعيل بابل وما دار بخلد أحدهم أن من أصلاهم سيأتى ذلك الذى سيملا الأرض تسبيحا لله ، في يده شعاع كتاب منير ، شريعة بيضاء تنير ملكوت السماء والأرض بنور ربها .

ودارت في أرجاء بابل رحي الحرب وقد حمل كل فريق آخته يستنصرها على عدوه ، وتجاوبت صيحات القتال وجرت المعجلات الحربية في الطرقات ، وهرت العربات الآشورية إلى الأرقعة وخيل العرب وإبلهم وحند بابل في أثرها تصلبها نارا من سهامها .

وألقيت الحجارة والزيت المغلى من الدور على الآشوريين المهزمين ، وأطلقت السهام من أبراج المعابد ، واشتبكت الأيدي فقد كان الصراع في كل مكان يدور بلا رحمة لإرهاق النفوس .

واهزم الآشوريون ولادوا بالفرار ، وانطلق البابليون والعرب في أثرهم يكيلون لهم الضربات القاضية ولا يتركون لهم فرصة لاسترداد أعاسهم . وخرج جيش آشور من بابل مرتدا إلى نينوى وجيوش أعدائه في أثره ، وقد وطدت العرم على أن تسدد إليه طعنة قاتلة لا يقوم بعدها أبدا .

ودخل الجيش الآشوري عاصمة ملكه وأعنت الأواب حنمه ، وصرب الحصار على نينوى ونصبت المحنقات وقدمت الأسوار بالحجارة ، وجاءت الدبابات وقد احتسيت تحتها الجيود وفي أيديهم المعاول ، ودنت من الأسوار ليتمكن الجيود من بقها أو تقويضها من أساسها .

وأطلقت السهام المشتعلة من الحصون ، وصب الزيت المغلى من فوق الأسوار على رموس المهاجمين ، وألقيت الخطاطيف لانتراع أسقف الدبابات ، وجاء المهاجمون بالسلام الطويلة وتمككوا من وضعها على الأسوار ، وسرعان ما صعد فيها البابليون والعرب ودار قتال لا هوادة فيه فوق الأسوار ، وما لبثت أن فتحت أبواب نينوى لمن سامهم الآشوريون سوء العذاب .

وتدفق البابليون وبنو إسماعيل من أبواب المدينة الجميلة التي وصمت على حواصنها تماثيل الثيران المصححة الهائلة لحرسها روح آشور . ورأى المهاجمون

المناظر الوحشية التي ريت بها الجدران : رعوس تقطع وأكداس مس
الرعوس ، ورجال يسلخون وهم أحياء ، ورجال يصلون ، ورجال تشق
شعاهم وتقطع ألسنتهم ، وآخرون تفقأ عيونهم ، ورجال يوضعون على
الخوازيق ، فثارت روح الانتقام في نفوس المهاجمين .

كان ملوك آشور يفخرون بأنهم يشبعون غضبهم بالخوض في دماء
الشعوب ، فراح المهاجمون يثأرون من قساة القلوب ، فقتلوا الرجال وسوا
النساء ونهبوا المعابد بعد أن خلصوا أمتهم من دل الأسر ، وحطموا تماثيل
آشور ومرعوه في الأوحال ، وفوضوا الدور وأشعلوا النيران في القصور .
وصارت بنوى كما قال صفنيا نبى بى إسرائيل .

— ويبيد آشور ويجعل نوى خرابا يابسا كالقفر ، تهربض في وسطها
القطعان كل طوائف الحيوان .

النوق أيضا والقنفذ يأويان إلى تيجان عمدتها .

صوت يعب في الكون : حراب على الاعتبار .

هذه هي المدينة المبتهجة الساكنة مطمثة ، القائلة في قلبها : أنا وليس
غيري !

كيف صارت خرابا ، مريضا للحيوان .

كل عابر بها يصفر ويهز يديه .

ولمظلت آشور أنفاسها إلى الأبد وتحققت أمانى الملكة شمس كاهنة قبيلة
عريبي ، وخراويل ملك قidar وابنه يطع ، ووهب النائر الذي جمع كلمة
العرب وحمل لواء العصيان في وجه الطالين ، وطويت صفحة من تاريخ بى
إسماعيل لتبدأ صفحة جديدة من الكفاح مع دولة الكلدانيين ، دولة نابل
الجديدة التي قامت ولكن إلى حين .

كانت بابل تزدهر على مدن العالم بجمالتها ، فأبراج معابد الآلهة ترتفع في السماء ، ونهر الفرات يشقها ، وامتدت الدور والقصور عن يمين وشمال ، وعلى الهرر حصور ، وفي محراه قوارب في عدو ورواح تحمل سكان كل ضفة إلى الضفة الأخرى ، ومن الشمال إلى الجنوب طريق المواكب العظيم ، ووسط الطريق مرصوف ببلاط من حجر الجير ، وعلى الحائنين بلاط آحر من حجر أحر معروق بالأبيض وكتب على حافة كل واحدة : « أنا بختنصر ملك بابل ابن نابو بولاسار ، أيها الإله العظيم مردوخ امنحننا الحياة الأبدية » .

كانت آشور قد أمتست في العابرين واندثرت عبادة إلهها العطوف ، وعاد ملوك الكلدانيين إلى بابل ، واسترد مردوخ مجده ، وتربع على عرش بابل الحديدية بيوخذنصر « بختنصر » ، ولكيلا يصل إلى « انجور بعل » حائط بابل أى هجوم ، شيد جدارا حبارا شرق بابل طوله أربعة آلاف ذراع ، وحفر حدقا ووضع أساسا بالقار والطوب الأحمر ، ومن فوقه أقام سورا بارتفاع جبل .

كتب نابو بولاسار : « أوحى إليّ مردوخ أن أديم أساس برج بابل وكان قد ضعف وأصابه الوهن ، فكان على أن أجعل هذا الأساس يصرب في الأرض إلى العالم السفلى بينما يشمخ برأسه إلى السماء » . وراح ابنه بختنصر يقيم معبد « إشماسكي » ليلبغ الجبال طولاً .

ودخل بختنصر الملك الأمي — الذي لا يقرأ ولا يكتب — معبد مردوخ ، وأمر أن يكتب لإلهه العظيم ابتلالاته :

« إني أحب طلعتك السامية ، كما أحب حياتي الثمينة !
 إني لم أختر لنفسي بيتا في المواطن كلها الواقعة بخارج مدينة بابل .
 ليت البيت الذي شيدته يدوم إلى الأبد بأمرك أيها الإله الرحيم ،
 ولعل أشيع بيئاته وجلاله وأبلغ فيه الشيخوخة ويكثر ولدي ،
 وتأتي إلي في الجزية من ملوك الأرض كلها ومن بني الإنسان أجمعين » .
 وراح يخاطب مردوخ في تدلل وخصوع :
 « إذا لم تكن أنت يا ربى ، فماذا يكون ،
 للملك الذى تحبه وتتأذى باسمه ؟
 ومستبارك لقبه حسب مشيقتك ،
 وتهديه صراطا مستقيما .
 أنا الأمر الطائع لك ،
 باق كما صنعتني يداك ،
 إنك أنت خالقى ،
 وأنت الذى حكمتني في جيوش العباد ،
 وبمقتضى رحمتك يا مولاي ،
 بدل قوتك الرهيبة حبا ورحمة ،
 وابعث في قلبي الاحترام لربوبيتك ،
 وهى ما ترى فيه الخير لى » .

كان يختصر يقوم بتحصيل عاصمته بيما كان يسو إسماعيل يعدون
 ويروحون بين بابل ومصر واليمن يحملون السخور والطيب للمعابد ويسعون
 بين العواصم للتجارة وحمل منتجات مصر إلى بابل ومنتحات بابل إلى مصر
 والنزول بأسواق العرب .
 وفي مملكة البط قام عدنان بن أدد ، من جاء من سل سالت بن إسماعيل

ويشجب بن نابت ويعرب بن يشجب يوحد كلمة العرب ويقوى صفوفهم ، حتى لا يكونوا لقمة سائغة للطامعين .

وولد عدنان معد وعك ، وكان معد طفلا لم يبدع الحلم ، وعلى الرغم من حداثة سنه وأنه ابن سيد قومه فقد كان مرهف الحس يحبى حياة التقشف ويكرس وقته للعبادة والحياة الخشنة ، حتى إن معدا أصبحت تعنى شظف العيش ، وحتى إن رسول الله الذى جاء من صلبه قال يوصى قومه انخسوشنوا وتمعددوا .

وركب بنو إسرائيل المعاصى واستحلوا المحارم وراحوا يعدون نعل وهدد الأوثان وقيمون فى أعالي اجبال الأنصاب ، وسوا الدل الذى أداقهم الله على أيدي الآشوريين وأن الله بجاهم من عدو الله وعدوهم ، فأوحى الله إلى أرميا نبيم :

— انت قومك من بنى إسرائيل فاقصص عليهم ما أمرك به ، وذكرهم نعمى عليهم وعرفهم أحداثهم .
قال أرميا :

— إلى صعيب إن لم تقوى ، عاخر إن لم تبلغنى ، مخطئ إن لم تصدقنى ، مخدول إن لم تصبرى ، دليل إن لم تعرفى .
فأوحى الله إليه :

— ألم تعلم أن الأمور كلها تصدر عن مشيئى ؟ وأن القلوب كلها والألس بيدي ألقها كيف شئت فتطيعى ؟ وأنى أنا الله الذى لا شئ مثلى ؟ قامت السموات والأرض وما فيها بكلمتى . وأنا كلمت البحار فقهمت قولى ، وأمرتها ففعلت أمرى ، وحددت عليها بالسطحاء فلا تعدى . حتى تأتى بأمواج كالبحال ، حتى إذا بلغت حدى ألسنتها مدلة طاعتى حوما واعترافا بامرى .

إني معك ولن يصل إليك شيء معي ، وإني بعثتك إلى خلق عظيم من خلقي ليتبعهم رسالاتي وتستحق بذلك مثل أجرة من اتبعك منهم لا يقص ذلك من أجورهم شيئا ، وإن تقصر به عنها تستحق بذلك مثل وزر من تركت في عماله لا يقص ذلك من أوزارهم شيئا .

انطلق إلى قومك قل : إن الله ذكركم صلاح آبائكم ، فحمله ذلك على أن يستنيكم يا معشر الأنبياء . وسلهم كيف وجد آبائهم مغية طاعتي ، وكيف وجدواهم مغية معصيتي ، وهل علموا أن أحدا قبلهم أطاعني فشقي بطاعتي أو عصاني فسد بمعصيتي .

إن هؤلاء القوم رتخوا في مروج الهلكة ، أما أحبارهم ورهبانهم فاعتدوا عادي حولا يتعبدونهم دوى ، ويحكمون بهم بعير كناني ، حتى أحلواهم أمري ، وأسوهم ذكرى ، وغروهم مى .

وأما أمراؤهم وقادتهم فبطروا بمعنى وأموا مكرى وبذوا كنانى ، ونسوا عهدي وعيروا ستي ، ودان لهم عبادى بالطاعة التى لا تبعى إلا لى ، فهم يطيعونهم فى معصيتى ويتابعونهم على البدع التى يتدعون فى ديسى ، جراه على وعرة وفرية على وعلى رسل ، فسبحان جلالى وعلو مكانى وعظمة شأنى ، وهل ينبغى لى أن يطاع فى معصيتى ؟ وهل ينبغى أن أخلق عبادا أجعلهم أربابا من دوى ؟

وأما قراؤهم وفقهاؤهم فيتعدون فى المساحد ويتدينون بعمارتها لغيرى لطلب الدنيا بالدين ، ويتفقهون فيها لغير العلم ، ويتعلمون فيها لغير العمل ، وأما أولاد الأنبياء فممتكرون مقهورون معترون ، يخوضون مع الخائضين ، فيتمنون على مثل نصرة آبائهم والكرامة إلى أكرمهم بها ، ويزعمون أن لا أحد أولى بذلك منهم مى بغير صدق ولا تفكر ولا تصد ، ولا يذكرون كيف نصر آبائهم لى ؟ كيف كان حدثهم فى أمرى حين غير المعبرون ، وكيف بدوا

أنفسهم ودماءهم فصبروا وصدقوا حتى عز أمرى وظهر ديبى ؟ فتأيت
بهؤلاء القوم لعلمهم يستجيون ، فأملت لهم وصعحت عهم لعلمهم
يرجعون ، فأكثرت ومددت لهم فى العمر لعلمهم يتفكرون ، فأعذرت وفى
كل ذلك أمطر عليهم السماء وأنت لهم الأرض وألبسهم العافية وأظهرهم على
العدو فلا يزدادون إلا طغيانا وبعدا منى ، فحتى متى هذا ؟ أنى يتمرسون أم
إيأى يتخادعون ؟ فإنى أحلف بعزى لأقيض لهم فنة يتنحير فيها الحليم ، ويضل
فيها رأى ذى الرأى وحكمة الحكيم ، ثم لأسلطن عليهم جبارا قاسيا عاتيا ،
ألبسه الهيبة وأنزع من صدره الرأفة والرحمة والبيان ، يتبعه عدد مثل سواد
الليل المظلم له عساكر مثل قطع السحاب ، ومراكب أمثال العجاج ، كأد
خفيق راياته طيران السور ، وكأد حملة فرسانه كرير العقباد .

ثم أوحى الله عز وجل إلى أرميا :

— إني مهلك بنى إسرائيل بأهل بابل .

فلما سمع أرميا وحي ربه صاح ونكى وشق ثيابه وبهد الرماد على رأسه

فقال :

— ملعون يوم ولدت فيه ويوم لقت فيه التوراة . ومن شر أيامى يوم
ولدت فيه ، مما أبقيت آخر الأنبياء إلا لما هو شر على . لو أرادنى حبرا ما
جعلنى آخر الأنبياء من بنى إسرائيل ، فمن أجلى تصيبهم الشقوة والهلاك .
وناداه ربه :

— يا أرميا أشق عليك ما أوحيت لك ؟

— نعم يا رب . أهلكى قبل أن أرى فى بنى إسرائيل ما لا أسر به .

— وعزنى وجلالى لا أهلك بيت المقدس وبنى إسرائيل حتى يكون الأمر

من قبلك فى ذلك .

فمرح عند ذلك أرميا وطلبت نفسه وقال :

— لا والذى بعث موسى وأنبياؤه بالحق لا آمر ربي هلاك بني إسرائيل أبدا .

واقبل أرميا إلى ملك بني إسرائيل مسرورا فأخبره بما أوحى الله إليه ، فاستبشر وفرح وقال :

— إن يعدبوا ربنا عبدنوب كثيرة قدمناها لأنفسنا ، وإن عفا عما بقدرته .

ومرت ثلاث سنين واردة الميعاد المعاصي في إسرائيل وفي يهودا ، وأهتم الديق عن ذكر الله ، وخاف الملك غضب الله فراح يقول لشعبه :

— يا بني إسرائيل انتهوا عما أنتم عليه قل أن يمسيكم بأس الله ، وقل أن يعث الله عليكم قوما لا رحمة لهم بكم ، فإن ربكم قريب لتوبة مسوطة اليدين بالخير ، رحيم بمن تاب إليه .

واستمر سو إسرائيل في اقتراف المعاصي يعدلون الأوثان ويتقربون إلى آهة ، لأنهم ويفرقون في الدس ، فألقى الله في قلب مختصر أن يسير إلى بيت المقدس وأن يعمل فيه ما كان الآشوريون يفعلون

وخرج مختصر من بابل في ستائة ألف راية يريد أهل أورشليم ، فلما فصل سائرا أتى ملك بني إسرائيل اخبر أن مختصر قد أقبل هو وحووده يريدكم ، فأرسل الملك إلى أرميا فحاه فقال :

— يا أرميا أين ما رعمت لنا أن ربك أوحى إليك ألا يهلك أهل بيت المقدس حتى يكون منك الأمر في ذلك .

— إن ربي لا يحلف الميعاد وأنا به واثق .

وخرج أرميا من عند الملك ، وفيما هو في الطريق أتاه رجل يستوقفه فقال له أرميا :

— من أنت ؟

— أنا رجل من بني إسرائيل أستفتيك في حصص أمري

— تكلم .

— يا نبي الله أتيتك أستفتيك في أهل رحي ، وصلت أرحامهم عما أمرني الله به ، لم آت إليهم إلا حسنا ولم آلهم كرامة فلا تزيدهم كرامتي إياهم إلا إسقاطا لي ، فأفتني فيهم يا نبي الله .

— أحسن فيما بينك وبين الله ، وصل ما أمرك الله أن تصل ، وأبشر بخير .
واصرف عنه الرجل فمكث أياما راح فيها المافقون يجيئون إلى الهيكل متظاهرين بالتقوى والصلاح يحملون بعض ما جمعوا من كدح الفقراء وطحن عظامهم ، وراح أرميا يذكرهم بأن الله لا يطلب إلى الناس أن يقربوا له القرابين بل يطلب إليهم أن يكونوا منصفين عادلين . ثم أقبل إليه الرجل يستفتيه ففقد بين يديه فقال له أرميا :

— من أنت ؟

— أنا الرجل الذي أتيتك أستفتيك في شأن أهلي .

— أو ما ظهرت لك أخلاقهم بعد ولم تر منهم الذي تحب ؟

— يا نبي الله والذي بعثك بالحق ما أعلم كرامة يأتيها أحد من الناس إلى أهل رحمه إلا وقد أتيتها ، وأفضل من ذلك .

— ارجع إلى أهلك فأحسن إليهم واسأل الله الذي يصلح عباده الصالحين أن يصلح ذات بينكم وأن يجمعكم على مرضاته ويحببكم سخطه .

فقام الرجل من عنده فلبث أياما وقد نزل بختنصر وجنوده حول أورشليم بأكثر من الحراد ، ففزع منهم بنو إسرائيل وبلغت القلوب الحناجر ، وشق ذلك على الملك فدعا أرميا فقال :

— يا نبي الله أين ما وعدك الله ؟

— إني برئ واثق .

وقعد أرميا على جدار بيت المقدس ينظر إلى بختنصر وجنوده يضحك

ويستشر بنصر ربه الذى وعده ، وأراد سراة المدينة أن يستروا ربهم فأطلقوا من كان عندهم من عبيد بنى إسرائيل ، ورفع تختصر الحصار عنهم لفترة قصيرة ، فخیل إليهم أن الخطر قد زال ، فقبض هؤلاء السراة على عبيدهم السابقين وأرغموهم على عبوديتهم القديمة .

وجاءه الرجل الذى استفتى أرميا مرتين وقعد بين يديه فقال له أرميا :

— من أنت ؟

— أنا الذى كنت أتيتك فى شأن أهل مرتين .

— أو لم يأن لهم أن يفيقوا من الذى هم فيه ؟

— يا سى الله كل شيء كان يصيبنى منهم قبل اليوم كنت أصبر عليه وأعلم أن ما لهم فى ذلك سخطى ، فلما أتيتهم اليوم رأيتهم فى عمل لا يرضاه الله ولا يحبه .

— على أى عمل رأيتهم ؟

— رأيتهم على عمل عظيم من سخط الله ، فلو كانوا على مثل ما كانوا عليه من قبل اليوم لم يشتد غصبي عليهم وصبرت لهم ورجوتهم ولكى غضبت اليوم لله ولك فأتيتك لأخبرك حبرهم ، وإنى أسألك بالله الذى هو بعثك بالحق إلا دعوت عليهم أن يهلكهم الله .

— يا ملك السموات والأرض إن كانوا على حق وصواب فأبقهم ، وإن كانوا على سخطك وعمل لا ترصاه فأهلكهم .

وكان بنو إسرائيل على سخط الله وعمل لا يرضاه فحمل بختصر وجنوده على أبواب أورشليم فإذا بالأبواب تنهار ، فلما رأى ذلك أرميا صاح وشق ثيابه ونبذ التراب على رأسه وقال :

— يا ملك السماء ويا أرحم الراحمين ، أين ميعادك الذى وعدتني ؟

هوذى :

— يا أرميا إنه لم يصبهم الذى أصابهم إلا بفتياك التى أفتيت بها رسولنا .
وعرف أرميا أن الذى جاءه يستفتيه لم يكن رجلا من بنى إسرائيل بل كان
رسول ربّه ، وأنه أفتى بهلاك قومه ففرل عن سور أورشليم التى عزم الله على
هلاك أهلها ، وانطلق بعيدا وفي القلب حسرة وفي العين دموع .

اندفعت عربات بابل الحربية في طرقات أورشليم كالسهم المنطلق وانقضت على بني إسرائيل انقضاض الصواعق ، ودارت في الشوارع المؤدية إلى هيكل سليمان معارك بالسيوف وبالسهام ، ولما كانت قلوب بني إسرائيل هواء قد طار منها الإيمان فقد حر الرجال أسرى أو لاذوا بالفرار . وسقطت المدينة الحصينة في قبضة مختصر ، فأحرق الهيكل وجمع التوراة وأشعل فيها النيران بعد أن غنم كل ما كان في بيت المقدس ، واحتمل معه سبائا بني إسرائيل .

ورحف جيش مختصر على مملكة يهوذا ، ودار القتال في السامرة بين أهل بابل واليهود ، وسرعان ما خربت اليهودية ساجدة تحت أقدام ملك الكلدانيين .

وأمر مختصر جنوده أن يجمعوا سبائا إسرائيل وسبائا يهوذا ، وإذا بشيوخ وعجائز ورجال وساء وصبيان يملئون الأفق قد طأطأوا الرعوس في دل وانكسار ، وزاد في أساهم أن توراة الله قد التهمت النيران .

وكان في الأسرى سبعة آلاف من أهل بيت داود ، وسبعة عشر ألفا من سبط يوسف بن يعقوب وأخيه بنيامين ، وثمانية آلاف من سبط أشير بن يعقوب ، وأربعة عشر ألفا من سبط زبالون بن يعقوب ونفثالي بن يعقوب ، وأربعة آلاف من سبط يهوذا بن يعقوب جد اليهود .

ونظر مختصر إلى سبائا بني إسرائيل وشرد بفكر ، ثم أمر أن يجعلوا ثلاث فرق ، فلما تم تقسيمهم أقر ثلثا بالشام وثلثا سبائا وثلثا أعمل فيهم القتل .

وانطلق بالغنائم والأسرى إلى بابل ، وكان بين السبايا سبعون ألف صبي
فيهم داياال وحنانيا وعزير .

وهام الدين فروا من بني إسرائيل على وجوههم ثم اسابوا في حرية العرب
يلتمسون الأمن ، فرلت طائفة في تيماء وطائفة بخيبر ، ومضى أشرفهم
وأكثرهم حتى أتوا يثرب فزلوا بها وقالوا : إنها مهاجر الرسول الذي سيعثه
الله في الأميين .

وضعت النبط على الأدوميين فقد كانوا يتطلعون إلى موطنهم الحصين ،
وإلى مناجم الححاس والحديد في أدوم ، ودار القتال بين أبناء نابت بن إسماعيل
وأبناء العيص بن إسحاق ، وعلى الرعم من موقع سبع الذي تحيط به الحال
الشائخة من كل مكان فقد تمكن السط من أن يتدفقوا من المدخل الصيق بين
الجبال إلى الوادي الفسيح .

ورل الخراب بأرض أدوم وكثر فيهم القتل ، فجلوا عن بلادهم وساروا
حتى رلوا بأورشليم ، بالمدينة التي أخرها يختصر ملث الكلدانيين ،
واستقروا في فلسطين .

وأصحى النبط يسيطرون على شرايين التجارة التي كانت تمر بأرض أدوم
لتحمل تجارة العربية الجنوبية وتجارة أفريقية واهد التي تقل بالطرق البرية إلى
دمشق وعرة ، وبدأت تردهر حصارا النبط أعظم حضارات بني إسماعيل .
وجاء أرميا على حمار له معه عصير من عس في ركوة وسلّة تين من أقصى
أورشليم يسمى ، وراح يقب ووجهه في المدينة المقدسة فألقى الخراب في
حسائها واليوم يعب على أطلالها والذئاب تعوى في أرحائها ، وقد ملئ بيت
المقدس ترابا وصارت الدور رمادا ، فلوى عنى حماره وانطلق مخنعا المدينة
التي نزل بها غضب الله .

وحات مه النعانة ليرثي بيت مقدس ، هكل سليمان الذي تحوت فيه

صلوات بنى إسرائيل ، الذى تليت فى محرابه توراة الله التى نزلت على موسى الكليم ، فإذا بالمكان موحش يقبض القلب ويبعث فى الصدور حسرات .
ودمعت عيننا أرميا بعد أن وقعتا على رماد التوراة الذى راحت الرياح تدروه فقد نزعت التوراة من الأرض بعد أن نزعت من الصدور ، وحلت اللعنة ببنى إسرائيل .

وعبث الشك بأرميا فقال لما رأى أورشليم خاوية على عروشها :

— أنى يحى هذه الله بعد موتها ؟

فأمانه الله ليبعثه وليجعله آية للناس .

وعكف بنو إسرائيل فى أرض السبي على كتابة التوراة بأيديهم يجعلوها قراطيس يملونها ويحفون كثيرا . إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا أولئك ما يأكلون فى بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكهم ولهم عذاب أليم . أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار ، ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق وإن الدين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد .

كانوا أدلاء فى الأسر يبعث أهل بابل بمقدساتهم ويستبيحون نساءهم فراحوا يصمون الأنبياء بالقصص ، يجعلونهم عباد شهوة وشراب خمر ، ويسبون إليهم العشب والحداد وسرقة البركة لينفسوا عن مرارة ما فى نفوسهم . إن الذين يشترى بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكهم ولهم عذاب أليم .

وراحوا يحاولون أن ينفضوا عن أصلهم العربى بتأسيس حسن لا سدله من واقع ولا تاريخ أطلقوا عليه اسم إسرائيل نسبة إلى يعقوب بن إسحاق ، وجعلوا من أنفسهم شعبا مختارا ، وصاروا هم الناس ومن عداهم أمم من

حقهم أن يستحلوا أموالهم ودماءهم . ذلك بأهم قالوا : ليس علينا في الأسماء .
سبل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون .

وكتبوا في التوراة بأيديهم أن الله أورثهم الأرض التي بارك فيها للعالمين
وجعلهم أئمة ، وسوا أن الله قال لإبراهيم : إني جاعلك للناس إماما . قال :
ومن ذريتي ؟ قال : لا ينال عهدي الظالمين .

وجعلوا النبوة فيهم فهم الذين سيقفون وحدهم يوم القيامة في حضن
إبراهيم في جنات النعيم ، ولما كان بنو إسماعيل يناقسونهم في التوحيد وفي عبادة
الله الواحد القهار وفي أنهم مثلهم من ذرية إبراهيم ، وأكرمهم الله بأن أمر
بإقامة بيته في أرضهم قبل أن ينشئ سليمان الهيكل بقرون ، فقد كرموا
منافستهم وصمتوا عنهم الصمت المريب ، فويل للذين يكتبون الكتاب
بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ، فويل لهم مما كتبت
أيديهم وويل لهم مما يكسبون .

ومرت السنون وأحبار إسرائيل يكتبون التوراة بأيديهم . يلبسون الحق
بالباطل ، قد وقع الخلاف بينهم وإن الذين احتلموا في الكتاب لفي شقاق
بعيد .

وبينا كان مختصر نائما رأى رؤيا وقد أعجبه ما رأى ، وما إن أتمها حتى قام
من رقاذه وهو يتהלل بالفرح .

واستأنف نومه ولما أشرقت الأرض بوررها نهض يتشاءب وراح يفكر في
حلله . بيد أن شيئا أصابه فأنساه الذي كان رأى ، فأرسل يستدعي السحرة
والكهنة والذين يظفرون في السحوم وحكماء مملكته ، وقال لهم :

— أخبروني عن رؤيا رأيتموها ثم أصابني شيء فأنساها .

— أخبرنا ما تخبرك بتأويلها .

— لا أذكرها ، وإن لم تخبروني بتأويلها أمرت بقتلكم جميعا .

وعجز السحرة والكهنة وحكماء الكلدانيين عن معرفة حلم الملك ، فأمر بقتل كل سحرة بابل وحكمائها ، ولما جاء الجلاذون ليأخذوا دانيال وصحبه طلبوا أن يدخلوا على الملك ، فدخل دانيال وحنانيا وعزير من ذراري أبياء سبي إسرائيل فلما مثلوا بين يديه قال لهم :

— أخبروني عن رؤيا رأيتموها ثم أصابني شيء فأنسانيتها وقد كانت أعجبتني ، ما هي ؟

— أخبرنا بها نخبرك بتأويلها .

— ما ذكرها ، وإن لم تخبروني بتأويلها لأنزع عن أكتافكم .

فخرجوا من عنده يتلفتون في فزع ، فسيصب عليهم يختصر جام غضبه إن لم تدركهم رحمة السماء .

وراحوا يصلون إلى الله صلاة حارة ويدعون رب آبائهم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويتضرعون إليه ويسألونه أن يعلمهم إياها ، فهو عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم .

وأوحى الله إليهم ما سألهم عنه يختصر ، فانشرح صدورهم وطلبوا المثول بين يدي ملك الكلدانيين ، فلما أذن لهم ساروا في طرقات القصر العظيم مرفوعي الجبين .

كان يختصر حالسا على عرشه يحف به رجال قصره ، فدخل عليه دانيال وعزير وحيوه دون أن يحروا له ساجدين ، ثم قالوا له :

— رأيت تمثالا .

— صدقتم .

— قدماء وساقاه من فخار وركبناه وقخداه من نحاس وبطنه من فضة وصدره من ذهب ورأسه وعنته من حديد .

— صدقتم .

— فبينما أنت تنظر إليه قد أعجبتك ، فأرسل الله عليه صخرة من السماء فدقته فهي التي أنستك رؤياك .

— صدقتم ، فما تأويلها ؟

— تأويلها أنك رأيت ملك الملوك ، فكان بعضهم ألين ملكا من بعض ، وبعضهم كان أحسن ملكا من بعض ، وبعضهم كان أشد ملكا من بعض ، فكان أول الملك الفخار وهو أضعفه وألينه ، ثم كان فوقه النحاس وهو أفضل منه وأشد ، ثم كان فوق النحاس الفضة وهي أفضل من ذلك وأحسن ، ثم كان فوق الفضة الذهب فهو أحسن من الفضة وأفضل ، ثم كان الحديد ملكك فهو أشد الملوك وأعز مما كان قبله .

وكانت الصخرة التي رأيت أرسل الله عليه من السماء فدقته نبيا يبعثه الله فيدق ذلك أجمع ويصير الأمر إليه ، وتستمر مملكة الله في الأرض إلى الأبد . رأى يختصر تتابع العصور منذ خلق الله الخلق : عصر الفخار ثم عصر النحاس ثم عصر الحديد ، ثم يزوع بحجم ذلك النبي الأمي الذي يجذونه مكتوبا عندهم في التوراة .

الدين آتيهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، الدين حسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون ، ومن أضلهم من اقترى على الله كذبا أو كذب بآياته ، إنه لا يفلح الظالمون .

كان برحيا من نسل يهوذا أنى اليهود جميعا ، وكان فى نجران يتعبد لرب إسرائيل ، فلما بلغه أن يختصر أحرق هيكل سليمان وحمل بنى إسرائيل وبنى يهوذا وأبناء الأسباط إلى بابل وأخذ عماهم ونجارهم وبنائهم ليشيدوا مجد الكلدانيين نزل به هم ثقيل ، وزاد فى حنقه أن مجد بنى إسماعيل بدأ يتألق بينا مجد إسرائيل أهل وحق بهم الذل المهين .

هيكل الرب فى بيت المقدس أكلته النيران ، وراحت ذئاب البرية تعوى فى حناته واليوم تعب على أطلاله ، وأصبحت أورشليم حاوية على عروشها ، بينا بيت الله فى مكة البيت المحرم الذى أقام قواعده إبراهيم وإسماعيل يتألق بالور ، يأمن فيه الطير ويلود به الخائف ، إنه لا يزال حرما أما يجيبى إليه ثمرات كل شئ ، أهله فى سلام ييا يتخطف الناس من حولهم !

ونهبشت نار العيرة قلب برحيا وضاق بالحنق على بى إسماعيل صدره ، فإن كان الخراب قد حل بإسرائيل وهيكلها فلن يطعمى لهيب مقتله إلا أن يرى البيت المحرم بمكة خرابا يبابا . ومن أظلم ممن منع مساحد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها ؟

وامتنطى برحيا راحلته وانطلق من نجران إلى بابل وقد عزم على أن يدخل على يختصر وأن يخر له ساحدا وأن يوعر صدره على العرب ، فما دام الدمار قد حاق ببى إسرائيل فليحرص ملك الكلدانيين على أن يلبس منافسهم من بى إسماعيل لباس الذل وأن يجعلهم حصيدا خامدين .

ودخل بابل وكانت عروسا تزهو بحماها على مدن العالمين ، أبراجها عالية

تضرب في السماء شاحمة ، وتعلن للملأ مجد مردوخ وسين وشماش وعشتار وألتهما أجمعين ، يحيط بها سورها العظيم بأبوابه المائة ، فجعلها حصنا حصينا تستعصى على جبابرة الأرض ، وأطلق في معابدها البخور ونحرت الدبايح وقدمت للآلهة القرايين لتكون في حماية السماء وأرباب العرش العظيم .

وراح نهر الفرات يجري وسطها وعن يمينه وشماله قامت الدور والقصور وحدائق بابل المعلقة التي أدهشت العصور .

كانت مقامة على أساطين مستديرة متتالية طبقة من فوقها طبقة وقد أنشأها يختصر بعد أن تزوج ابنة سباحار ملك الميديين . لم تكن هذه الأميرة قد اعتادت شمس بابل الحارة ، فعادها الحين إلى خصرة بلادها الجبلية ، فدفعت الشهامة روحها فأنشأ لها هذه الحدائق العجيبة وغطى سطحها الأعلى بطبقة سميكه من الطمي وغرس فيها الأزهار والأشجار وجعلها جنة تسر الناظرين ، ورفع المياه إليها من نهر الفرات بآلات مائية محيأة في الأساطين تتناوب إدارتها طوائف من الرقيق .

وراحت نسوة القصر يمشين غير محجبات آمنات من أعين الناس فقد كانت الحدائق ترتفع عن الأرض خمسا وسبعين قدما .

اجتار برخيا بوابة عشتار ولم تخطف بصره روعة الفن السابلي ولا تماثيل الأسود البارزة ولا دقة التهاويل التي زينت البوابة العظيمة التي كان حماها يسبى العقول ، كانت آية من الفن الكلداني ، ولكن مشاعره الثائرة في نفسه أعتمته عن كل ما حوله من روعة ، فقد كدر حفده على العرب كل صعاء وشوه كل جمال .

وبلغ الميدان الكبير فأنقى يختصر قد أقام تماثلا من الذهب لمردوخ رب الأرباب إلهه العظيم ، طوله ستون ذراعا وعرضه ست أذرع ، وقد عص المكان بالكهنة والمراربة والولاة وانقضاة وقواد الجيش وحكام الولايات

والمغنين والمترلين .

وبادى المنادى :

— أمرتم أيها الشعوب والأمم أن تغزوا مردوخ العظيم ساجدين إذا ما نفخ في الصور .

وجلجل في الميدان صوت القرن والناي ، وسرى العزف على العود والرباب ، وتساوقت مع هذه الموسيقى أنعام المزامير ، وارتفعت ابتهالات المترلين لرب الناس وحالق الناس . فإذا بجباه الكهنة والمرارية والولاة والقضاة وقواد الجيش وحكام الولايات والناس أجمعين تلتصق بالأرض ، وإذا بسختصر يخر ساجدا وتمتحن دموعه بالشراب . وتمت المراسيم وقضى الاحتفال العظيم ، وراح برخيا ينظر إلى بني إسرائيل الذين يسرون في أرض السبي مطأطئي الرؤوس فيستشعر حسرة ، فإن كان أعجز من أن يحررهم من دل الأسر فلا أقل من أن يلحق بهم منافسهم من بني إسماعيل .

واطلق إلى القصر يدرج على البلاط الذي كتب على حوافيه : « أنا يختنصر ملك بابل ، ابن يابو يولاسار ، أيها الإله العظيم مردوخ امسحنا الحياة الأبدية » ، حتى إذا بلغ كبير موظفي القصر الخمس منه أن يقابل يختنصر لأنه تنقى من السماء وحيا وقد أمر بأن يبلغه إلى الملك العظيم .

كان يختنصر كثير الأحلام وكان يستعين بالكهنة والسحرة وحكماء مملكته في تفسير أحلامه ، حتى إذا عجزوا عن تأويل رؤياه كان يبعث إلى دانيال وعزير وأسياء بني إسرائيل ، فلما سمع أن بالبابل نبيا يحمل أوامر السماء قد جاء من بجران ليسر إليه بما يوحى إليه أمر بأن يدخل وتأهب للقاء المثير . ودخل برخيا ترن في حباته تلك الأعية التي سمعها من اليهود الجالسرين على

شاطئ الفرات :

« على أهار بابل جلسنا وبكينا على صهيون ،

وفى وسط الصفصاف علقنا أعوادنا ،
لأن من سبونا طلبوا إلينا أن نغنيهم ، والذين عذبونا أرادوا أن نطربهم ،
وبادونا هلا أنشدتمونا أحد أناشيد صهيون ؟
وهل نستطيع أن ننشد نشيد الله فى بلد غريب ؟
ولئن سبتك يا أورشليم فلتنس يمينى حديقها .
وليتصق لسانى بسقف حلقى إن لم أذكرك يا أورشليم ،
وإن لم تكونى لى خيرا من أفراحي .
ورحب يختصر برحيا وألقى إليه السمع ، فقال برحيا :
— إى الله أوحى إالى أن اتت يختصر وأمره أن يغزو العرب الذين لا أغلاق
ليوتهم ولا أبواب ، وأن يطأ بلادهم الخنود فيقتل مقاتلتهم ويستبيح أموالهم ،
وأعلمه كفرهم فى واتخاذهم الآلهة دوى وتكذيبهم أنبيائى ورسلى .
وظل برحيا يفت سموه فى صدر يختصر حتى أقععه عما يريد ، وألقى فى
روعه أن ما قاله إن هو إلا وحي يوحى ، ونهص يختصر لينفذ مشيئة السماء .
كان تجار العرب يغلبون ويروحون فى بلاد بابل مطمئين بعد أن اتحد العرب
والباليون على آشور وسددوا إليها طعنة جعلتها فى الغابريس ، كانوا يقدمون
على بابل بالتجارات والبياعات ويمتارون من البابلين الحب والتمر والثياب .
وكانوا سعداء بالأمن وبالسلام الذى رفرق على ربوع ممالكهم ، بيد أن برحيا
عقده الدفين عكر ما بين البابلين ونى إسماعيل من صماء .
وأمر يختصر قائد جيوشه بالقبض على العرب فى الأسواق وفى كل مكان
من بلاد الكلدانيين ، وساق جند بابل العرب زمر إلى قصر الملك الذى أعار
برحيا أذنيه وأسلس له قياده ، وغصت بابل بمن ظفر به يختصر من العرب ،
فأمر أن تنبى لهم مدينة على السجف وأن تحصن ، وأن يقوم عليها حرس
وحفظة .

وبنيت الحيرة وصم إليها أسرى العرب ، وأحس برخيا بعض الراحة فعا
 حاق يسي إسرائيل قد لحق مثله بنى إسماعيل ، بيد أن هيكل سليمان قد سار
 طعمة للنيران بيتا بيت الله في مكة لا يزال مثابة للناس وأمنا ، فراح ينفخ في نار
 الحقد ويؤججها في صدر مختصر .

وانتشر الخبر في قيدار وعريبي وفي مملكة النبط وفي قبائل بنى إسماعيل التي
 كانت تفصل بينهم وبين بلاد الرافدين ، فرأت طوائف منهم أن تخرج إلى بابل
 مسالمين مستأمنين ، ورأى عدنان بن أدد أن يتأهب لمعركة يشيب من هوها
 الوليد .

وخرجت طوائف المسلمين إلى بابل يحملون الهدايا والولاء لبختنصر ملث
 الكلدانيين العظيم ، ومثلوا بين يديه وقد جنحوا للسلم يلتمسون منه الأمن ،
 ولم يستطع بختنصر أن يبيت في الأمر قبل أن يستشير برحيا الرجل المبارك الذي
 جاءه بوحي السماء !

واستشار بختنصر فهم برخيا فقال :

— إن خروجهم إليك من بلادهم قبل هوضك إليهم رجوع منهم عما
 كانوا عليه ، فاقبل منهم فأحس إليهم .

وأنزلهم بختنصر السواد على شاطئ الفرات لينبوا موضع عسكرهم
 وليصيروا فيما بعد « الأتبار » ، ونزل العرب الحيرة والأببار ، وحمل بو
 إسرائيل إلى بابل واجتمع العرب وبنو إسرائيل في الأرض التي خرج منها
 جداهم العظيم إبراهيم الخليل ، أرض الكلدانيين .

حرب بختنصر بيت المقدس وأرض يهودا ونسف بنى إسرائيل نسفا
 فأوردتهم أرض بابل ، ولكنه لم يظفر من العرب إلا بمن خرجوا إليه مسالمين
 مستأمنين ، وما كان هذا ليرضى برخيا فراح يزين له الخروج إلى العرب الذين

لم يعلنوا له الولاء والخصوع .

وراح يختصر يتأهب لغزو العرب ، لقتل الدين لا يؤمنون بإلهه ولا يدينون بالولاء للمردوخ ، وقد عزم على ألا يستحيى فيها إسبانيا وأن ينسف كل شيء نسفا .

واستعد عدنان للقتال ، وفيما هو يتأهب للخروج ألقى الله في صدره أن يبعث بولديه معد وعلك إلى من بقى من بني إسماعيل بأرض الحجاز ليكونا في بيت الله ، حيث يأمن الخائف ، ليبتغيا السلام وفصلا من الله ونعمة والله عليم حكيم .

وراح عدنان يودع ولديه ، كان معد في الرابعة عشرة وكان علك أصغر منه ، ولكن معدا كان يبدو رجلا مكتملا ، في وجهه نبيل ووسامة يشع منه صلاح وتقوى . وقد كان ضامرا ركن إلى التقشف واخشوش دون أن تعرض عليه الظروف قسوة الحياة

انطلق معد وأخوه في رعاية الله وما دار بخلد أحد أن الله قد أبعد معدا عن ميدان القتال لأمر جليل ، فهو عالم العيب لا يظهر على غيبه أحدا ، وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبین .

أراد الله أن يدخره ليم نوره ، فمن ولده نبيه ورسوله خاتم المرسلين . سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدرا مقدورا .

خرج يختصر في عدد مثل سواد الليل المظلم له عساكر مثل قطع السحاب ، ومراكب أمثال العجاج ، كأن خفيق راياته طيران النصور وكأن حملة فرسانه كزير العقبان ، في أيديهم أقواس وسهام ورماح وفتوس ، تتدلى من مباطقهم الخناجر والسيوف ، وقد انطلقوا لتحقيق حلم برخيما من في قلبه مرض للعرب أجمعين .

وخرج عدنان على رأس جيوش بني إسماعيل وقد امتطوا الخيل العرب والإبل التي تنطلق في الصحراء انطلاق الرمح ، وقد تسلحوا بالسيوف التي جلبوها من مصر ودمشق ومن بلاد الفينيقيين ومن اليمن ، وبالرماح والأقواس والسهام التي جلبوها من كل مكان ، فإنهم لما أحسوا الخطر أخذوا يستبدلون البخور والطيب والتوابل بكل بتار عنيد .

والتقى جيش يختصر بمركباته وفرسانه بجيش عدنان محصورا ودارت رحى المعركة ، وكان القتال رهيبا سالت فيه الدماء وزهقت فيه الأرواح وملأت جثث القتلى الفضاء ، وانقصت نسور السماء وجوارح الطير تفر البطون ولم يظهر فريق على فريق .

وراح أهل بابل يتהלون إلى مردوح وسين وشماش وعشتار وآلهتهم الأخرى لتنصرهم على أعدائهم ، وكان عدنان ومن معه من بني إسماعيل يعرعون إلى اللات والعزى ومائة بعد أن طال عليهم الأمد وقست قلوبهم فسوا إلى آبائهم الواحد القهار ، من ينصر من ينصره ، ويمد أوليائه بالنصر المين .

وأراد الله أن يذيق بني إسماعيل العذاب وذلك عما قدمت أيديهم . ما يأتيهم من ذكر ربهم محدث إلا اتبعوه وهم يلعبون . فالتقى الرعب في قلوبهم فراح جند يختصر يمشون إليهم مشى الوعول ويضربون منهم الرقاب . وكم قصبتا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين . فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون . لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون . قالوا : يا ويلنا إنا كنا ظالمين . فما رالت تلتك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين .

وكرر في بني إسماعيل القتل ، ثم ثبت عدنان وثبت معه من حوله فكسرت عليهم حملات البابليين ، وصبر العرب للقتال ، وحشى يختصر أن تدور عليه

الدائرة فراح يحفر الخنادق ليحتسى فيها ، وخذق عدنان واستمرت المناوشات بين الجيشين ، ثم نهى عدنان عن مختصر ونهى مختصر عن عدنان وقفل كل جيش راجعا إلى بلاده وقد فار من الغنيمة بالإياب .
ولم يشأ الله أن يذهب عدنان والذين معه ويأتى بخلق جديد ، فقد كان يعلم أن سيكون من نساء هؤلاء العرب الذين أشركوا به خير أمة أخرجت للناس ، وكان الله عليما حلما

تذييل

هذا الكتاب — على ما أعلم — أول كتاب عن بنى إسماعيل ، فلم يعرف المؤرخون القدامى ولا الإخباريون الإسلاميون إلا النزر اليسير عن تلك الحقبة التى انقضت بين إقامة إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل وبين عدنان بن أدد الحد الأعلى للرسول ^{صلى الله عليه وسلم} ، أى بين سنة ١٧٠٠ وسنة ٥٠٠ قبل الميلاد ، وقد اعتمد المؤرخون القدامى والإخباريون الإسلاميون على ما جاء فى التوراة عن الإسماعيليين . ولما كانت المنافسة على الرعاية الدينية بين بنى إسماعيل وبنى إسرائيل شديدة ، ولما سجل مؤرخو اليهود تاريخهم عندما أعادوا كتابة التوراة فى مناهجهم ، فقد سكتوا متعمدين عن تاريخ الإسماعيليين .

ومن هنا ذهب بعض الكتاب الإسلاميين فى عصرنا هذا إلى أن إسماعيل أسطورة من الأساطير وأنه لم يمش فى الأرض يوما ، ذلك لأن إسماعيل لم يرد اسمه فى نقش من النقوش التاريخية ، متبعين مذهب الشك قلى اليقين ، كأنما قد كشفت بطون الأرض كل أسرارها وكأنما لم يعد هناك تاريخ مطمور . اكتشف بوتنا فى العصر الفيكتوري العاصمة الآشورية الجديدة التى بناها سرجون الثانى فى أواخر القرن الثامن قبل الميلاد ، فأصبحت آشور فجأة ملء الأسماع وورخت المحلات المصورة فى كل من إنجلترا وفرنسا بصورة تمثل تفاصيل مناظر الحرب والفتح والاحتفالات والحياة اليومية لشعب لم يكن يعرف عنه حتى ذاك الوقت إلا بعض تلميحات فى التوراة وبيانات غير واضحة للمؤرخين الكلاسيكيين .

وقام هرى لا يرد بالتنقيب فى نمرود وتكشفت حضارة بابل وآشور ، ولما

كان بنو إسماعيل الذين انتشروا بين حدود بابل وحدود مصر على صلة وثيقة
سابل وآشور ، وقد لعبوا دورا هاما في تاريخ المنطقة آنذاك ، وكانوا يفتنون
الآشوريين ويمدون يد العون لكل أعداء آشور ، فقد سجل الآشوريون ما
كان يسهم وينهه هؤلاء العرب من سى إسماعيل من مناوشات وحروب .

وأعلست ألواح الطين التى كتبت بالخط المسمارى والتى وجدت فى أطلال
بابل ونيوى وبلاد ما بين النهرين أن بنى إسماعيل كانوا حقيقة واقعة وأن أباءه
الاشى عشر صاروا قبائل قوية تناوى بابل وآشور ومصر والإغريق
والرومان ، وأثبتت الحفريات والقوش أن إسماعيل عليه السلام كان يمشى فى
الأسواق وكان صادق الوعد وكان رسولا نبيا .

واعتقد أن ما وصل إلينا من المصادر الآشورية والإغريقية والرومانية عن
سى إسماعيل قليل وأن بطن الأرض لا يزال يخفى الكثير عن هذه الحقبة التى تقع
بين ساء الكعبة أيام إبراهيم وإسماعيل ومولد الرسول ﷺ . وقد اعتمدت على
هذا القليل لتوصيى بعض الجوانب التى حفيت على الإخباريين الإسلاميين
والمؤرخين الكلاسيكيين وتصويب المراجع التى حاول اليهود أن يفسوها فى
العقول على مر العصور .

ترجمت التوراة التى كتبها أخبار اليهود فى المعنى إلى العربية فى القرن الثانى
الهجرى ، فراح المؤرخون والإخباريون المسلمون يهتدون منها دون حذر ،
ولا غرو فقد كانوا يحسبون أنها تواراة الله ، فعصت كتب التاريخ الإسلامى
بالإسرائيليات وأساطير الشعوب التى دسها أدباء اليهود على كتاب الله ،
وراح المولعون بوضع الأحاديث السوية ينهلون من كتاب اليهود وهم يحسبون
أنهم يحسبون صفا ، فكان ما يلاحظ فى بعض الأحاديث من محافة للمسطق
الذى اشتهر به محمد بن عبد الله ﷺ ، ومحافة لعظمة من أوحى الله إليه
قرآنه .

ولم يعرف الإخباريون الإسلاميون دولة النبط التي كانت قبيلة نابت بن إسماعيل ثم امتد سلطانها حتى احتلت دلتا النيل وطور سيناء ودمشق وامتد سلطانها حتى حدود بلاد البحرين ، وإن عرفها يوسفوس المؤرخ اليهودي الذي عاش في القرن الأول الميلادي ، وعرفها مؤرخو الإغريق والرومان الكلاسيكيين . وقد ضيع جهل الإخباريين بهذه الدولة كثيرا من الحقائق وجعلهم يتحيطون في تفسير بعض ما لا يمكن تفسيره إذ أهمل تاريخ هذه الدولة التي كانت ركنا هاما قامت عليه حضارة الإسلام ، فقد كانت لغة قریش لغة القرآن مشتقة من لغة هؤلاء الأقوام ، وقد قال ابن عباس : « نحن معاشر قریش من النبط » .

وقد عثر على نصوص ببطية في البتراء — وكانت تعرف من قبل بسلع — عاصمة ملكهم بوادي موسى ، والحجر والعلا وتيماء وخيبر وصيدا ودمشق وطور سيناء والجوف واليمن ومصر وإيطاليا ، ولما كان الإخباريون لا يعرفون شيئا عن مملكة النبط فقد قالوا : إن النبط جيل من العجم يتزلون البطائح بين العراقين ، سموا بذلك لكثرة النبط عندهم ، وهو الماء . وقد قصد الإخباريون بالنبط بقايا الشعوب القديمة خاصة المازليين في البطائح منهم ، أما النبط الذين ورد ذكرهم في هذا الكتاب والذين سيرد ذكرهم في الجزء الرابع بإذن الله ، فهم أباء نابت بن إسماعيل . وقد أطلق يوسفوس اسم « النبط » على منطقة واسعة تمتد من نهر الفرات فتصل بحدود الشام إلى البحر الأحمر وهي من مناطق أولاد إسماعيل .

وكان لجهل الإخباريين بدولة النبط أثره في تدوين التاريخ ، فقد ذكروا أن عدنان قابل مختصر بدات عرق بمحسورا باليمن . ولما كانت محسورا هي الحيرة على رأي أغلب المؤرخين المحدثين ، فقد جعلت عدنان في مملكة النبط ، وأدارت المعركة بين مختصر وبين عدنان إن كانت قد وقعت — في الحيرة ،

وهذا أقرب إلى العقل ، فقد دارت جميع المعارك التي نشبت بين بني إسماعيل وبين الآشوريين والبابليين في بلاد ما بين النهرين وفي البادية حتى تلك الأيام ولم يحدث أن توعلت قوة من الآشوريين أو البابليين في قلب جريدة العرب لتصل إلى اليمن .

وقد يقول قائل : لماذا أطلقت على هذه السلسلة « محمد رسول الله » والدين معه ؟ إذا كنت أكتب تاريخ الأنبياء منذ أيام أبي الأنبياء إبراهيم إلى خاتم النبيين محمد رسول الله ﷺ ؟ وأحب أن أقول إني أكتب قصة الإسلام منذ أن دعا إليه إبراهيم الخليل إلى أن جاء الرسول الكريم ليشت أركانه وليعلن للملأ أن الله سيحفظ دينه إلى يوم الدين : « إنا نحن نزلنا الذكر وإن له لحافظون » (١) .

دعا جميع الأنبياء والرسل إلى الإسلام ، فهو دين الله منذ آدم إلى يوم يعثون ، لم يعرف التطور ولا الارتقاء فهو دين العطرة ، كلما طال على الناس الأمد طمسوه بفلسفاتهم وأساطيرهم فبعث الله الرسل ليعيدوا للدين القيم بساطته ولينقوه مما علق به من شوائب فسوة القنوب .

كان الإسلام دعوة جميع الرسل والأنبياء : « ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين » (٢) . ومن يرعب عن ملة إبراهيم إلا من سعه نفسه ولقد اصطفياه في الدنيا وإياه في الآخرة من الصالحين . إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالين . ووصى بها إبراهيم بيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتن مسلمون . أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي ؟ قالوا بعد إلهمك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون » (٣) . ودعا يوسف إلى الإسلام : « رب قد آتيتني من الملك

(٢) آل عمران ٦٧ .

(١) الحجر ٩

(٣) البقرة ١٣٠ — ١٣٣ .

وعلمتني من تأويل الأحاديث ، فاطر السموات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفى مسلماً وألحقني بالصالحين »^(١) . ودعا موسى وداود وسليمان إلى الإسلام : « .. قالت رب إنى ظلمت نفسي وأنسيت مع سليمان لله رب العالمين »^(٢) . وكانت دعوة المسيح عليه السلام : « فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله ؟ قال الخواريون نحن أنصار الله أما بالله واشهد بأنا مسلمون »^(٣) .

إله واحد ودين واحد لم يعتوره التطور ولم يعرف التبديل « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون »^(٤) .

وقد كتبت في إنجيل قصة الرسل جميعاً ، لأظهر بشاراتهم بالنبى الأسمى الذى سيعتبه الله بوراً هادياً من الأمم لا من بنى إسرائيل .

الله يصططفى من الملائكة رسلاً ومن الناس ، وكان إدريس أول من أرسل إلى المصريين فعرفوا التوحيد قبل عصر الأسرات ، ثم جاء إلى مصر إبراهيم الخليل هو سماكم المسلمين من قبل ، وفي عصر الهكسوس جاء يوسف إلى مصر وجعله الملك على خزائن الأرض فعرفت مصر التوحيد في ذلك العهد ، وجاء أبوه يعقوب وإخوته واستقروا في الدلتا وكانوا يعبدون الله وحده لا شريك له .

عرفت مصر التوحيد قبل عصر الأسرات وعرفته الأسرة الثالثة عشرة يوم أن جاء إبراهيم بجادل كهنة منف ، وعرفته في الأسرة السادسة عشرة في أيام يوسف الصديق فل أن يدعو إحتاتون إلى عبادة الشمس في أواخر أيام الأسرة

(٢) المثل ٤٤ .

(٤) البقرة ١٣٦ .

(١) يوسف ١٠١ .

(٣) آل عمران ٥٢ .

الثامنة عشرة التي اضمحلت على يديه ، ولم يكن إخناتون أول من عرف التوحيد كما قيل بل كانت دعوته نكسة بعد دعوة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ، بل ردة عن التوحيد .

وقال المفسرون إن امرأة فرعون التي التقطت موسى من اليم هي آسية بنت مزاحم رضى الله عنها واستدوا في ذلك إلى أحاديث بيوية ، وقال الإخباريون ، إنها آسية بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد فرعون يوسف فأسلمت على يد موسى ، ثم عادوا وقالوا : إن امرأة فرعون آسية كانت من بنى إسرائيل وأنها كانت تخفى عن فرعون .

جعلوها مرة من الهكسوس ومرة أخرى من بنى إسرائيل وقد رفضت الرأيين معا ، لأن أحسن كان قد أجلى الهكسوس قبل مولد موسى بعدة قرون ، وعلى ذلك فمن الخطأ أن نسب إلى الهكسوس . ورفضت الرأي القائل بأنها كانت من بنى إسرائيل لأن الفراعين ما كانوا يتزوجون إلا امرأة يجرى في عروقها الدم الملكي ، وللمحافظة على نقاوة ذلك الدم كانوا يتزوجون أحواتهم ، وقد أخذت رأى الأستاذ جارستج عضو بعثة مارستون Marston التابعة للجامعة ليفربول . أنه كشف في مقابر ربحا الملكية أدلة تثبت أن موسى قد أنجبه بالتحقيق الأميرة حتشسوت « الملكة حتشسوت فيما بعد » وكان ذلك في عام ١٥٢٧ ق . م . وأنه برى في بلاطها بين حاشيتها ، وأنه فر من مصر حين جلس على العرش علوها تخمس الثالث . هو يعتقد كذلك أن الحملات التي وجدت في هذه القصور تؤيد قصة سقوط أريخا « يشوع ٢٦ » ويرجع سقوطها إلى حواى ١٤٠٠ ق . م . كما يرجع خروج بنى إسرائيل من مصر إلى عام ١٤٤٧ ق . م . وتعتمد هذه التواريخ على ما وجد مقوشا على الجعلان والحزف .

وقال المفسرون والإخباريون المسلمون إن فرعون موسى هو مصعب بن

قابوس وهو من العماليق ، ولم آخذ بهذا الرأي اعتماداً على القرآن الكريم^(١) ، ففي قصة يوسف حرص القرآن على أن يؤكد أن حاكم مصر لم يكن من الفراعين بل كان حاكماً أحياناً : « قال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف »^(٢) ، و « قال الملك اتنوبى به أمتحلصه لنفسى »^(٣) أما عندما كان يقص قصة موسى فقد كان يذكر فرعون صراحة : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وملئه .. »^(٤) .

قبلت الرأي القائل بأن ملك مصر في أيام يوسف الصديق هو الريان بن الوليد ، وأيد هذا الرأي عندى أنه عثر على ملك من ملوك الهكسوس اسمه نحيان ، وأظن أنه من الممكن أن يحرف الريان إلى نحيان ، ولم أقبل الرأي القائل بأن فرعون موسى هو مصعب بن قابوس ، اعتماداً على ما جاء في القرآن الكريم .

والتواتر بين أغلب المؤرخين أن موسى كان في عهد رمسيس الثاني وانه منفتح . وقد رفضت هذا الرأي فقد أقام مفتاح لوحة حوالى عام ١٢٢٥ قبل الميلاد كتب فيها :

« لقد غلب الملوك وقالوا سلاما ،

وهدئت أرض الحثيين ،

وانتهت كنعان وحلت بها الشرور ،

وحربت إسرائيل ولم يعد لأبنائها وجود ،

وأضحت فلسطين أرملة لمصر ،

وضمت كل البلاد وهدئت .

وكل من كان ثائراً قبه الملك منفتح » .

(١) راجع تذييل الجزء الأول .

(٢) يوسف ٤٣

(٤) هود ٩٦ ، ٩٧ .

(٣) يوسف ٥٤ .

وليستقيم هذا الخبر لا بد أن تكون إسرائيل قد تكوت قبل أن يشن منفتح عليها هجومه الذى دونه فى هذه اللوحة ، لذلك لم آخذ بهذا الرأى المتواتر الذى أحده معطه من كتبوا تاريخ موسى عليه السلام أو سجلوا أحداث هذه الفترة فى عمل أدنى .

ويظن كثير من المسلمين ، بل كثير من المؤرخين أن إسحاق ويعقوب ويوسف وموسى كانوا يهودا ، على الرغم من أن القرآن الكريم أكد أنهم لم يكونوا يهودا^(١) أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا يهودا أو نصارى قل : أأنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون^(٢) . وإن الواقع التاريخى يفى كونهم يهودا ، كان إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط مسلمين على ملة أبيهم إبراهيم ، وكان الأسباط اثنى عشر رجلا من أبناء يعقوب ، وكان يهودا — الجد الأعلى لليهود — ابنه الرابع . وقد ظل بنو إسرائيل ينسبون إلى يعقوب (إسرائيل) حتى صار ملك إسرائيل لداود وسليمان وكانا من نسل يهودا فأرادت قبيلتهما أن تستأثر بالفصل وحدها ، فانقسمت إسرائيل بعد موت سليمان فى عام ٩٣٧ ق . م . إلى دولتى يهودا وإسرائيل ، ومد ذلك التاريخ بدأت اليهودية .

كان إبراهيم وإسحاق ويعقوب قبل يهودا ، وكان يوسف سبطا من الأسباط مثل يهودا ، وكان موسى من نسل لاوى ولم يكن من نسل يهودا ، وعلى ذلك لم يكن إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وداود وسليمان يهودا بل كانوا حنفاء مسلمين .

عرف بنو إسماعيل وبنو إسرائيل ذلك الكنز الروحى الذى جاءهم به إبراهيم ، وكانوا يدعون الله رب العالمين حتى عرفت قبيلة يهودا ذلك التعصب

بعد ملك سليمان فادعوا أنهم وحدهم الناس وأن من عداهم أمم ، وأن الله لن يبعث رسولا إلا منهم ولن يبعث في الأميين رسولا ، وقد فرق القرآن الكريم بين بني إسرائيل وبين اليهود فلم يأت ذكر لليهود في القرآن قبل مسنك سليمان ، وقد ذكر الله بني إسرائيل بعلمته التي أنعم عليهم وبالهدي الذي هداهم وبالكتاب الذي أورثهم ولم يذكر اليهود بخير ، ذلك بأنهم رعموا أمم أباء الله وأحباؤه وأنهم شعبه المختار ، وقصروا الجنة على أنفسهم دون الأميين . « وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى »^(١) وسأذكر في تذييل الجزء الرابع إن شاء الله ما طرأ على التوراة من تغيير في أيام المنفى ، وكيف بدلت صفات الله إلى صفات يهوه إله اليهود القاسي المستبد ، سبحانه الله عما يصفون ، وكيف كان اليهود من أوائل الشعوب التي بادت بالترفة العصرية بعد أن كان إبراهيم يدعو إلى العالمية وإلى أخوة بشرية .

وقد جاءت كلمة أمي في القرآن الكريم سبة إلى الأمة والأمم ردا على مراعم اليهود . فقد قالوا إن الله اصطفاهم على العالمين ولن يبعث في الأميين رسولا ، فجاء القرآن يدهض هذا الرعم الذي قاله قوم بلغ بهم التعصب المقيت أن عبدوا أنفسهم غرورا : « هو الذي بعث في الأميين رسولا »^(٢) ، « وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم .. »^(٣) ، « ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل »^(٤) . « الذين يتعنون الرسول النبي الأمي »^(٥) .

ووصم الدين كتبوا التوراة بأيديهم في أرض السبي أبياء الله بكل نقائص البشر ، فجعلوا نوحا شارب خمر ، ووصفوا إبراهيم خليل الرحمن بالكذب ، وقالوا إن انتنى لوط قد أسكرتا أباهما واضطجعتا معه ، ورموا داود بالزنا ،

(٢) الجمعة ٢ .

(١) البقرة ١١١ .

(٤) آل عمران ٧٥ .

(٣) آل عمران ٢٠ .

(٥) الأعراف ١٥٧ .

وقد انتقاد كثير من الإخباريين المسلمين إلى هؤلاء اليهود الذين ملثوا كتاب الله بأساطير الشعوب ، وقد كان الطبرى من أكثر المؤرخين الذين مهلوا من التوراة التى كتبها أخبار اليهود فى بابل دون تمحيص .

قال الطبرى فى سيرة داود : « ... كان داود قد قسم الدهر ثلاثة أيام ، يوماً يقضى فيه بين الناس ، ويوماً يخلو فيه لعبادة ربه ، ويوماً يخلو فيه لنسائه ، وكان له تسع وتسعون امرأة ، وكان فيما يقرأ من الكتب أنه كان يجد فيه فصل إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، فلما وجد ذلك فيما يقرأ من الكتب قال : — يارب أرى الخير كله قد ذهب به آياتى الذين كانوا قلى ، فأعطني مثل ما أعطيتهم وأفعل بى مثل ما فعلت بهم .

فأوحى الله إليه : إن آباءك اتلوا سلايا لم تبتل بها ، ابتلى إبراهيم بديح ابنه ، وابتلى إسحاق بذهاب بصره ، وابتلى يعقوب بحزنه على ابنه يوسف ، وإنك لم تبتل من ذلك بشيء .
قال :

— يارب ، ابتلى مثل ما ابتليتهم به وأعطينى مثل ما أعطيتهم .

فأوحى إليه : إنك مبتلى فاحترس .

ممكث بعد ذلك ما شاء الله أن يمكث ، إذ جاءه الشيطان قد تمثّل فى صورة حمامة من ذهب حتى وقع عند رجليه وهو قائم يصلى ، فمد يده لياخذه فتنجى ، فتبعه فتباعد حتى وقع فى كوة ، فذهب لياخذه فطار من الكوة ، فنظر أين وقع فبعث فى أثره ، فأبصر امرأة تغتسل على سطحها فرأى امرأة من أحمل النساء خلقاً ، فحانت منها التفاتة فأبصرته فالتفت شعرها فاستترت به . فإرادته ذلك فيها رغبة ، فسأل عنها فأخبر أن لها زوجاً وأن زوجها عائب بمسلحة كذا وكذا ، فبعث إلى صاحب المسلحة يأمره أن يبعث أوريا إلى عدو كذا وكذا ، فبعثه ففتح له وكتب إليه بذلك ، فكتب إليه أيضاً أن ابعثه إلى

عدو كذا وكذا أشد منهم بأسا ، فبعثه ففتح له أيضا ، فكتب إلى داود بذلك ، فكتب إليه أن ابعته إلى عدو كذا وكذا ، فبعثه فقتل المرة الثالثة .

وتزوج داود امرأته ، فلما دخلت عليه لم تلبث عنده إلا يسيرا حتى بعث الله ملكين في صورة إنسيين فطلبها أن يدخلها عليه ، فوجداه في يوم عبادته فمتنهما الحرس أن يدخلها عليه ، ففسورا عليه المحراب فما شعر وهو يصلي إذا هو بهما بين يديه جالسين ، فمزع منهما ، قالا :

— لا يحف إنما نحن حصان يعى بعضا على بعض فاحكم بيتا بالحق ولا تشطط .

قال :

— قصا عني قصتكما .

فقال أحدهما :

— إن هذا أحى له تسع وتسعون نعمة ولى نعمة واحدة ، فهو يريد أن يأخذ بمعنتي فيكمل بها نعاجه مائة .

فقال للآخر :

— ما تقول ؟

فقال :

— إن لي تسعا وتسعين نعمة ولأحى هذا نعمة واحدة ، فأنا أريد أن آخذها فأكمل بها نعاजी مائة .

قال :

— وهو كاره ؟

قال :

— وهو كاره .

قال :

— إذا لا ندعك وذاك .

قال :

— ما أنت على ذلك بقادر .

قال :

— فإن ذهبت تروم ذلك ضربنا منك هذا وهذا . (طرف الأسف

والجبهة) .

فقال :

— يا داود ، أنت أحق أن يضرب منك هذا وهذا حيث لك تسع وتسعون

امراة ولم يكن لأوريا إلا امراة واحدة ، فلم تزل به تعرضه للقتل حتى قتل وتزوجت امرأته .

فنظر فلم ير شيئا ، فعرف ما قد وقع فيه وما ابتلى به فحمر ساجدا فبكى ،
فمكث يبكي ساجدا أربعين يوما لا يرفع رأسه إلا الحاجة لا بد منها ثم يقع
ساجدا يبكي ، ثم يدعو حتى نبت العشب من دموع عييه ، فأوحى الله عز
وجل إليه بعد أربعين يوما :

— يا داود ارفع رأسك فقد عفرت لك .

فقال :

— يارب كيف أعلم أنك قد عفرت لى وأنت حكم عدل لا تحيف و

القضاء إذا جاء أوريا آخذا رأسه يمينه أو بشماله يشحب أوداجه دما قبل
عروشك ، يقول : يارب سل هذا فيم قتلنى .

فأوحى الله إليه :

— إذا كان ذلك دعوت أوريا فأستوهبك منه فهبك لى ، فأثيبه بذلك

الحنة .

قال :

— رب الآن علمت أنك قد عفرت لي .

فما استطاع أن يملأ عينيه من السماء حياء حتى قبض^(١) .

سامح الله الطيرى ومن أخذ عنهم . وعفرت لي رثتي يوم أخذت عن الطيرى
هذا الحديث لما كنت أكتب كتابي « قصص من الكتب المقدسة » ، فماسب
إلى داود عليه السلام لا يليق بعاد الرحمن ، فما بالك بأسياء الله وأصفيائه ؟
روى عن الإمام أحمد أنه قال : « من حدث بحديث داود على ما يرويه
القصاص جلده مائة وستين جلدة » . فقد اعتبر الإمام أحمد ما يرويه
القصاص قذفا في حق نبي من أنبياء الله . إن الآيات الكريمة الواردة في القرآن
عن تسور الخصمين محراب داود لا علاقة لها بأوريا ولا روضة أوريا ، إنما أريد
بها أن يعلم الله داود أسلم مبدأ للحكم بين الناس ما دام قد جلس للقصاء . ألا
وهو أن يسمع أقوال الخصمين قبل أن يصدر حكمه وألا تأخذه شفقة معظهر
أحدهما ، فقد يكون الغنى أو القوى هو صاحب الحق وقد يكون المسكر
المقير لا حق له ، وقد أخطأ داود الحكم في القضية التي عرست عليه لأنه
حكم بعد أن سمع أحد طرفي الخصوم قبل أن يسمع الطرف الآخر ، وكان
هذا التسرع في الحكم هو ما ظن داود أنه فتنة ، أما أن تؤول نعمة بامرأة فهي
ذلك تعسف شديد ولوى لعنت النصوص دون حاجة إلى ذلك العت
والجهد . والآيات الكريمة التي جاءت بعد آيات تسور الخصمين المحراب
وعرست قصتهما توصح في جلاء أن القصة إنما أريد بها تنبيه داود عليه السلام
أن يحكم بين الناس بالحق : « وهل أتاك نبا الخصم إذ تسوروا المحراب . إذ
دخلوا على داود فصرع منهم ، قالوا : لا تحف حصاناً بغير بعضاً على بعض
فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط » إن هذا أحسن له تسع
وتسعون نعمة ولى نعمة واحدة ، فقد أكفيتها وعرفت في الخطاب . قال .

لقد ظلمك بسؤال معحتك إلى نعاجه ، وإن كثيرا من الخططاء ليعي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم . وظن داود أنما قضاه فاستعمر ربه وحر راكعا وأواب . فمعمرنا له ذلك وإن له عندنا لزلمى وحس مآب . يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ^(١) .

وكان بنو إسرائيل عرما كما كان بنو إسماعيل ، ولكن اليهود بعد أن انقسمت مملكة إسرائيل إلى مملكتي إسرائيل ويهوذا عقب ملك سليمان حاولوا أن ينفصوا عن أصلهم العربي بتأسيس جس لا سد له من التاريخ ، فأطلقوا على أنفسهم اسم إسرائيل نسبة إلى يعقوب بن إسحاق . وعاش بنو إسرائيل بين الكنعانيين وأخذوا العربية عنهم وكانت بينهم وبين الكنعانيين أصحاب فلسطين الأصيين حروب ، وقد تعتمد اليهود إقصاء الكنعانيين في توراتهم التي كتبوها في المنفى بعد عصر موسى ثمانئى السنين ، من جدول أنساب سام لأسباب سياسية ودينية ، مع أنهم يعلمون حق العلم ما بينهم وبين الكنعانيين من الصلات العنصرية واللغوية .

وقد أشد العصب بين قبائل بني إسرائيل بعد أن صار ملك إسرائيل إلى داود وسليمان وكانا من نسل يهوذا ، وقد ظهر ذلك التعصب بوضوح في إصحاحات الأنبياء التي دونت في المنفى فلم يرد اسم موسى في « أشعيا » ، لأن موسى كان من اللاويين ولم يكن من نسل يهوذا .

ويقول ول ديورانت في كتابه « قصة الحضارة » : « وأكبر الظن أن المزامير ليست كلها من وضع داود وحده بل من وضع طائفة من الشعراء كتبوها بعد الأسر اليهودي برمن طويل . ويقول : وإذا ما وصعنا إلى جانب

هذه المزامير « نشيد سليمان » لاح لنا ما في الحياة اليهودية من عنصر شهوانى دنيوى ، لعل كتاب العهد القديم وهم الدين يكادون كلهم أن يكونوا من الأنبياء والكهنة قد أخفوه عنا .. ولسنا بدرى كيف غفل — أو تغافل — رجال الدين عما في هذه الأغاني من عواطف شهوانية فأجازوا وضعها بين أقوال أشعيا والخطباء ؟ » .

ويذهب إلى أن « نشيد الإنشاد » الذى ينسب إلى سليمان قد يكون من وصع امرأة ، والحق معه مهمل يعقل أن يقول سليمان :
 « ها أنت حميل يا حبيبى وحلو وسريرا أخصر .
 أنا برجس شارون ، سوسة الأودية .
 أسندونى بأقراص الريب ، أنعشونى بالتفاح فأنى مريضة جدا .
 أحلمكن يا بنات أورشليم بالطباء وبأياثل الحقول ألا تيقطن ولا تبين الحبيب حتى يشاء .

حبيبى لى وأنا له الراعى بين السوسن » .
 وطم اليهود سليمان ورعموا أنه مات كافرا بالله . وجاء القرآن الكريم ليصف داود وسليمان ويغسل عنهما وعن أسياء الله أدران من كتبوا الكتاب بأيديهم . « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ، فويل لهم مما كتبت بأيديهم وويل لهم مما يكسبون » (١) .
 كت قد عزمت على أن أكتب تاريخ الأنبياء ما دمت أقص قصة الإسلام منذ إبراهيم الخليل إلى حاتم السبيى ، إلا أنى وقفت حائرا أمام أيوب فقد اضطربت الروايات في العصر الذى ظهر فيه اضطرابا شديدا لم تصطبرب بمثله في شأن الرمز الذى ظهر فيه أى نى من أنبياء الله ، قال بعض مؤرخى التوراة إنه ظهر في عام ٢٣٠٠ قبل الميلاد أى إبراهيم الخليل الذى قدر أنه كان في عام

١٧٥٠ ق. م. وقال آخرون إنه كان في عام ٤٥٠ ق. م. أى في أيام السبي بعد أن حمل نبوخذنصر أسرى بنى إسرائيل ويهوذا إلى بابل ، وتأرجح مؤرخون وإخباريون آخرون بين هذين التاريخين .

قال الرحالة برترام توماس صاحب كتاب « مفزعات وكشوف في بلاد العرب » Alarms and Explorations in Arabia : إن أيوب من أهل عمان . وقال الكاهن عزرا في القرن الثاني عشر : إن أيوب طهر في نجد . وأجمع أغلب المؤرخين على أنه سبي عرني ولم يكن من أنبياء بنى إسرائيل ، وما جعل بعض شراح التوراة يقدرون أن زمن أيوب كان حوالي ٢٣٠٠ ق. م. أنه ذكر الأهرام والمدافن التي بينها الملوك لأنفسهم . وهذا الرأي لا يستند إلا على استنتاج من اليسير دحضه ، فكما أن ذكر الأهرام ومقابر الملوك ونقد تلك الأعمال يمكن أن يكون في عصر بناة الأهرام فإنه يمكن أن يكون بعد ذلك العصر بقليل أو كثير ، ولا ينهض حجة على أنه كان في نفس العصر . والقرآن الكريم يهدم هذا الرأي فهو يقرر أن أيوب من ذرية إبراهيم . « .. وتلك حجتنا آتيناه إبراهيم على قومه برفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم . ووهبا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ، ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون وكذلك نجى المحسنين » (١) .

ورأى بعض شراح التوراة أن أيوب يسبق عهد خروج بنى إسرائيل من مصر ، وحجتهم على ذلك أنه لم يشر بكلمة واحدة إلى الخروج ولا إلى خراب المدن التي دمرتها الزلازل بجواره ، ولم يرد ذكر « يهو » في صلب كتابه . وهذا الرأي قريب من رأى الإخباريين المسلمين ، فقد قال الطبري : إن أيوب كان نبيا في عهد يعقوب ، وأنه جاء إلى مصر مع يعقوب والأسباط لما أرسل

يوسف في استدعاء أهله . وقال الإخباريون إنه من نسل العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل .

ويقول ول ديورانت في كتابه قصة الحضارة عن سفر أيوب : « وسفر أيوب أسهل من سفر الأمثال ، ولعل ذلك السفر قد كتب في أيام السبي ولعله يصف بطريق القياس الأسر البابلي . ويقول فيه كارليل وهو من أشد الناس تحمسا له : « وأنا أقول عنه إنه من أعظم ما خط بالقلم .. فهو كتاب بيل وهو كتاب الناس أجمعين ! وهو أول وأقدم شرح لتلك المشككة التي لا آحر لها ، مشكلة مصير الإنسان وتصرف الله معه على ظهر هذه الأرض .. واعتقادي أن لا شيء في التوراة أو في غير التوراة يصارعه في قيمته الأدبية » . وقد قامت هذه المشكلة بسبب اهتمام العبرانيين بأمور هذه الدنيا ، ذلك أنه لما كانت الحنة لا وجود لها في الديانة اليهودية القديمة ، فقد كان من الواجب المحتم أن تسال العصية ثوابها في هذا العالم ، وإلا لم يكن لها ثواب على الإطلاق . ولكنهم كثيرا ما كان يبدو لهم أن الأشرار ينجحون ويمورون وأن أشد الآلام قد احتص بها خيار الناس ، فلم إذن كما يقول كاتب المزامير : « هؤلاء هم الأشرار يكثر ثروة ؟ » . ولم يخفى الله نفسه ولا يعاقب الأشرار وبشيت الأحيار ؟ وها هو ذا مؤلف سفر أيوب يسأل هذه الأسئلة وهو أكثر من سبقه عزما وثباتا ، ولعله يعرض بطله أمام الناس رمزا لعقيدته . ولقد كان بنو إسرائيل كلهم يعبدون يهوه (في فترات متقطعة) كما كان يعبد أيوب ، وكانت بابل تمجده وتكفر به ، ومع ذلك فقد اردهرت بابل وتمرغ بنو إسرائيل في الوحل ولبسوا الخيش حين أسروا وشردوا ، فمادا يقول الإنسان في هذا الإله ؟

وجاء في مقدمة هذا السفر ، لعل كاتبنا أريا قد دسها فيه يمحو منه تلك الوصمة ، أن الشيطان قال ليهوه : إن أيوب إنسان « كامل مستقيم » لأنه

رجل محظوظ ، فهل يستمسك بتقواه إذا أصابه الضر ؟ فيسمح يهوه للشيطان بأن يصب ألوانا من المصائب على رأس أيوب ، ويظل البطل وقتا ما صابرا « صبر أيوب » ، ولكن صبره هذا يفارقه في آخر الأمر ويفكر في الانتحار ، ويوم ربه أشد اللوم لأنه نبذه وتخلّى عنه . ويصر صوفى — وقد خرج ليستمتع بالأم صديقه — على أن الله عادل وأنه سيثيب الإنسان الصالح في هذه الدنيا نفسها ، ولكن أيوب يقطع عليه حديثه محمدا :

— إنكم أنتم شعب ومعكم تموت الحكمة ، غير أنه لى فهم مثلكم ، لست أنا دونكم ، ومن ليس عنده مثل هذه !. خيام المخربين مستريحة ، والذين يقيطون الله مطمئنون ، الذين يأتون بإلههم فى يدهم .. هذا كله رأته عيسى ، سمعته أذى وفطت به .. أما أنتم فملفقو كذب أطباء بطالون كلكم ، ليتكم تصمتون صمتا ، يكون ذلك لكم حكمة .

ثم يعكر فى قصر الحياة وطول الموت فيقول :

— الإنسان مولود المرأة قليل الأيام وشبان تعباً ، يخرج كالرهر ثم يحسب ، ويرح كالظل ولا يقف ، .. لأن للشجرة رجاء إن قطعت تحلف ولا تعدم حرا عيها .. أما الرجل فيموت ويلى ، الإنسان يسلم الروح فأبر هو ؟ قد تنفد المياه من البحر والنهر ينشف ويحف والإنسان يصططع ولا يقوم ... إن مات رجل أفيحيا ؟.

ويظل الجدل قائما بشدة ، ويزداد شك أيوب فى ربه حتى يدعوهُ خصمه ، ويتمنى أن يهلك خصمه هذا نفسه بكتاب يكتبه — على مط فلسفة ليبتر Leibnitz وأقواله فى العدالة الإلهية ، وتوخى العبارة التى جاءت فى ختام هذا الفصل « تحت أقوال أيوب » بأن هذا كان فى الأصل ختام حديث يمثل آراء أقلية جاحدة بين اليهود ، ولكن فيسوفنا آخر — أليهو — يبدأ الكلام من هذه النقطة ويشرح فى مائة وخمس وستين آية عدالة الله فى خلقه . وأحيرا

يسمع صوت بين السحاب يتحدث حديثا هو أجل ما في النوراة كلها .
فأجاب الرب أيوب من العاصفة وقال :

— من هذا الذى يظلم القضاء بكلام بلا معرفة ؟ اشدد الآن حقوقك
كرحل فإنى أسألك فتعلمنى ، أين كنت حين أسست الأرض ؟ أحرك إن
كان عندك فهم من وضع قياسها ، لأنك تعلم ؟ أو من مد عليها مطمارا ؟ على
أى شيء قرت قواعدها ؟ أو من وضع حجر زاويتها عندما ترنمت كواكب
الصباح معا وهتف جميع بى الله ؟ ومن حجز البحر بمصاريح حين اندفق
فجرح من الرحم ، إذ جعلت السحاب لباسه والنضاب قماطه وضربت عنيه
حدى وأقمت له مغاليق ومصاريح وقلت إلى هنا تأتى ولا تتعدى وهما تحب
كبريك للحجك ؟ هل فى أيامك أمرت الصبح ؟ هل عرفت الفجر موضعه ؟
هل انتهيت إلى يابيع البحر أو فى مقصورة القمر تمشيت ؟ هل انكشفت لك
أبواب الموت أو عاينت أبواب ظل الموت ؟ أدركت عرض الأرض ؟ أحبر إن
عرفته كله ؟ .. أدخلت إلى حزائن الثلج أم أبصرت محازب البرد ؟ هل تربط أنت
عقد الثريا أو تغلق ربط الخبار ؟ هل عرفت سنن السموات أو جعلت تسبعتها
على الأرض ... من وضع فى السماء حكمة أو من أظهر فى الشهب فطنة ؟
هل يخاصم القدير موبخه ، أم المحاج الله يجاوبه ؟ أسألك فتعلمنى .
وبذل أيوب نفسه لهول ما يرى ويرصى يهوه بهذا فيعفو عنه وبقل
تضحيته ، ويتوعد أصدقاء أيوب لما يطقوا به من حجاج واهية ، ويهب أيوب
نفسه أربعة عشر ألفا من العمم وستة آلاف من الإبل وألف هدان من الثيران
وألف أتان وسبعة بين وثلاث سائ ، وعاش هدا مائة وأربعين سنة . وتذك
حاتمة عرجاء ولكنها خاتمة سعيدة ، لأن أيوب يحصل على كل شيء إلا حواء
أسئلته ، فالمشكلة تظل باقية وسوف تكون لها آثار بعيدة فى تفكير اليهود فيما
بعد .

ويقوم الأستاذ عباس محمود العقاد في كتابه « أبو الأنبياء ، الخليل إبراهيم » ، ولم تكن حجته « أى أيوب » قط في الخلاص وطلب الرحمة أنه يعتمد على موعد الله للآباء والأسلاف ، وقد جاء في مرامير داود وأمثال سليمان كلام يشبه كلامه كأنه مقتبس منه ، فهو من أقدم الأنبياء في الحضارة العربية وكلهم متفقون على أنه من أسائها وإن اختلفوا في مكانه بين شمال نجد وشرق العقبة .

ومن جامعي التوراة من يضع سفرة بين كتب موسى وكتاب يوشع وسائر الأنبياء من بني إسرائيل ، وهكذا وضعه جامع السحرة السريانية مع كتاب العهد القديم .

وقد كان أيوب يعرف الكثرة ولكنه أشار إلى أقدم أدوات الكتابة كما هي معهودة مصر : نقش بالحديد على الحجر وليست طبعا على الطين المحروق أو خطوطا على الأوراق والجلود ، ما عدا طين الخاتم الذي كان يطبع في البلاد الشرقية جميعا على نحو واحد . أما عقيدة أيوب كما تفهم من سفره المجموع في العهد القديم ، فعاية في السمو والكرم والترية .

إنه يكر عادة الشمس والقمر ويصف الله القدير بأنه أعلى من انسموات وأعظم من الهاوية وأعرض من البحر ، وسوى بين الحر والبرد قائلا : « أوليس صاعى في الطين صاعه وقد صورنا واحد في الرحم ؟ » . ويحمد من العنى أن يكون أبا للفقراء وأن تكثف نفسه على المساكين ، وأن يبكى لمن عسر يومه ، ويستعيز بالله أن ينظر إنسان إلى امرأة غير امرأته وأن يطعم في مال غير ماله .

وأجل من هذا شأنا تاريخ العقيدة الدينية أنه أول من نص على البعث في كتب العهد القديم . وكانت تربيته الإلهية التي انتهى منها إلى هذه العقيدة

تربية طويلة صبر فيها على نكبات المرض والوار وحياة الأقربين والأبناء وتدرج من القول بالروال والعدم إلى القول برؤية الله بعد فناء الجسد ، فكان في أول السمر يقول : « الذى يرل إلى الهاوية لا يصعد » . ويقول : « الإنسان يصططمع ولا يقوم » ، و « إذا مصت سموات قليلة أسلك فى طريق لا أعود منها » ، ويتساءل : « إن مات رجل أفيحيا ؟ » .. ثم انتهى من هذه التحارب إلى الأمل فى حلول النفس ولقاء الله : « بعد أن يمى جلدى هذا وينوى جسدى ، أرى الله » .

وعلى الحملة يبدو سمر أيوب غريبا فى موضعه وموضعه بين أسفار العهد القديم ، ولم يكن من عادة بنى إسرائيل أن يجمعوا فى التوراة كتبا لغير أنبيائهم المتحدثين عن ميثاقهم وميعادهم ، ولكنهم جمعوا هذا السفر من الأسفار المشهورة لأنهم وجدوه فى مقاع فلسطين الحنوية محبوطا بتدكره الرواة ، وحسبه بعضهم من كلام موسى وبعضهم من كلام سليمان . ولا عجب أن يشيع هذا الكتاب العجيب حيث تسامع به الناس فإنه عزاء صالح للمعتريين ، وعبرة صالحة للمعتزين . ولا ترال قصة أيوب منظومة شائعة يتعنى بها شعراء العربية الدارحة فى مصر والشام ، ولا يعرف كتابا من كتب التوراة ظفر فى رأى النقاد العربيين بالإعجاب الأدبى الذى ظهر به سمر أيوب ، فقال توماس كارليل عنه إنه واحد من أحل الأشياء التى وعتها الكتابة ، وأنه أقدم المأثورات عن تلك القصة التى لا تنهى : قضية الإنسان والقدر والأساليب الإلهية معه على هذه الأرض . ولا أحسب أن شيئا كتب مما يضارعه فى قيمته الأدبية . وقال فيكتور هوغو : « إنه ربما كان أعظم آية أخرجتها بصيرة الإنسان » .

وقال شاف Schaff : « إنه يرتفع كالحرم فى تاريخ الأدب بلا سابقة ولا

نظير » .

كان اليهود قد طال عليهم الأمد وقت قلوبهم ، فسوا دعوة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى يوم راحوا يكتبون التوراة بأيديهم في المنفى . نسوا الحياة الأخرى التي كانت دعوة جميع الأسياء وحسبوا أن الإنسان يثاب على أعماله في الدنيا ، وأنه إذا ما ذهب إلى الهاوية ، كما كان يعتقد أهل بابل قبل بعثة إبراهيم الرسول وبعده ، ومن هنا كانت حيرتهم ومشكلتهم مع القدر .

إن مشكلة الإنسان وقدرته ونصرف الإله معه على هذه الأرض لا حل لها إلا إذا آمن الإنسان بأن حياته في الأرض تتبعها حياة أخرى ترتفع فيها كل المظالم وتصحح كل الأخطاء ، يعاقب فيها المسيء ويثاب المحسن أحزل الثواب ، بيد أن اليهود كانوا يؤمنون بالهاوية وأن حياتهم الدنيا هي كل حياتهم ومن هنا جاءت الحيرة والقلق والشك والعداب ، « أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لآفيه كمن متعاه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المخضرين » (١) .

وقال المفسرون إن دا النون هو يونس بن متى وإن النون بمعنى الحوت وقد نسب إليه . واحتلفوا في مكان بعثه فقيل إنه كان في بيوى وقيل في فلسطين واختلفوا في سبب ذهابه مغاضبا فقال قوم : ذهب مغاضبا لقومه وهي رواية الضحاك والعدني عن ابن عباس ، وقال الحسن البصري : إنما غاصب ربه من أجل أنه أمره بالسير إلى قومه ليدبرهم بأسه ويدعوهم إليه فسأل ربه أن يظفرهم ليتأهب للشخص إلى ، فقال له الأمر أسرع من ذلك ولم ينظروا . حتى سأل لمن ينظر إلى أن يأخذ نعله ... وكان رجلا في خلقه ضيق فقال :

أعجلنى رى أن آخذ نعى ، فذهب مغاضبا . وروى ابن حوشب عن ابن عباس قال : أتى جبريل يونس عليه السلام فقال : انطلق إلى نينوى فأندرهم أن العذاب الذى قد حضرهم إن لم يتوبوا ، قال له : ألتبس دابة . قال : الأمر أعجل من ذلك . فغضب وانطلق إلى البحر فركب سفينة وكان من أمره ما كان .

تضاربت الروايات فى شأن يونس ، فتارة جعلته يغضب من أجل نعله وتارة جعلته يعصب من أجل عدم السماح له بالتماس دابته .

وقيل مرة إنه بعث فى نينوى وقيل مرة إنه بعث فى فلسطين ، وسبت كلتا الروايتين لابن عباس . ولما كانت أسباب غضبه فى تلك الروايات أتفه من أن تصدر من نبي فلم آخذ بها ، وبحث فى القرآن عن دى نون آخر فلم أجد إلا يوشع بن نون فتى موسى ، فقلت إنه ذهب مغاضبا لما تأخر فتح فلسطين وليعمر الله لى إن كان قد جافانى التوفيق .

وقبل أن أختتم هذا التذييل أعود فأقول ما سبق أن أشرت إليه فى تذييل سابق من أن كتاب العرب يقاسون من محاولة إعادة كتابة الأسماء العربية التى كتبها الباحثون والمنقبون والمؤرخون الأجانب بأحرف لاتينية ، ويحدون مشقة فى إعادة تأليفها إلى أصلها العربى وغالبا ما يتعدون عن القصد ويجافهم الصواب . وحدث بعض مؤرخينا وبعض من قاموا بترجمة النصوص الآشورية يكتبون اسم الملك الآشورى الذى جاء بعد سلمنصر « تغلت فلاصر » مرة و« تغلت فلاصر » مرة أخرى و« تحلات بلاصر » مرة ثالثة ، ولا أدرى أى هذه الأسماء هو الصواب .

وكتب اسم الأميرة العربية Tabua التى حملت لتترى فى البلاط الآشورى « تابوا » ولا أعرف حقيقة اسمها أهو « حة » أم اسم عربى آخر حرفه كتابته

بحروف لاتينية .

وكتب اسم القائد العري الذي ثار على الآشوريين Vailte بطع ، وفي بعض الكتب العربية يكتب « يثع » . أما ملك السط الذي أسر يطع وحمله إلى آشور بابل بعد أن أحاره تقربا للملك الآشوري فلم أذكر اسمه ، لأنى لم أعرف كيف أكتبه بالعربية ، إن اسمه Matru ترى كيف كان عرب الشمال ينطقون هذا الاسم ؟

ولما عاد حزائيل إلى نينوى وقابل الملك الآشورى « أسر حدون » — وقال بعضهم إن اسمه « آشور أحي الدين » — استقبله بلطف وسلمه أصنامه الأسيرة . الآلهة Diblat — ترى أمى اللات ١٩ — و Daja و Nuhala و Ebrillu وعشتار ، ولم أعتد إلى حقيقة أسماء هذه الأصنام العربية فتركتها على كره منى وأنا أكتب قصة تلك الفترة . ترى أما آن الآوان أن يقوم متخصص عري في تاريخ هذه الحقبة ويحقق الأسماء العربية في النصوص البابلية والآشورية ويعيدها إلى أصلها ؟ إنها خدمة جلية تستحق كل ما يبذل فيها من تعب .

بدأت كتابة تاريخ فترة لم يعرف عنها المؤرخون ولا الإخباريون العرب شيئا وكان لهم عذرهم فقد اندثرت الحضارة التي قامت في جزيرة العرب بعد الحليل إبراهيم إلى أن بعث محمد رسول الله ﷺ ، وقد بدأت بطن الأرض تلد أسرارها في تلك المنطقة ، وإني لعل ثقة من أن الأيام التالية ستكشف عن حقائق مذهلة توضح أثر تلك النهضة الروحية التي بثها في المنطقة حليل الرحمن ودريته التي طلعت مؤمنة بالله وحده حول الكعبة ، ولم تعرف الشرك بالله إلا قبل بعث محمد بن عبد الله ﷺ بثلاثمائة سنة .

أشرك بنو إسرائيل بالله وموسى بينهم وعبدوا آلهة الشعوب في كل العصور ، أما بنو إسماعيل الذين ظلوا حول الكعبة فقد عبدوا الله وحده وازدهر فيهم دين أبيهم إبراهيم ولم تقع نكسة الشرك فيهم إلا بعد أكثر من ألف

مسة من بعثة الخليل ، وظلت ملة إبراهيم في الخفاء منهم إلى أن بعث الله رسوله
ليعيد شريعة إبراهيم ناصعة كما كانت : « إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم
يكن من المشركين . شاكرا لأنعمه اجتباها وهداه إلى صراط مستقيم . وآتيناها في
الدينا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين . ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم
حنيفا وما كان من المشركين » (١) .

القاهرة في ١٠ — ٥ — ١٩٦٦

المراجع

قرآن كريم

الكتاب المقدس

تاريخ الأمم والملوك

تاريخ ابن خلدون

قصص الأنبياء

شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام

وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى

مدن دارسة

سنة أرض القمر

الدولة العربية الكبرى

دراسات في تاريخ الشرق القديم

فجر الضمير

مصر والحياة المصرية في العصور

القديمة

مختصر دراسة للتاريخ

للطبري

للشعبي

للمحافظ أبي الطيب القاسم

للسمهودي

تأليف ليونارد كوترل

ترجمة عديلة حسن مياس

اللواء رفعت الجوهري

محمود كامل المحامي

الدكتور أحمد فخري

تأليف جيمس هنري برستد

ترجمة الدكتور سليم حسن

تأليف أدولف أرمان وهرمان راسكة

ترجمة الدكتور عبد المنعم أبو بكر

تأليف أرنولد توينبي

ترجمة فؤاد محمد شبل

قصة الحضارة

تأليف ول ديورانت

ترجمة محمد بدران

Seven Pillars of Wisdom. By T. E. Lawrence .

تاريخ العرب قبل الإسلام

الدكتور جواد علي

محمد رسول الله في بشارات الأنبياء تأليف محمد عبد العفار الهاشمي

محمد (ﷺ) في التوراة والإنجيل والقرآن

إبراهيم خليل أحمد

إبراهيم أبو الأنبياء

عاس محمود العقاد

للمؤلف

- أحسن بطل الاستقلال
- أبو در العفارى
- بلال مؤذن الرسول
- فى الوظيفة
- سعد بن أبى وقاص
- همزات الشياطين
- أبناء أبى بكر الصديق
- فى قافلة الزمان
- أميرة قرطبة
- النقاب الأزرق
- المسيح عيسى بن مريم
- أهل بيت النبى
- محمد رسول الله

تأليف : مولاى محمد على

ترجمة بالاشتراك مع مصطفى فهمى

- قصص من الكتب المقدسة
- صدى السنين
- ترجمت إلى الأندونيسية

- حياة الحسين
- الشارع الجديد

(رواية)

- وكان مساء (قصة)
- أدرع وسيفان (قصة)
- المستنقع (قصة)
- ليلة عاصفة (مجموعة أقاصيص)
- الحصاد (رواية)
- جسر الشيطان (قصة)
- النصف الآخر (قصة)
- السهول البيض (رواية)
- أم العروسة (قصة)
- قلعة الأبطال (قصة)
- وعد الله وإسرائيل
- عمر بن عبد العزيز
- هذه حياتي
- الحفيد
- ذكريات سينمائية
- كشك الموسيقى
- خفقات قلب
- صور وذكريات
- الإسراء والمعراج
- القصة من خلال تجاربي الدانية
- عدو البشر
- أبطال الجزيرة الخضراء
- النمر
- الله أكبر

- ثلاثة رجال في حياتها
- مسجد الرسول
- فات الميعاد
- آدم إلى الأبد
- العرب في أوربا
- الدستور من القرآن العظيم

محمد رسول الله

والذين معه



في عشرين جزءا
للأستاذ عبد الحميد جوده السحار

- | | |
|-------------------|---------------------------|
| ١١ — الهجرة | ١ — إبراهيم أبو الأنبياء |
| ١٢ — غزوة بدر | ٢ — هاجر المصرية أم العرب |
| ١٣ — غزوة أحد | ٣ — بنو إسماعيل |
| ١٤ — غزوة الخندق | ٤ — العدنانيون |
| ١٥ — صلح الحديبية | ٥ — قريش |
| ١٦ — فتح مكة | ٦ — مولد الرسول |
| ١٧ — غزوة تبوك | ٧ — اليم |
| ١٨ — عام الوفود | ٨ — خديجة بنت خويلد |
| ١٩ — حجة الوداع | ٩ — دعوة إبراهيم |
| ٢٠ — وفاة الرسول | ١٠ — عام الحزن |

رقم الإيداع ٥٠٤٧

الترقيم الدولي ٧ - ٤٢١ - ٣١٦ - ٩٧٧